

اختلاف
على نص الحكم
أم على حكم النص



اختلاف
علــى نــص الحــكــم
أم علــى حكم الــنص

منير فارس

اختلاف
على نص الحكم
أم على حكم النص



الكتاب: اختلاف على نص الحكم أم على حكم النص

المؤلف: منير فارس

تصميم الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي- بيروت- لبنان

ت:٣٠١٤٦١/٠١-فاكس:٣٠٧٧٧٥

ص.ب. ٣١٨١/١١-

الطبعة الأولى: ١٩٩٨

«إذا لم نحسن قراءةَ التاريخ،
لا نحسن صناعة
المستقبل».

منير فارس



حسين يوسف الكويتي

منير الذي عرفت

حينما طلب مني الصديق منير فارس أن أكتب مقدمة لكتابه، احترت لمن أكتب: عن الكتاب وقد تسنى لي قراءته، أم عن مؤلفه؟

وأخيراً اخترت الأمر الثاني، لأن منيراً وضع كتباً في الماضي، وكتب في عدد من الصحف، وكان لي شرف التعاون معه في مشروع إعلامي جرى نحره رغماً عني؛ وهو بالتأكيد سينجز كتباً أخرى في المستقبل غير الذي بين أيدينا. وبالتالي، فإن هناك ثابتاً وحيداً في كل ذلك. . . هو المؤلف الاستاذ منير فارس. بيد أن أتكلم عن منير، فذلك يجعلني محتاراً أيضاً في أي صفة أتناوله بها.

فهو الصديق الصدوق الذي تشعر لغيابه بالوحشة. . ولحضوره معنى وفائدة، وكأنك بمعيته تعبر جسر القمح المعطاء، نحو جزر الدفء والاخضرار الدائم، ف «الرفقة» معه لا

حدود لها، إذا كنت تتمتع بشفافية الحضور، وصدق المنطق وصراحة الوجدان، لأنه في تعامله مع الآخرين صريح كالطبيعة البكر، وبذلك فالاخلاص منه لرفاقه وزملائه وأصدقائه لا مكيال له، لأنه ينبع من علاقات واضحة تماماً يقيمها، لا لبس فيها، وانطلاقاً من فكر لا يناور فيه، ووعي يحاول دائماً أن يراكمه بالاطلاع والمعرفة. وبذلك فهو مقتنع دائماً بأن «صديقك من أصدقك لا من صدّقك».

منير في سلوكه الخاص يهدف دائماً لأن لا يكون متعارضاً مع نهجه العام... في فكره وعلاقاته، تجده سريع الحضور والبديهة والحركة، لكنه غير متسرع، لا يطلق أحكامه وآراءه جزافاً، وإذا ما وجدته كتوماً في إنبائك عن موقف ما يخصك، فلأنه يخشى أن يتسبب لك بجرح، وهو ما تعوّد إلاَّ أن يكون بلسماً، لكنه سرعان ما يعود ويعلمك بموقعه، إذا شعر أنك فهمته على غير حقيقته.

منير في الملمات تجده.. في الأفراح هو معك، وفي الأتراح هو خير معاضد، وفي قضاء الوقت برفقته هو أفضل جليس.. في كل موقف هو إلى جانب أصدقائه دائماً.. دون أن يطلب على ذلك منة ولا شكوراً.

هذه الشفافية في العلاقة مع من حوله، تتجسد بوضوح في معنى أعمق بمعناها الوطني، فهو الوطني الغيور الذي لم يتأثر بانتماء لطائفة، لأن واقع الناس عنده يقول «وجدنا على دين أبائنا وعليه نحن سائرون»، فهو على الدوام ثوري يعزف بنايه أغنية

للبراعم.. يحلم بشذى الأرض.. وكأنه منذور لرحيق الورود.. التي تتغير وتتجدد كل ربيع.. وتفوح شذى يعم كل من حوله.. لأنه مؤمن تماماً أن الصبح طالع كل يوم... الصبح طالع كل يوم.

أخيراً، يبقى كلمة في الكتاب... وهو باختصار شديد محاولة جادة لقراءة جديدة مستنيرة لواقع ـ تاريخ، أرادوا حبسنا بين طيات سطوره التي أراد أن يضيء شمعة على بعض حروفه، خارج إطار المألوف والمتداول؛ فلعله وضع الخطوة الأولى، لعله أفلح، ويقيناً أنه كان صريحاً واضحاً... فهل تنفع الصراحة والوضوح في هذا الزمن الذي يريده البعض أن يبقى أسير الظلمة.

منير أضاء شمعة...

أحمد زين الدين



الإهداء

لو طالت بي الفكرة، واضطررت إلى السهر، لو أحسست بشيء من التعب والعياء، لو خرجت بسفر أو رجعت بعد غياب، لو شعرت بالجوع أو بالعطش، ولو حاولت مقاومة التوتر بفنجان قهوة.

لو اجتاحني غضب وسيطر قلق، واحتجت إلى الراحة والهدوء، لو بحثت عن الصبر ومنسالك الجلد، لو جاء وقت الفراغ وكنت جليس العشق والهوى، ولو أردت أن تبلغ مبلغ الرجال العظام، فإنك تردد:

وراء كل عظيم امرأة. وانتهز فرصة التواضع لأهدي إلى زوجتي هذا الكتاب.

المؤلف



مقدمة

لأن الإيجابيات ليست مجال جدال أو خلاف، ولأن السلبيات والعيوب على مدى مسلسلاتنا السياسية والتاريخية هي مثار جدل ونقاش حافل، لا بد من التوقف عند كل محطاتها، من أجل معرفة أسباب الخلل، ومراجعة مصادر التعثر التي تجتاح مجتمعاتنا العربية منذ قرون طويلة وما زالت إلى الآن.

وترتدي دراسة تاريخنا أهمية بالغة من أجل إعادة إنتاج حركة فاعلة ومتفاعلة مع حاجات العصر وتحديث المجتمع على أسس العلم والمعرفة، وتطوير المجتمعات برمتها غاية كل شعب حي، ومراد كل التيارات السياسية والفكرية على اختلافها؛ لكن بلوغ وتحقيق أهداف البشر بقضايا الحق والعدل والمساواة، تختلف وسائلها وطرق الوصول إليها بين مدرسة وأخرى.

وقد ذكر أكثر من واحد بأن أنظمة الحكم السائدة أو التي كانت سائدة في العالم (منها ما بقي ومنها ما زال) وسواءً كانت

ليبرالية ديمقراطية أو دكتاتورية أو اشتراكية أو دينية، لم يبلغ أحدها حد الكمال في تلبية حاجات الناس سواءً على المستوى المادي، أو على المستوى الروحي. ويصح القول بأن رؤية هذه المسألة في تقويم أنظمة الحكم هي مسألة نسبية، ذلك لأن كل نظام لا يمكن أن يكون فاسداً بالمطلق، كما لن يكون في لوحة الكمال بالمطلق أيضاً.

ولأن أي نظام نفترض أنه بلغ مرتبة الكمال، فأنه ينفي مبرر وجوده.. فلا كمال طالما توجد حياة، ولا حياة إذا تحققت مسألة الكمال، لكن الأمر هنا يقتصر على ارتقاء في نسبية الموقع والحالة، لدرجة تقترب أو تبتعد من العدالة والمساواة.. ولكن لن تبلغهما.

فلا يجوز إذاً، تقويم نجاح أو فشل أي نظام سياسي للحكم من خلال أزمة عانى منها أو فرضت عليه ظروفاً ذاتية وموضوعية حرفته عن المسار واختل مع الواقع، خصوصاً إذا كان هذا النظام قد جاء نتيجة استفتاء الشعب واختياره. فقد تعاقب على أنظمة الحكم السياسية وغير السياسية مراحل غنية، تكبدت خلالها وعلى مر التاريخ خسائر فادحة بفقدان زمام المبادرة، وقيادة التحول، ذلك لأن أي انتقال لأي مجتمع من وضع إلى آخر، من الضرورة أن يشهد عمليات تحول واسعة أو ضيقة في مساره العام، تفرض عليه متغيرات إذا تماشى معها واستوعبها واحتوى ضروراتها، توافرت له عناصر متينة من الثبات والاستمرار؛ وإذا تخلَّف عنها وتوقف في محطة الترقب

والانتظار، تهاوى وانزلق في متاهات الضياع والانفكاك، لأن كل نظام يحمل علة فنائه ونقيض وجوده، استفزازاً لحقيقة موضوعية تنبت كل يوم بزهر جديد ومفاهيم جديدة..

وككل سياسة، تعبر الشعوب في كل بقاع الأرض عن تعلقها بالحرية والديقمراطية، وبحقها في النضال من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية والكفاية الاقتصادية.

ومنذ عرفت البشرية أنظمة للحكم، بدأت معها الشعوب المقهورة والفقيرة بالنضال بمختلف الأدوات والأساليب في الدفاع عن قضيتي الحق والعدل. فكانت تسقط حكومات وأنظمة، وتصعد أخرى مكانها عبر التظاهرات والثورات الشعبية وحركات التمرد والعصيان المدني، دفاعاً عن الحقوق وعن الحريات، والتخلص من كل أشكال التعسف والظلم، والإطاحة بكل ممارسات التسلط والفساد.

من هذا الفهم، يمكن أن نعتبر بأن تاريخ حركة الفكر العربي والإسلامي في منطقتنا العربية، جدير بالبحث والاهتمام، لما له من أهمية في معالجة قضايانا الحاضرة والمتفجرة، وان دراسة هذا التاريخ تكتسب درجة عالية من الدقة لبلوغ الغاية والهدف. فقد «ظلت دراسة المواقف المثالية والميتافيزيقية منذ العصر الوسيط الذي صدر عنه تراثنا رهينة العجز وقاصرة عن كشف العلاقة الواقعية الموضوعية ـ غير المباشرة ـ بين القوانين الداخلية لعملية الإنجاز الفكري، وبين القوانين العامة لحركة الواقع الاجتماعي، ولذا بقي تاريخ الفكر العربي ـ الاسلامي

تاريخاً ذاتياً سكونياً أو «لا تاريخياً» لقطع صلته بجذوره الاجتماعية، أي بتاريخه الحقيقي الموضوعي»[1].

نكتشف هنا، بأن كل الاسهامات التي جرت، ما زالت تعاني من عجز المواكبة السليمة لتطور الأحداث، ومن سير بطيء في كشف العلاقة التاريخية للأحداث الداخلية الضخمة، والقوانين التي تحكمت بها، مما أسفر عن قصور فكري ظل يراوح مكانه لقرون طويلة.

إن الشروع بمجادلات ومبادرات مختلفة ومتنوعة في إطار سلسلة من المحاولات التطبيقية، يرتبط بعمق الحاجة الموضوعية لدراسة التراث الفكري والسياسي للشعوب العربية، لبلوغ وضوح في العلاقة بين حاضر الفكر العربي السياسي وواقعه، وبين ماضيه وتراثه، من أجل خلق الأرضية المناسبة، والفهم المشترك للحاضر والمستقبل بمضامين عصرية وتحررية لحركتنا العربية القادمة منعتقة من كل قيد.

فمسألة إعادة النظر بتراثنا الفكري العربي ودراسته من منظور علمي، وبمنهجية بحث مادية وتاريخية، تسلط الضوء على كفاحية الجهود العلمية المبذولة في النشاط العام لتصحيح المسار، وتوليد المفاهيم المعرفية والفكرية الملائمة لتطور العصر وخصائص المجتمع وحاجاته المتغيرة تحت كل ظرف، وعبر شكل من أشكال التفاعل مع الحضارات الأخرى، لا بشكل صراع حاد معها أو نافي لها وغير معترف بها.

---

(١) د. حسين مروة ـ النزعات المادية ج١، ص٦ .

ولكي لا نقع في شباك التكرار والاجترار المستمرين في حركتنا الفكرية والتراثية، وبالأخص، المجتهدون بالاعتماد على نص قرآني «. . . **وإنا على آثارهم لمقتدون**»، لا بد من تسليط الضوء على الجوانب المفصلية من مراحل تطور الحكم العربي الإسلامي، الذي اختزن الكثير من الإيجابيات، في مقابل الكثير من السلبيات أيضاً، والتي ما زالت آثارها تلاحقنا إلى اليوم في معضلة بناء الشخصية العربية.

وما نعيشه اليوم ونتداوله من ميراث ومفاهيم، وما نشهده من خلخلة مفجعة في علاقات البنى الاجتماعية العربية، ومن تحكم وسيطرة الاقطاع السياسي النظامي المتخلف لأمور البلاد والعباد، لا تبدو الصورة في تشويقها من بعض ما تسطَّر به تاريخ الأمة العربية من حركة النهضة ومحاولات تأسيس جديد لفكر عربي جديد.

ومنذ أخذت تتشكل المشاعر القومية العربية في الأوساط الشعبية، جرت محاولات كثيفة باتجاه تقليد الماضي وأساليبه، ونسخ تراثه والتماثل به عبر «التعصب له والتفاخر به على نحو من المبالغة المفرطة، وبعث أصوله، تعليماً ونشراً وشرحاً، أي تكراره مشوهاً من دون إضافة أو تطوير أو إعادة نظر في أساليبه ومضامينه. .»[١]. وفي هذا المضمار، كانت حركة التحرر المزمع العقد على إنشائها «حركة بدائية رجعية بأسلوبها تقدمية

---

(١) المصدر السابق ـ ص٨ .

بدوافعها. . .»[1].

لكن التعامل مع التراث الحضاري للفكر العربي ـ الإسلامي اتخذ وجهة سير سهم البوصلة نحو الصحراء، فجاءَت الممارسات العملية لهذه الحركة بعد الحرب العالمية الأولى «تقترن بمواقف لا تتناسب مع مرماها التقدمي»[2]. وهذا أمر يرمي إلى مترسة الماضي في عقلية الحاضر، والتصدي للثقافة الديمقراطية الوطنية المنفتحة، والمبنية على أسس الاختلاط والإنصهار الاجتماعي، سياسياً وفكرياً واقتصادياً.

لا نقلل هنا من أهمية الحضارة العربية الإسلامية وحجم تأثيرها وتفاعلها مع الثقافات والحضارات الأخرى، والتي أعطت الإنسانية جمعاء نتاجاً هاماً وبارزاً في العلوم التاريخية وتكوين الحضارات؛ ونسبة تأثيرها على حركة الفكر العالمي عموماً وحركة الفكر الأوروبي خصوصاً.

وتكوين مجتمعاتنا مرتبط بحركة هذا التراث، وكل فلسفة في العالم لا تخرج من مُزن سابحة في مدار الأرض، بل تخرج من واقع اجتماعي وثقافي وفكري تعكسه نسبة الوعي الطبقي، وكل فلسفة في أي مجتمع وجدت « . . . مستندة إلى التراث الفلسفي السابق لها، واتخذت من هذا التراث جزءَاً من مكوناتها. . .»[3].

---

(١) المصدر السابق ـ ص٨ .

(٢) المصدر السابق ـ ج١ ص٩ .

(٣) المصدر السابق ـ ج١ ص١٢ .

إن الأمر أولاً وأخيراً يحتاج إلى البحث عن الحقيقة، وهي مهمة ملازمة لوجود البشر لطالما هم ء ئشون على سطح الكرة الأرضية. ولأنه «ليس بالرغبة الذاتية يكون الشيء حقيقة أو لا يكون، ذلك بأن الحقيقة ليست ذاتية، إنها موضوعية، وإلا فهي ليست حقيقة إطلاقاً، بل وهماً أو تصوراً أو رأياً أو رؤيا...»[1]. ويضيف الدكتور مروة: «إن تاريخ الفلسفة واحد، فلماذا تختلف إذاً طرق تفسيره»[2]. والجواب هنا هو اختلاف الأهداف وتباين مرامي المدارس الفلسفية في تفسير التاريخ الفلسفي، وأكثر في تحديده، بما يعني استقلالية السعي لكل فلسفة على حدة، ومنعزلة عن الواقع والتاريخ البشري العام، وهي أيضاً ـ أي الفلسفة ـ تخضع لاعتبارات الزمن الذي انتجت فيه، ومستوى وموقع منتجي هذه الفلسفات في ظروف اجتماعية وسياسية واقتصادية محددة.

فالحاضر ليس واحداً، وكذلك التراث، فهناك أكثر من علاقة ترتبط بالحاضر، كما في الماضي والتراث، فكما أنه لا توجد معرفة واحدة، بل معارف متعددة في الحاضر، كذلك التراث الفلسفي والفكري يتعدد بالمعارف والنظريات والاتجاهات المختلفة. هذا ما يبدو ظاهراً في الشكل، بينما هو واحد في الجوهر والمضمون، وكذلك في الأهداف والغايات، بالرغم من كل النظريات المتعددة في تفسيره.

(١) المصدر السابق ـ ج١ ص١٦ .
(٢) المصدر السابق ـ ج١ ص١٩ .

وبالعودة إلى تاريخنا السياسي، وإلى فلسفة هذا التاريخ، نجد أن كل المناطق التي بسط الحكم الإسلامي قبضته ونفوذه عليها، وكل الدول والشعوب التي اعتنقت الإسلام بفعل الاحتلال والإكراه، بدأت بالتقهقر والتراجع نتيجة الخلل في الوضع الداخلي للدولة الإسلامية وعدم قدرتها على الإمساك بالأمور، بتجذير الثقافة والوعي والمعرفة في الدول المفتوحة؛ لذلك عرفت الدول التي عاشت في كنف السلطة الإسلامية تراجعات مماثلة للتراجع الداخلي، ولم يبق دولة إلى اليوم إلا وتشهد ظروفاً سياسية مشابهة لدولنا من التخلف والفقر والجهل، ومن عدم القدرة على مواكبة التطورات والعصر. فمن بلاد الهند وإيران وأفغانستان وباكستان، مروراً بدول الجزيرة العربية، ودول المغرب العربي، إلى بعض أجزاء من الدول الأوروبية التي كانت خاضعة لسلطة الحكم الإسلامي، بقيت كلها تدور في فلك الجهل والتعصب. فهل كان لهذه الحالة أسباب سياسية ودينية واقتصادية واجتماعية؟ أم كان لها أسباب أخرى حالت دون عملية الاستمرار والتطور؟ أم ان النظرية الدينية لم تستطع المواكبة بتلبية حاجات العصر؟ وهل هذا يجرنا إلى التساؤل بأن الإسلام دين ودولة أم لا؟ وهل يبدو دور الدين محصوراً فقط بتقديم أدبيات وأخلاقيات للبشر دون الأمور الأخرى من سياسية واجتماعية واقتصادية والتي هي من عماد وأسس تنظيم أي مجتمع؟

إن إهمال الأمور العلمية، وعدم قبول الآخر، وإنكار السياسة والابتعاد عنها، والاعتماد على دين روحي بسننه

وأحكامه بمواصفات أخلاقية ومعنوية، لا تبدو في حقيقة الأمر مستجيبة لتنوع الحياة السياسية والفكرية والعلمية التي تحتاجها أي دولة للخوض في معركة البناء والتحديث والعصرنه، دون إغفال ما لقيمة ودور المفاهيم الروحية من علاقة جدلية وخطوط متوازية في مسيرة بناء الدولة والمجتمع.

ومن هذا المنطلق جاء تطور السلطة في الإسلام على قياس الشخص، بعدما كانت أيام النبي (ص) بالوحي والنص الألهي. وفي ذلك لم تعرف المنطقة العربية شكلاً صحيحاً لمفهوم النظام السياسي وبناء الدولة، وإنما عرفت نوعاً من السلطة الإلهية بواسطة حاكمين مؤلهين دون منازع. وقد أفرزت الظروف التاريخية والموضوعية هذا الشكل من السلطة، وأوجدت مبرراتها على كل ما عداها تحت شعار النص الإلهي الذي شرَّع لهذه السلطة وأمدَّها بسلسلة من الآيات حسمت الجدل حول مفهوم هذه السلطة.

والسلطة كما رآها جاك **دريدا** وقبله **لايبنتز** و**ديكارت** بأنها «تفرز مبرراتها وتعتبرها المشروعة وحدها»، بمعنى أن هذه السلطة تعتبر نفسها الشرعية الوحيدة، وكل خروج عليها تآمر وتمرد وعصيان؛ ويتم كل ذلك بأن هذه السلطة تمارس كل صلاحياتها المطلقة تحت شعارات الوطنية والديمقراطية وحماية المكتسبات، كما تطرح شعارات تقدمية تطرحها الأحزاب والتيارات المعارضة، متجاوزة بذلك قناعاتها بهدف الامتصاص والاحتواء والقوطبة لمضامين الشعارات التقدمية للناس، وإيهامهم

بأنها وحدها ـ أي السلطة ـ صاحبة التغيير وصانعة الثورة، مخترقة بذلك كل الحدود العامة لتبرير مصالحها واستمرار سيطرتها.

وفي مجتمعاتنا العربية عامة لا يعدو كون السلطة مطلقة فحسب، وإنما تمثيل للإله على الأرض، وتفرد بالحكم واستهتار بجميع النائمين والحالمين والمعزولين والمنتظرين في غرفة عارية من الأمن والعدالة والمساواة. ولسان حال هذه السلطة ينطلق من عنانه بإذاعة كل شعارات الغيرة والسهر على الشعب والوطن!! واسترسال في محبة غير عادية في مناسبات عادية وغير عادية. وإظهار نوع من الحرص المزيف ولهفة مغلفة بأبواق الحرية المزعومة وصرعات من إعلام عن بطولات لم تصنعها السلطة، وحديث عن حرية وديمقراطية فارغة من كل مضمون إلا من أحرفها المتقاطعة!!!

ونحن في سيرة هذه الأمة وشعب هذه الأمة، «لسنا أكثر من ماكينة حية معذبة تتحرك بما لقنت وشحنت وعبئت به في الأعصاب والشرايين والأنظمة البيولوجية والنفسية والأنتربولوجية الثاوية...»[(١)].

وحتى في عصرنا الحاضر، لو استعرضنا حال الانتخابات المسمَّاة ديمقراطية، والتي تجري في أوطاننا تحت الضغط النفسي والسياسي والاقتصادي البشع، بما يدفع الناس إلى خيارات لا تعبر عن حقيقة مشاعرهم وقناعاتهم. وهكذا، الانتخابات في أوطاننا أشبه بالمبايعة والتعيين، من أن يقال عنها انتخابات حقيقية

---

(١) الياس لحود ـ كتابات معاصرة ـ ص٤ العدد ٢٨ عام ١٩٩٦ .

بالمعنى الصحيح. وهو ما حصل في احتكار السلطة وممارستها بعد موت النبي محمد (ص) عن طريق المبايعة من دون أي نص أو قانون أو أي مفهوم لنوع السلطة وطريقة الوصول إليها في موضوع تمثيل الشعب.

ولذلك نجد في عصرنا الحاضر بأن جماعة السلطة وأزلامها تقود الانتخابات وتنظم الحملات الانتخابية، وتفبرك المعارك واللوائح وكل الحرتقات وشراء الأصوات، وطبخ الدعايات والشائعات في وقتها. فيكون كل الذين يركبون «بوسطة» السلطة يلتف حولهم عدد غفير من الواقفين على لائحة الانتظار، نظراً لارتفاع الرسم والبدل المطلوب لاعتلاء الجرافات والمحادل السائرة في دعس الشعب والوطن.

ورغم كل ذلك، وكل هذه المسرحيات التي تمثل على الشعب يسمون الانتخابات بالنزيهة والديمقراطية!!! أوليس عجباً أن يفوز مرشحون للسلطة ويصبحوا نواباً قبل عمليات الانتخاب «الديمقراطية» كما يزعمون؟!!. أو بالأحرى قبل حصول عمليات الفرز «النزيهة» و «الدقيقة»؟!!!.

ففي أي دولة في العالم يصبح المرشح نائباً في المجلس التمثيلي قبل أن ينتخبه الشعب؟!! إلا في أوطاننا المسماة «ديمقراطية». وقد تدوم سلطة الحاكم لسنوات طويلة تحت ذرائع الاستثناء والظرف الإستثنائي، وليس لمرة واحدة، بل لمرات ومرات. فصار الاستثناء عندنا قاعدة دائمة وأزلية، وواقعاً مستمراً إلى ما لا نهاية!! والاستثناء هنا يبدو بأنه

استمرار للخطأ والتزوير والتلاعب بمصائر الشعوب.

من هنا، فأن عملية الانتخاب الديمقراطي للممثلين عن الشعب، لا تعدو كونها تعتمد على القاعدة التالية: إذا انتخب المواطن أم لم ينتخب، فلائحة السلطة فائزة ورابحة لا محالة. ويقنعون المواطن بأنه لا فائدة من التعب ووجع الرأس، وتكليف النفس المشقات والعذاب، فالذي سيأتي سيأتي، ويقرر هو الفوز بنفسه مدعوماً مِنْ من يقرر مصير الشعب والوطن!!! وفي ذلك إلغاء للعملية الديمقراطية، ومصادرة لحرية المواطن وللعملية الانتخابية برمتها. وهذه المعادلة تجرنا إلى «أننا إذا لم نفوّضهم برضانا، استمروا في تفويض أنفسهم بالنيابة عنا...»[1]. ولو افترضنا أننا تحت ضغط الظروف والأحوال أتينا بهم إلى الندوة البرلمانية، فأنه يصح القول «...وإذا فوّضناهم بتمثيلنا في اللعبة الشديدة الإتقان، مثلوا في المسرح علينا، ليمثلوا بعد الفوز بنا خير تمثيل...»[2].

وخلاصة استنتاجنا، يمكن القول بأن شعوب أمتنا متفرجون بلا وعي. والفرجة عندنا صارت تسلية مشوّقة، تحرفك عن التنبه لحركة الوعي والتحليل والتمييز؛ ذلك لأن مفاهيمنا وتصوراتنا وقناعاتنا وحتى معارفنا تتحد من خلال إعلام السلطة وشاشات السلطة والمسؤولين، ومن خلال البرامج المعطِّلة للعقل والتصويب، ومن خلال المناهج التربوية المحرفة في المدرسة

(١) الياس لحود - كتابات معاصرة - ص٤ العدد ٢٨ عام ١٩٩٦ .

(٢) الياس لحود - كتابات معاصرة - ص٤ العدد ٢٨ عام ١٩٩٦ .

لوسائل التربية الوطنية الصحيحة، وبإطلاق ودعم تربية الإرساليات الدينية والطائفية والمذهبية، وكذلك بتزوير وتشويه قناعاتنا عبر أدوات القراءة والإرشاد وبرامج التبليغ كافة وعلى كل المستويات. إن كل ذلك يجرنا إلى القول، إنه على المواطن الالتقاط والتلقين والاحساس فقط بما يأتيه ويتلقاه من الزعماء، من أجل حرفه عن الصواب، وحرمانه من حرية التعبير، وعزله من كسب الثقافة والمعرفة، ومنعه من الفعل والابداع. يتم ذلك كله تحت طائلة البلدوزرات المالية والاعلامية الهائلة، ليحجبوا عنك التبصر!!!.

أليس ذلك مؤداه «أن نكفر بكثير من المقدسات الديمقراطية وفي أعلاها حق الرأي والرأي العام، أو أن نشكك في كل شيء، في الشيء وعكسه، في القائم والبديل..»[(١)]. ويؤدي أيضاً إلى مقولة: إذا استطعت تجويع الشعب، يمكنك تطويعه كما تشاء.

وبالعودة إلى التطور السياسي للمجتمع العربي، وفي أنظمة الحكم التي تعاقبت، والتي كان أبرزها نظام الحكم الإسلامي، فإنه يمكن القول بأن السلطة تكونت بثلاثة مفاهيم:

- سلطة النبوة بما هي سلطة إلهية جاءت بعد سلطة شيخ القبيلة.
- سلطة الخلفاء بما هي نيابة عن النبي (ص).
- ثم تحولت إلى ملك في عهد معاوية. وما زالت أشكال

---

(١) المصدر السابق ـ ص٥ .

هذه السلطة تلاحقنا إلى اليوم.

إن هذا النوع من الطرح، يؤكد بأنه ليس هنالك نظرية سياسية حقيقية بالمعنى السياسي لمفهوم السلطة عند الإسلام، ومن خلال ذلك لا يمكن أن نستنبط طبيعة النظام الذي يمكن ان يحكمنا على طريقة التفكير الإسلامي الذي يدعيه البعض. إذ يبقى نظام الحكم في هذا السياق إرتجالياً، اغتصابياً وجبرياً بالوراثة أو بغيره. ومما يعني بأنه لا تعود هناك حدود لسلطة الحاكم، بينما هناك حدود لسلطة الشعب، وتخوم لحرية الاختيار!!!.

وإذا كان نجاح الحكم الإسلامي أيام النبي محمد (ص) وبعده جاء عن طريق الوحي وثبت بالنبوة، فإن السؤال: هل لا يستقيم أو لا ينتظم الحكم الإسلامي مجدداً إلا عن طريق الوحي؟. في وقت ان موضوع النبوة والوحي قد توقفا، وأقفل عليهما بمجيء النبي محمد (ص)، خاتم الأنبياء حسب ما ورد في النص القرآني.

وعلى ما تقدم، فهل استطاع المسلمون بناء دولة إسلامية لها أبعاد سياسية ملائمة لحركة المجتمع، أم أنهم اعتمدوا الشريعة الإسلامية في فهم الحياة وتكوين الدولة المحصورة بهم فقط؟.

هل استطاعت النظرية الدينية الإسلامية ان تكون ملازمة وغير منفصلة عن الفهم السياسي العام لبناء الدولة العصرية؟ وهل يمكن لميراث هذه الدولة الإسلامية بكل أبعادها أن يتواصل مع

الزمن ويستقر مع شعوب الأرض؟.

في الواقع، هناك أمران مختلفان. فالسياسة تعتبر في عداد حكم الأقوياء، بينما المفهوم الديني لبناء الدولة لم يتعد أو يتجاوز حدود الدعوة، وحدود تقوية أواصر العلاقات على أسس الرحمة والحكمة والتسامح. وبأن الناس جميعهم سواسية ومتساوون في المسافة مع الدين وليس مع نظام الحكم.

ولكي نتحقق من كل ما تقدم، لا بد لنا من إعادة النظر بقراءة التاريخ وفهمه من غير تعصب ولا تحيز إلا للحقيقة؛ وهذا يفترض استعراضاً سريعاً، واستقصاءً مختصراً لأنظمة الحكم وتطور المجتمع العربي قبل الإسلام وبعده، على المستويين السياسي والديني. ولا بد أيضاً من تسليط الضوء على المرحلة التي سبقت ظهور النبي محمد (ص) نظراً لأهميتها، ولما مهدت له وساعدت في بلورة ونجاح مشروعه الذي سنتحدث عنه وصولاً إلى مرحلة الخلافة الراشدية.

المؤلف



القسم الأول



لمحة موجزة عن حياة العرب في الجاهلية

تتميز الجزيرة العربية بطبيعة واسعة الأرجاء، وبجغرافية من الصحاري القاحلة، تقطنها القبائل العربية في بيوت من الشَّعر وخيام من الوبر، تتنقل من مكان إلى آخر طلباً للكلأ والعيش، نظراً لقلة الزرع وانعدام النباتات على أنواعها، إلا ما خلا بعض النباتات الصحراوية البرية. وكان المورد الأساسي في معيشتهم يعتمد على انتاج مواشيهم، ومما تيسر من الغنائم والمكاسب عند غزواتهم للقبائل الأخرى، وقطع الطرقات على القوافل التجارية ومصادرتها؛ فكان القوي يجتاح الضعيف ويصادر ممتلكاته وأرزاقه، وينهب كل ما يحتاجه من أجل الاستمرار والبقاء.

وكانت هذه القبائل دائمة الترحال والتنقل من مكان إلى

آخر، ولا تعرف الاستقرار بحثاً عن الرزق ومصادر الحياة والعيش، ويتم كل ذلك بتوجيه من شيخ القبيلة، الذي كان هو القائد والزعيم والمرجع في اتخاذ القرارات، وفي تحمل مسؤولية القبيلة وإدارة شؤونها في جميع الأمور وفي كلا الحالتين: الحرب والسلام.

وكانت العلاقات بين أفراد القبيلة تتمْيز بالغيرة الشديدة والشعور المتبادل على قاعدة العصبية والعائلية والتحدر من أصل واحد؛ وكانوا يمتازون بالشجاعة والمروءَة والنخوة التي قالوا فيها الشعر والقصائد، ونظموا الملاحم وفاخروا بها في أدبياتهم، كما تميزوا بالشجاعة والكرم ونجدة المستغيث والضعفاء.

إنَّ هذه القبائل البدوية والجماعات غير المستقرة، لم تعرف الحياة الهادئة، ولا نعمة الاستقرار والأمان، نظراً لعمليات الغزو المستمرة، وعمليات السلب المتواصلة في شتى أرجاء الصحاري والواحات، والتي كان يسكنها ايضاً بعض الجماعات المستقرة في أماكن تواجد المياه (شبه مستقرة) وحيث تتوافر إمكانية حياة بقربها. وهذه أيضاً كانت مصدر نزاع وقتال من أجل السيطرة عليها ووضع اليد على ثروتها المائية والزراعية. ثم أن العلاقات فيما بين هذه الجماعات المستقرة لم تكن ودية كما ذكرنا، ولم تعرف الراحة والهدوء، فكانت مناطقهم عرضة للغزو من أجل السيطرة عليها، والاستفادة من موقعها الذي يؤمن الحياة الهادئة والزراعة المستمرة.

وسكان مناطق شبه الجزيرة العربية يختلفون باختلاف طبيعة

الأرض والمناخ. فكان القسم الأوسع منها واحات وجواء وأغواراً سحيقة تتجمع الأمطار في بعضها. كما أنَّ طبيعة هذه الأرض من الناحية الجغرافية سمحت بوجود نوعين من السكان هما: البدو والحضر.

- فالبدو سكنوا في واحات البادية الصحراوية، وعرفوا باسم: الأعراب، وكانوا يتنقلون من مكان إلى آخر طلباً للكلأ.

- أما الحضر، فهم سكان المدن. وكانوا يشتغلون بالزراعة والتجارة وبعض الحرف والصناعات اليدوية. وقد سمُّوا «أهل المدر أو أهل الحجر، أي سكان المدن»[١].

وقد قسَّم مؤرخو العرب الشعوب العربية إلى قسمين أساسيين:

- القسم الأول: العرب البائدة، وهم الذين بادوا ودرست آثارهم وانقطعت أخبارهم، ولا يعرف عنهم اليوم شيئاً سوى ما جاء وورد في الكتب السماوية وأشعار العرب عن قبائل عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم الأولى.

- القسم الثاني: العرب الباقية. ويقسمون إلى فرعين:

١ - العرب العاربة.

٢ - والعرب المستعربة[٢].

- أما العرب العاربة، فهم شعب قحطان وموطنهم بلاد

---

(١) عبد المنعم. الحضارة الإسلامية. ص ١٠. القاهرة ١٩٦٣.

(٢) حسن ابراهيم: تاريخ الإسلام، ج١، ص ١١.

اليمن، ومن أشهر قبائلهم: جرهم ويعرب وكهلان وحمير وقضاعة والأزد والغساسنة وطيء وسعد والنخع وعنس وهمدان وكندة ومراد وأثمار وجذام ولخم(١).

- وأما العرب المستعربة: ويقال لهم العرب المتعرِّبة كما في القاموس، وسموا بذلك لأن اسماعيل كان يتكلم العبرانية أو السريانية. ولما نزلت جرهم بمكة وسكنوا مع اسماعيل وأمه هاجر، تزوج منهم وتعلم هو وأبناؤه العربية، فسموا العرب المستعربة. وهم من عرب البدو والحضر الذين سكنوا أواسط جزيرة العرب، وخالطهم عرب اليمن بعد خراب سد مأرب(٢). وولد لاسماعيل إثنا عشر ولداً تفرعت منهم بطون كثيرة(٣).

وكان اليونان والرومان قد قسموا بلاد العرب إلى ثلاثة أقسام في القرن الأول الميلادي على النحو الآتي:

١ - بلاد العرب الصخرية، وهي جنوبي غربي بادية الشام حيث مملكة الأنباط.

٢ - بلاد العرب السعيدة، وهي بلاد اليمن الخضراء.

٣ - بلاد العرب الصحراوية، أي بادية الشام التي كانت تسكنها القبائل البدوية المتنقلة(٤).

بالإضافة إلى الأجزاء الثلاثة المكونة لبلاد العرب، كان

---

(١) القلقشندي: ج ١، ص ٣١٣ . ٣٥٣.

(٢) د. حسن ابراهيم ص تاريخ الإسلام، ج ١، ص ١٤.

(٣) ابن قتيبة ص كتاب المعارف، ص ١٨.

(٤) د. حسن ابراهيم حسن. تاريخ الإسلام السياسي. ج ١ ص٤.

هناك ما يسمى بالحرات أو الحرار. فالحرة تعني الأرض المستديرة الشكل، وهي «أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار»[1]. بينما كلمة الحرار كما يصفها الباحثون فإنها تدل على ما تركته البراكين ولفظتها من جوفها فوق الأرض، وهو ما تعرفه بلاد العرب منذ القدم. وكانت هذه الحرار تنتشر من شرقي حوران وتمتد متناثرة حتى المدينة، وقد أحصى ياقوت في معجم البلدان تسعاً وعشرين حرة وتمتد منها: حرة أوطاس، وتبوك، وتقدة، وحقل، والحمارة، وراجل، ورماح، وضرغد، والنار، وليلى، وواقم، والوبرة وغيرها[2].

أما حرة واقم فقد سميت كذلك نسبة إلى أطم من آطام المدينة. وكانت تسكنها قبائل اليهود من بني النضير وقريظة وغيرها. وقد صارت هذه الحرة دار حرب عندما حاصرها النبي محمد (ص) حتى أجلاهم عنها وقضى عليهم[3]. ثم ان هذه الحرة، هي المنطقة التي حصلت فيهاوقعة «الحرة الشهيرة» في أيام يزيد بن معاوية في ٢٧ ذي الحجة سنة ٦٣هـ.

بينما قسّم باحثون آخرون بلاد العرب إلى خمسة أقسام كبرى هي: تهامة، ونجد، والحجاز، والعروض، واليمن[4].

---

(١) ياقوت. معجم البلدان. مجلد ٢. مادة حرة ص ٢٤٥.
(٢) ياقوت. معجم البلدان. مجلد ٢. مادة حرة ص ٢٤٦
(٣) أحمد إبراهيم الشريف. مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول. ص ٨٨، القاهرة ١٩٦٧.
(٤) الهمداني. صفة جزيرة العربية. ص٤٧.

كان يسود شبه الجزيرة العربية مناخ جاف بوجه عام، ويندر سقوط الأمطار فيها، وإذا سقطت الأمطار، فإنها تتسبب في إنبات عشب ينمو سريعاً وما يلبث أن ييبس. ولذلك، كانت الحياة قاسية جداً، يطغي عليها التنقل والترحال سعياً وراء موارد المياه والعشب. وفي حال الأمطار الغزيرة التي إذا حصلت، كانت تجرف المنازل والدور وتتلف الزروع، كما حدث مع سيل العرم الذي أباد شعب مملكة سبأ وشردهم في الأمصار.

ومن أهمية الإشارة إلى أن بلاد اليمن بوجه عام، كانت بلاد حضر وتمدن، وعرفت الكثير من الحصون والمسالح والقصور والمحافد. وكانت القصور تعرف آنذاك بالمحافد مثل: محافد غمدان وتلفم وناعط وصرراح وسلحين وظفار وهكر وضهر وشبام وغيمان وبينون وريام وبراقش ومعين وروثان وأرياب وهند وهنيدة وعمران... إلخ[1]. وقد ذاع صيت وشهرة هذه القصور لما عرف عنها من الفخامة والرونق، ولم يكن لها مثيل في عظمة البناء، وفخر البنيان، حتى قيل عن قصر غمدان بأنه من القصور الاسطورية، وقد بناه سليمان بن داوود عليه السلام[2] على ما يذكره الاخباريون.

وكان من أشهر مدن اليمن التاريخية، مدينة مأرب، التي عرفت قديماً باسم سبأ. نسبة إلى سبأ بن يشجب بن يعرب بن

(١) المصدر السابق ص. ٢٠٣.

(٢) ابن الفقيه الهمذاني. ص ٣٤.

قحطان أول ملوك الاسرة السبئية[١]. ومأرب اسم قصر كان لهم، وفي ذلك القصر قال الشاعر ابو طمحانْ:

أما ترى مأرباً ما كان أحصنه   وما حواليه من سور وبنيان[٢]

وقد جاء ذكر هذه المدينة التاريخية في القرآن الكريم وفي سورة سبأ. كما ان سد مأرب الشهير، كان من أهم الأسباب في شهرة هذه المدينة وعظمتها، وعندما أبيد السد وانهار، انهارت معه الدولة السبئية وانطفأ ذكرها، وتفرق أهلها في الأرض حتى قيل: «ذهبوا أيدي سبأ»[٣] أي تفرقوا.

ومن المدن المشهورة أيضاً كانت مدينة صنعاء التي اتخذها الأحباش حاضرة لهم في اليمن، وأقاموا فيها القليس المشهور[٤]. كما أنه كانت هناك مدن كثيرة مشهورة، كمدينة نجران، وجرش، والتي كان اسمها مرتبطاً بانتشار المسيحية في الجاهلية، ومركزاً للنصرانية على يد الراهب فيميون سنة ٥٠٠م. وأسس فيها كنيسة على المذهب المونوفيزيتي[٥] وهي الكنيسة التي سماها العرب «كعبة نجران»[٦].

وبالعودة إلى شبه الجزيرة العربية فقد عرفت مدن الحجاز والبادية كيثرب والطائف ومكة وغيرها، شكلاً من أشكال الحياة

---

(١) ياقوت. معجم البلدان. مجلد ٣ مادة سبأ. ص ١٨١.
(٢) الهمذاني. الإكليل. ج ٨ ص ٤٥.
(٣) ياقوت. معجم البلدان. مجلد ٣ ص١٨١ مادة سبأ.
(٤) الهمذاني. صفة جزيرة العرب ص١٩٥ ـ ١٩٧.
(٥) ياقوت. معجم البلدان مجلد ٥ ص ٤٥.
(٦) ابن الكلبي. كتاب الأصنام. ص ٤٥.

الاجتماعية والتجارية والزراعية، كونها ممراً لعبور القوافل ذهاباً وإياباً من بلاد الهند وفارس وبلاد الشام والروم والعراق وغيرها من المناطق التي كانت تتبادل معها التجارة، كشعوب شواطىء البحر المتوسط والبحر الأحمر وغيرهما.

وكانت مكة أهم هذه المدن والمراكز، كونها شكلت صلة الوصل في الاتجاهين ذهاباً وإياباً لقوافل التجار، وكذلك كونها أيضاً، كانت تمثل مركزاً دينياً هاماً - يحج العرب فيها إلى الكعبة كل عام. وفيها الحجر الأسود، وتجمع التماثيل والأصنام، آلهة شعوب ذلك العصر. وكان يسود بين هذه الشعوب وسكان هذه المنطقة مصطلح تحريم الغزو والحروب مدة أربعة أشهر من كل سنة (الأشهر الحرم) تسهيلاً لتأدية مناسك الحج بخير وسلام خلال هذه الفترة. وهو ما جرى تأكيده وتثبيته، واستمرار العادة عليه، أيام النبوة فيما بعد، وجرى تسميتها «بالأشهر الحرم». وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم.

وكانت مكة حسب كتب التاريخ والسيرة ورواة الأخبار، يقطنها قبائل مبعثرة جمعها قصي بن كلاب وتزعم قيادتها منتصف القرن الخامس. وقد سمي هذا التجمع فيما بعد بـ «قريش»، وتعني هذه التسمية «تجمع الناس». ومن المعروف أن قصي هو الجد الرابع للنبي محمد (ص).

كانت الحياة في مكة هادئة ومنظمة يدير أمورها السياسية وينظم شؤونها الاقتصادية والقضائية مجلس جرى تسميته «دار الندوة». ويتألف هذا المجلس من كبراء أهل مكة وأشرافها الذين

يعينون قائداً للجيش إذا ما دعت الحرب. وكان لا يتم أمر من أمور المنطقة إلا باتفاق أعضاء «الندوة»، ولا تقضي قريش بأمرِ خارج الندوة[١].

تجدر الاشارة إلى أن موسم الحج كان من أهم الموارد الاقتصادية عند المكيين، وكان أعضاء «دار الندوة» يقومون بتنظيم وترتيب جميع المتطلبات والشؤون خلال فترة الحج من «الحجابة» (وتعني حيازة مفاتيح البيت الحرام وخدمته)، وما تدره موارد السقاية من ماء ونبيذ وغيرها للحجاج، ومن الرفادة في توفير الطعام ومن شراء لقطع القماش والملابس والمنتجات الغذائية الأخرى.

وسيطر على أهل مكة تقليد سنوي يعرفه القاصي والداني، بتنظيم «من دار الندوة». إذ كانت هناك رحلتان تجاريتان رئيسيتان لأهل مكة كل عام، وهما مناسبتان مهمتان لتحقيق الربح وتوفير مصدر العيش. فكانت رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى بلاد الشام. وهو ما ورد ذكره في القرآن الكريم في الآية: **﴿لأيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾**[٢]. هذا عدا عن رحلات أخرى متفرقة في أنحاء المنطقة. وأول من نظم وفكر في هاتين الرحلتين هو هاشم بن عبد مناف.

وقد ذكرت الأخبار بأن حجم القافلة كان يتجاوز في بعض الأحيان ألفي بعير، وتجارة مكة السنوية كانت تبلغ حوالي ماية

---

(١) محمد حسين هيكل. حياة محمد. ص ٢٥٤.

(٢) قريش آية ١ ـ ٢.

وسبعين ألف جنيه ذهباً[١] .

وهذا يدل على أهمية وموقع هذه المنطقة من الناحية التجارية والناحية الدينية والذي سنتحدث عنه لاحقاً، وهذا ما سمح لهذه المنطقة بالانفتاح على العالم الآخر والاتصال به. وقد حدد أحمد أمين طرقاً ثلاثة ساعدت على اتصال العرب بغيرهم:

١ ـ التجارة.

٢ ـ إنشاء المدن العربية المتاخمة لفارس والروم.

٣ ـ البعثات اليهودية والنصرانية التي كانت تتغلغل في جزيرة العرب، تدعو إلى دينها وتنشر تعاليمها[٢] .

(١) جبران شامية. الإسلام: هل يقدم للعالم نظرية للحكم. ص ١٧.

(٢) أحمد أمين. فجر الإسلام. ص ١٢.

مسلكية ابن البادية
وطبيعته العقلية

مما لا شك فيه أن الطبيعة الجغرافية، وأحوال الطقس والمناخ، وكذلك الظروف الاقتصادية، تلعب دوراً هاماً في تكوين عقلية الانسان وطبيعتها، ولذلك قيل: إن الانسان ابن بيئته، يؤثر ويتأثر بها. ولهذا، فإن طبيعة ابن الصحراء وعقلية ابن البادية تميزت بمسلكية واحدة تقريباً، من حيث عيشة البداوة وخيام الشعر، والغزو والفروسية والشجاعة والكرم وسوى ذلك من الأوصاف التي انطبع بها ابن تلك الصحراء.

وقد كانت حالة العرب في شبه الجزيرة العربية توصف بالعزلة وعدم الاكتراث، ولهم طبيعة التوحش والقرصنة. . «إنهم لطبيعة التوحش الذي هم فيه أهل انتهاب وعبث، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر. . . والقبائل الممتنعة

عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عبثهم وفسادهم. . .»[١] وقد قيل عنهم إنهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، بسبب أهوائهم وقلة ميلهم إلى الجملة. ولأجل ذلك «لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة»[٢].

لقد عاش عرب البادية عيشة بدوية أبعدتهم عن الحضارة وعن العمران وكذلك عن العلوم، بينما كانوا يتقبلون الحق والصدق والهدى؛ وهذه صفات الرجال الشجعان، والفرسان الأشاوس.

وطبيعة الفروسية عند عربي الصحراء، جعلته يتمتع بعقلية عدم الانقياد السهل لأي كان، حتى لشيخ القبيلة، وكان ميالاً إلى النفع والمدافعة عن النفس، وقد وصف «أوليري» في كتابه: العرب قبل محمد: «Arabia Before Mohammad» العربي بالقول: «إن العربي الذي يعد مثلاً أو نموذجاً مادياً، ينظر إلى الأشياء نظرة مادية وضيعة، ولا يقوّمها إلا بحسب ماتنتج من نفع، يتملك الطمع مشاعره وليس لديه مجال للخيال ولا للعواطف. لا يميل كثيراً إلى دين، ولا يكترث بشيء إلا بقدر ما ينتجه من فائدة عملية؛ يملؤه الشعور بكرامته الشخصية، حتى ليثور على شكل من أشكال السلطة، وحتى ليتوقع منه سيد قبيلته وقائده في الحروب الحسد والبغض والخيانة من أول يوم اختير

---

(١) أحمد أمين. فجر الإسلام ص ٣١.

(٢) أحمد أمين. فجر الإسلام ص ٣٢.

للسيادة عليه، ولو كان صديقاً حميماً له من قبل. من أحسن إليه كان موضع نقمته، لأن الاحسان يثير فيه شعوراً بالخضوع وضعف المنزلة، وإن عليه واجباً لمن أحسن إليه»[١].

وقد نسب كثيرون من الكتاب إلى العرب صفات مختلفة لا تعد ولا تحصى ولا مجال لذكرها أو تكرارها الآن. فيما رأى ابن خلدون ما خلاصته. «ان العربي متوحش نهّاب سلاّب، إذا أخضع مملكة أسرع إليها الخراب»[٢]. والواقع هنا، يجب التمييز بين العربي البدوي الذي عاش في الجاهلية، وبين العربي الذي أنجز أكبر امبراطورية في التاريخ مع ظهور الإسلام.

وبالرغم من كل ذلك، فقد كان العربي البدوي، عصبي المزاج، حاد الطبع، ذكياً، يدافع عن الحق وينصر الضعيف، وفي ذلك كان بعيداً عن العلوم لا يتقبلها أو يستمع إليها، لأنه كان منصرفاً في أمور الغزو والقرصنة، ولا يلتفت إلى غير ذلك. وقد رأى الجاحظ في هؤلاء العرب بأنهم «ليس لهم علم ولا فلسفة ولا كتب موروثة».

في ظل هذه الأجواء التي كانت مسيطرة على عقلية وذهنية العربي البدوي، كان في المقابل عاشقاً للحرية الشخصية ويدافع عنها بكل ثمن وجهد، ولا يدين بالطاعة لأي رئيس أو قائد، وخاض من أجل ذلك مواجهات قاسية، لا تخلو من الاعتزاز بالنفس والكرامة الشخصية، وإذا خرجت عن هذه الحدود، فلا تعنيه.

---

(١) أحمد أمين. فجر الإسلام. ص ٣٣.

(٢) المصدر نفسه.

ويقول أرنولد: «لم يكن هناك إطلاقاً أي منهج منظم للإدارة أو القضاء، كالذي نعرفه عن فكرة الحكومة في العصر الحديث، كما كانت كل قبيلة أو عشيرة تؤلف جماعة منفصلة مستقلة تمام الاستقلال، وينسحب هذا الاستقلال أيضاً على أفراد القبيلة، فكل فرد منهم لا يعتبر زعامة شيخ قبيلته أو سلطته، إلا رمزاً لفكرة عامة شاءَت الظروف أن يأخذ هو منها بنصيب؛ بل كان مطلق الحرية في أن يرفض ما اجتمع عليه رأي الأغلبية من أبناء قبيلته. وأبعد من هذا أنه لم يكن هناك نظام لنقل سلطة الرئيس. إذ كان يختار لها غالباً أكبر أفراد القبيلة سناً، وأكثرهم مالاً، وأعظمهم نفوذاً، وأجدرهم بكسب الاحترام الشخصي. وإذا ما تضخمت قبيلة تشعبت فروعاً كثيرة يتمتع كل منها بحياة منفصلة ووجود مستقل، ولا تتحد إلا في ظروف غير عادية، اشتراكاً في الدفاع عن القبيلة أو قياماً بغارات بالغة الخطورة»[١].

لا نعاند بأن العرب في الجاهلية عاشوا حياة مليئة بالخرافات والأساطير، ومن معتقدات وعادات لا يقبلها العقل ولا المنطق، كالجرذان الذي حفر سد مأرب بأنيابه حتى اقتلع الحجر بمخالبه فأدى إلى خرابه!! فلقد كان العرب أنئذ لا ينظرون إلى العالم نظرة تحليلية شاملة. ولا كانوا يعيرون ذلك أي اهتمام، ولا يفقهون الفلسفة وعلم الوجود. بينما اليوناني كان عكسهم تماماً من حيث النظرة إلى فهم العالم وقوانين التطور، وكيف هو نظام الكون ومن أين أتى؟.. وهذه كانت أساس

(١) أرنولد ـ الدعوة إلى الإسلام ـ ص٥١ ـ ٥٢ .

فلسفته التي برع بها قبل غيره.

وبالعودة إلى عرب البادية، فقد تميزوا بالعصبية القبلية الشائعة بين القبائل.. وللتدليل على العصبية عندهم، والتمسك بنهج العائلة الضيق، وما يثيره من حساسيات وبروز للفروقات والأحقاد، ما حدث بين الأمويين من جهة والهاشميين من جهة أخرى إثر خلاف بين أمية بن عبد شمس جد الخليفة معاوية بن أبي سفيان وعمه هاشم بن قصي، أولاد العائلة الواحدة. فقد كان هذا الخلاف على أمر بينهم، فتطور إلى صراع دموي طويل وأحقاد لم تنته لعدة قرون من الزمن.

هذه العقلية، وهذه العصبية تكوّنت مع مرور الزمن واتسمت بها شعوب البادية والصحراء. وكان السبب في تكوين هذه العصبية وهذه الطبيعة من التفكير عاملين قويين حسب رأي أحمد أمين هما:

- البيئة الطبيعية، ويعني بها كل ما يحيط سكن الإنسان من جبال وأنهار وأشجار وصحراء وغيرها.

- والبيئة الاجتماعية، ويعني بها ما يحيط هذه البيئة من نظم اجتماعية، كنظام الحكم والدين والأسرة وسواها[1].

إن تأثير الصحراء في النفوس له أثر كبير في تكوين شخصية ابن هذه البيئة القاحلة والقاسية. وهذه البيئة، لا شك أنها لعبت دوراً في تحديد شكل وعيشة إنسانها ـ ومن أشكال هذه

---

(١) أحمد أمين. فجر الإسلام. ص ٤٤.

الحياة: الترحال والتنقل، طلب الكلأ، الفقر، استخدام الماشية، قلة المياه والأمطار... إلخ. ومثل هذه الطبيعة فإنها أيضاً تدفع بإنسانها إلى تحديد طبيعته الأخلاقية والنفسية والفكرية. فالفقر مثلاً كان عاملاً في بروز الكرم عند عرب البادية، كما كان سبباً للغزو والقرصنة.

وطبيعة عرب البادية من الناحية العقلية، اتسمت بالتعصب وبصلة الدم. وقد وصفها ابن خلدون في مقدمته بالوصف الآتي: «إن العصبية المستندة إلى قرابة الدم، من أخص خصائص العرب؛ ولا بد للحاكم من عصبية تمكنه من تأسيس السلطة السياسية، وتساعده على حمل الناس على الطاعة والنظام واحترام الحقوق والواجبات، وبتعبير آخر، فإن العصبية هي منشأ الرئاسة والسلطان. وتكون الرئاسة دائماً لأهل العصبية، فالرئاسة لا تكون إلا بالغلب، والغلب لا يكون إلا بالعصبية.... والدعوة الدينية نفسها لا يمكن ان تتحقق دون عصبية قائمة على الدم.»[1]

ان هذه العصبية تثير الهمَّة والجد والثورة دفاعاً عنها، ويستميت ابن البادية في سبيلها لعلاقتها بالشرف والكرامة وعزة النفس، وتمرده على المهانة والذل، «ولا يُصَّدقُ دفاعهم وذيادهم إلا إذا كانوا عصبية وأهل نسب واحد، لأنهم بذلك تشتد شوكتهم ويُخشى جانبهم إذ نُعرة[*]، كل أحد على نسبه وعصبيته

(١) ابن خلدون. المقدمة. ص ١٤٥.

(*) النعرة والنعار: الصراخ والصياح في حرب أو شر.

أهـم، وما جعـل الله في قلـوب عبـاده من الـشـفـقـة والـنُّعـرة»[١]
وبسبب هذه العصبية والرابطة الدموية، يتمذهن عربي البادية بصفات الرجولة والبطولة، وينتعش بأخبار مغامراته الفريدة وبدرجة تعصبه لقبيلته وعشيرته، فتكون في منفعته حيناً، وتكون سبباً في تعاسته حيناً آخر، ذلك لأن هذه العصبية « . . .بها يكون التعاضد والتناحر»[٢].

ثـم أن القرآن الكريـم تناول مـوضـوع العـصـبية في بعـض سوره، وأكد مغزى وأبعاد هذه العصبية وأهميتها في حياة العائلة والقبيلة والعشيرة، وهو ما تناوله القرآن عن إخوة يوسف عليه السلام، حين قالوا لأبيه **﴿لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون﴾**[٣]. والمعنى أنه لا يتوهـم العدوان على أحد مع وجود العصبة، بينما تنفرط الوحدة خارج العصبية وينهار التعاضد، وبذلك تسهل عملية التعرض للغزو والعدوان عند المتفردين في أنسابهم وأفخاذهم. لذلك، فالعصبة أو العصبية كانت ظاهرة عامة عند قبائل البادية، حتى ان القادمين من التلال والجبال هرباً من قبائلهم وعشائرهم لسبب من الأسباب، كانوا يتوددون الانتساب إلى عصبية القبيلة القوية طلباً للحماية والمؤازرة والأمان، وقد شهدت حياة القبائل أنواعاً كثيرة من هذه الانتسابات والانتماءات. وهو ما عرض له ابن خلدون بالقول:

(١) المصدر نفسه. ص ١٤١
(٢) المصدر نفسه. ص ١٤١.
(٣) سورة يوسف. ١٤.

«. . . . من البيِّن ان بعضاً من أهل الانساب يسقط إلى أهل نسب آخر بقرابة إليهم او حلف أو ولاء، أو لفرار من قومه بجناية أصابها، فيدعي بنسب هؤلاء ويعد منهم. . .»[1].

هذه الأوضاع، ساهمت بحركات تفاعل وانصهار بين الأنساب، وبعملية تخالط بين الشعوب والقبائل أخذت ابعاداً هامة في الانتشار والتوسع والمفاخرة، فكانت تسقط أنساب وعصبيات، وتنتعش وتتطور عصبيات أخرى على حساب الزائلة والمنهارة والمنقرضة. وظلت هذه الحالة مستمرة ومتفاعلة بين الأنساب لفترة طويلة امتدت قروناً قبل الاسلام وبعده. «. . . ما زالت الانساب تسقط من شعب إلى شعب، ويلتحم قوم بآخرين في الجاهلية والاسلام والعرب والعجم»[2].

فالتركيبة الاجتماعية التي كانت سائدة في صحراء شبه الجزيرة العربية، في بطاح مكة ويثرب، ومناطق الحجاز والطائف وغيرها، انطبعت بالعصبية والالتفاف المتعصب حول الأصل والنسب والعائلة، وهو ما عبَّر عنه الدكتور طه حسين بالقول: «. . .إن تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده ليس إلا سلسلة طويلة من الخصُومات بين القبائل، وهي خصومات منشأها الحقيقي تلك العصبية التي دفعت إلى حد التعصب».

إن عملية الالتفاف على الانساب والعصبيات استمرت طويلاً، وأخذت تقوى وتتعزز يوماً بعد يوم، حتى أيام النبي

(١) المصدر السابق ص ١٤٤.
(٢) المصدر السابق ص ١٤٤.

(ص)، وكذلك بعد وفاته في عملية من يكون الخليفة من بعده، وجرى صراع مرير بين أهل البيت وأهل الدين على عملية الاستخلاف، فيما ذكر ابن خلدون عن ذلك بالقول: «... العصبية الكبرى إنما تكون لقوم أهل بيت ورئاسة فيهم، ولا بد من أن يكون واحد منهم رئيساً... للعصبيات كلها... فيأنف حينئذٍ من المساهمة والمشاركة في استتباعهم والتحكم فيهم، ويجيء خلق التألّه الذي في طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم لفساد الكل باختلاف الحكام...»[1].

وقد برز هذا التعصب، وظهرت هذه العصبية أيضاً بعد وفاة النبي (ص). إذ كان الامر واضحاً وجلياً إبان خلافة عثمان وتخصيصه لبني أمية، وتمييزه لهم عن غيرهم من بين القبائل العربية كلها. وعبَّر عثمان عن ذلك بقوله للمنتقدين له: «إن لي قرابة ورحماً». وهو تعبير شديد وواضح في الحديث عن صلة القرابة والتعصب لصلة الرحم والدم. كما أن هذا التعصب قد أدى إلى عملية فرز خطيرة أثناء خلافة علي بن أبي طالب، فانحازت قبائل بني هاشم لعلي، وقبائل الامويين من بني أمية إلى معاوية؛ واستفحلت أثناءَها العصبيات وعمليات الفرز الحادة، وتطورت إلى نزاعات دموية، تركت آثاراً سلبية على الخلافة من جهة، وعلى الحكم الاسلامي عامة من جهة أخرى. والتي مازالت مفاعيلها وآثارها بارزة إلى هذا العصر.

وهناك أدلة كثيرة وشواهد من وقائع التاريخ قبل الإسلام

---

(١) ابن خلدون. المقدمة. ص ١٨٣ . ١٨٤.

وبعده، تؤكد هذه السمة عند العربي، إذ كانت العصبيات في بعض المراحل تعود إلى حالها كما كانت في الجاهلية، فعدا عن النزاع العصبي بين بني أمية وبني هاشم، كانت هناك أيضاً نزاعات أخرى بين عصبيات أخرى، كالنزاع بين القحطانية والعدنانية، والحرب بين الأزد وتميم في خراسان، وبين قبيلتي كلب وقيس في الشام، وبين الأوس والخزرج وغيرهم كثيرون يطول الشرح عنهم، لما كان بينهم من حروب وخصومة وانقسام يرجع أصلها إلى العصبية الجاهلية.

وبالانتقال من طبيعته العصبية، إلى طبيعته العقلية، فأنه من الطبيعي أن تختلف العقليات وطرائق التفكير والنفسيات بين الشعوب تبعاً لاختلاف الطبيعة الاجتماعية، والبيئة التي تحيط بها. والعقلية العربية في ذلك الوقت ترعرعت في طبيعة صحراوية قاحلة، وتكونت في مناخ البادية ونمت على أسس من التوارث والعادات والتقاليد المكتسبة بين القبائل وطبائعهم، ويقول بعض الشعوبية في العرب: «. . . لم يكن للعرب ملك يجمع سوادها، ويضم قواصيها، ويقمع ظالمها، وينهي سفيهها، ولا كان لها قط نتيجة في صناعة، ولاأثر في فلسفة، إلا ما كان من الشعر. . .»[1].

وعلى هذا، فإن عرب البادية كانوا يكتسبون العقلية وطريقة التفكير، ولم يكونوا أصحاب إنتاج عقلي وفكري يذكر، على ما هم عليه من العزلة والغلظة والجفاء. فيقول الجاحظ في ذلك

---

(١) العقد الفريد - ج ٢ ص ٧٦.

مقارنة مع الأمم الأخرى: «...كل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام، وليست هنالك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استقامة، وإنما هو يصرف وهمه إلى الكلام... وكانوا أميين لا يكتبون ومطبوعين لا يتكلفون...»[١].

واكتنفت العلاقات الاجتماعية بين العرب نوعاً من الجدية. وعرفت حالة من الصلابة والروابط المتينة، وفرض هذا النوع من العلاقات عزلة العرب في صحرائهم ونقاء جنسهم السامي. وكان للمرأة دور ملحوظ تتمتع من خلاله بشيء من الحرية، وكانت تشارك الرجل في شتى أعماله. حتى أن الرجال كانوا يفاخرون بنسبهم لأمهاتهم، أكثر من نسبهم لآبائهم.

كما عرفوا نوعاً من النظام الثابت في مسلة زواج المرأة، إذ كان زواجها مقترناً بموافقة أهلها ورضاهم.

أما من ناحية معاملة العائلات لأبنائها، فقد عرفت شكل الرعاية والحرص، كما عرفت العناية والمحبة، لكن «قليلاً من الفقراء والضعفاء كانوا يقتلون أولادهم مخافة الاملاق[٢]. وقد نهى الإسلام فيما بعد عن هذه العادة، وبتركها وتسفيهها، تلبية للآية الكريمة: ﴿...**ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم**..﴾[٣].

وتمتع عرب الجاهلية بنصرة الأخ والقريب أكان محقاً أم

---

(١) الجاحظ ـ البيان والتبيين ـ ج ٣. ص ١٥.

(٢) د. حسن إبراهيم حسن ـ تاريخ الإسلام ـ ج١ ص٥٧.

(٣) الأنعام ـ ١٥١.

مخطئاً، وفي ذلك انتشر قول شائع عندهم: أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، وإذا تخلف أحدهم عن المؤازرة والنصرة لحق العار به، وبالقبيلة كلها.

بينما ابن خلدون عرض على حالة العرب الاجتماعية، فقال بأنها طبيعة تمر على كل البشر منذ النشوء إلى الارتقاء، واعتبر: «أن جيل العرب في الخلقة طبيعي» ثم يضيف: «... أنهم لطبيعة التوحش الذي هم فيه أهل انتهاب وعبث...»[1].

هناك الكثير من الأقوال، والكثير من الاخبار عن العرب في الجاهلية، منها ما وصفهم بالوحوش وعدم الميل إلى الفكر والتفكير، ومنها من اعتبرهم «أفضل الأمم وحكمتهم أشرف الحكم» كإبن رشيق في العمدة، والألوسي في بلوغ الأدب.

وفي المحصلة كانت كل الأحكام على العرب أحكاماً عامة، ولكن درجة الرقي ليست واحدة بين عصر وآخر. وبالنتيجة فإنه مما لاشك فيه أن «العربي عصبي المزاج، سريع الغضب يهيج للشيء التافه، ثم لا يقف في هياجه عند حد، وهو أشد هياجاً إذا جرحت كرامته، أو انتهكت حرمة قبيلته، وإذا اهتاج أسرع إلى السيف واحتكم إليه، حتى أفنتهم الحروب، وحتى صارت الحرب نظامهم المألوف، وحياتهم اليومية المعتادة»[2].

(١) ابن خلدون المقدمة ٢٠ . ص ١٢٥.

(٢) أحمد أمين . فجر الإسلام . ص ٣٧.

وكانت أيام العرب كلها نزاعاً وحروباً متواصلة بين القبائل على الزعامة والسيادة والتسابق على موارد المياه وأماكن الكلأ، ومن هذه الأيام التاريخية، كانت حرب البسوس بين قبيلتي بكر وتغلب، «ودامت حوالي أربعين سنة بسبب الخلاف على ناقة اسمها سراب، وتملكها عجوز من بكر تدعى البسوس»[١].

وكذلك كانت حروب داحس والغبراء بين قبيلتي عبس وذبيان. وسبب هذه الحروب الطاحنة رهان بين قيس بن زهير، وبين حمل بن بدر على داحس والغبراء. وداحس كان فحلاً لقيس والغبراء حجر[٢] لحمل بن بدر، واستمرت هذه الحروب زهاء «اربعين سنة لم تنتج لهم ناقة ولا فرساً»[٣].

أما أيام الفجار، فكانت حروب وقعت في الأشهر الحرم ذو القعدة، ذو الحجة، والمحرم ورجب. وكانت الفجار أربعة، «أشهر أيامها الفجار الرابع بين قريش وكنانة من جهة، وهوازن من جهة أخرى»[٤].

لابد من الإشارة هنا إلى ان العربي امتاز بخلقية هائجة نحو الحرية، فكان لا يطيع حاكماً ولا رئيساً ولا يدين بأي سلطة، وهي حرية فردية أو شخصية وليس لها الطابع الإجتماعي. كما كان يحب العدل والمساواة، ويتوق إلى التحرر من كل قيد،

---

(١) حسن إبراهيم حسن ـ تاريخ الإسلام ج١ ص٤٧ .
(٢) حجر: الأنثى من الخيل.
(٣) المصدر السابق، ص٤٩ .
(٤) المصدر السابق، ص٥١ .

وكان ذلك سبباً هاماً في حضور البداهة والذكاء والإلفة.

في جانب آخر من حياة العرب العقلية قبل الإسلام، نشير إلى أنهم اعتقدوا بكل انواع الخرافة والاساطير، وبكل الأخبار التي لها طابع الإثارة والخيال والتي تفوق التصور وتذهل مستوى عقولهم في حينه. فالعربي في ذلك الوقت لم يكن مثل اليوناني الذي عرف الفلسفة، ولم يكن كالفارسي الذي مال إلى العظمة والمجد، بل كان طلق اللسان محباً للقصص والروايات، فقال الشعر وتغنى به وتفاخر، فشكل ذلك ثروة له في قراءَة تاريخه ومزايا طبعه وتفكيره، وعكس حياته الاجتماعية من كل جوانبها؛ وكانت عندهم الامثال والحكم، فطبعت حياتهم العقلية بهذه الأمور مثل اللغة والشعر والامثال والقصص، بينما لم يكن للعلم ولا للفلسفة أي أثر عندهم.

من هنا، فقد كان العربي في ذلك العصر له مزاج عقلي، ولا يكترث أو يعير أي اهتمام للعلم والفلسفة، ولكن هذه الامور كانت تختمر مع الوقت ومرور الزمن حتى كان العصر الاسلامي وبرزت قدرة هذه الشعوب على العطاء والابداع.

«رغم لساننا الواحد، لا نتكلم
لغة واحدة»
الصادق النيهوم



لمحة موجزة عن المعتقدات الدينية في الجزيرة العربية قبل ظهور الاسلام

كانت القبائل العربية كما ذكرنا سابقاً، تعيش حياة بداوة بدائية ومشاعية من غير فهم ووعي للحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية بين مختلف القبائل والتجمعات البشرية في الصحراء، ولم يكن ابن الصحراء والبادية يهتم كثيراً بالفكر والدين والعبادة، وإنما كان همه الاساسي اقتصادياً معيشياً بالدرجة الاولى؛ فكان يسعى خلف لقمة العيش من أجل استمرار الحياة، ولذلك لم يتقبل العرب الدعوات ولم يعيروا أي اهتمام يذكر للديانات القَبْلية من يهودية ونصرانية وغيرها. إن معرفتهم بهذه الديانات جاءَت بواسطة التجار والمتجولين الذين كانوا يأتون للتجارة فيحتكُون بالسكان، ولم يتعرفوا إلى

كلمة الله إلا من خلال هؤلاء التجار. وكانت الديانة الاكثر انتشاراً بين القبائل هي الوثنية - أي عبادة الاصنام -. وكان العرب يتعبدون التماثيل الصنمية ويقدمون لها القرابين والغالي والنفيس لكسب رضاها وغفرانها؛ وحتى أنه كان لكل قبيلة صنمٌ يعبدونه، فبلغ الامر بهم إدخال هذه الاصنام إلى البيوت، ففاخروا بها، اقتناعاً منهم بأن وجود الصنم يجلب البركة الدائمة إلى أهل البيت، ويحميهم من الاخطار والشرور. وهذه الآلهة - الأصنام كانت مفدية عند القبائل العربية بالأكباد. وكان البدو في ظل هذه المعتقدات الوثنية لا يعيرون أي انتباه للديانات والمعتقدات الأخرى، نظراً لدرجة جهلهم وتخلفهم.

وتناقلت الأخبار عن وجود أكثر من ثلاثمائة صنم كانت منتشرة حول الكعبة، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: هبل، وأساف، ونائلة، واللات، والعزى، ومناة وغيرهم كثيرون. ونظراً لدرجة الجهل المستفحلة والمنتشرة بين أوساطهم، وعدم الاكتراث واللامبالاة بالديانات السماوية والتعرف على الله، نزلت الآية الكريمة: ﴿**الأعراب أشد كفراً ونفاقاً، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على الرسول**﴾[1].

وتفسير الآية أن البدو من عرب القبائل كانوا يتمتعون بالكفر والدجل، ولا جدوى من اقتناعهم، ومن الخير أن لا يعرفوا معنى الدعوة ونزول الوحي على النبي محمد (ص)، قناعة من أن

---

(١) التوبة. ٩٧.

هؤلاء الاقوام لا قيمة لمعرفتهم بالدعوة ونشر الدين الاسلامي.
وكذلك تناولت الآية: **﴿ومن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم، نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾**[١].

يستدل من هذه الآيات أن أهل المدينة أيضاً لم يكونوا أفضل حالاً من سكان البادية والأعراب الآخرين المنتشرين في أرجاء الجزيرة العربية، والذين طغت على عقليتهم وتفكيرهم حالات التردد والنفاق وعدم الجدية.

فالعرب في جاهليتهم إذاً، كانوا فرقاً متعددة في المعتقدات وبنسب متفاوتة بين من يسكن البادية وبين من يسكن الحضر أو المدينة. فكان منهم من يقر بخالق للكون ويؤمن بالبعث والنشور في الآخرة، ومنهم من كان يقول بحدوث العالم، لكنه أنكر الرسول والأنبياء ولم يعترف بهم، ومنهم من عبد الأصنام. فقال أبو سفيان يوماً لصاحبه: «أما ونحن نتخذ الأصنام ليقربونا إلى الله زلفى»[٢]. وطائفة أخرى قالت بالدهر، وعرف عنهم إلحادهم وكفرهم، وجاء ذكرهم في القرآن الكريم بقوله تعالى: **﴿وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾**[٣]. وما نزلت هذه الآية إلا رداً على ما كانوا يقولونه ويعتقدونه بقولهم حسب ما جاء في الأية **﴿ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾**[٤].

---

(١) التوبة . ١٠١.

(٢) محمد حسين هيكل ـ حياة محمد ـ ص ١٠٥.

(٣ ـ ٤) الجاثية ـ ٢٤.

وذكر المسعودي بأن هناك صنفاً آخر كان يعبد الملائكة، ويزعمون أنها بنات الله[1] وهؤلاء أخبر الله عنهم بقوله تعالى: **﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون﴾**[2].

وعلى ما تقدم، فإن عرب بيوت الشعر، وسكان أهل المدن والحضر اعترت حياتهم الاجتماعية كل اشكال القمع والتسلط والتظلّم. فكانوا يقتلون ويقومون بالغزوات من أجل الحصول على لقمة العيش والكسب الوفير، وتخزين الغنائم لمواجهة الأيام الصعبة والقحط. وكانوا غير آبهين بالديانات والمعتقدات الدينية الأخرى، ولم يعرفوا الشفقة ولا الرحمة. ومن مزاياهم الاقتناص وقطع الطرقات والتربص بالقوافل التجارية وخصوصاً القبضايات والفرسان وشجعان القبائل، ذلك لأنه لم يكن يوجد في حينه رادع أخلاقي أو أدبي، أو مخافة من رب أو حساب آخرة من نار جهنم أو جنة نعيم؛ فهم لم يعرفوها، ولم يكترثوا لها، بل جل ما كانوا يسعون إليه هو تقديم الغالي للصنم / الإله.

فالوثنية إذا، كانت من أسوأ مراحل سكان الجزيرة لجهة التخلف والجهل، ولجهة عدم الانفتاح على الحضارات والثقافات الأخرى. وخصوصاً الدعوات الدينية التي كانت منتشرة في ذلك الزمن من مسيحية ويهودية.

---

(١) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج ٢ ـ ص ١٢٦.

(٢) النحل ـ ٥٧.

الديانة اليهودية

بالإضافة إلى الديانة الوثنية، كانت هناك الديانة اليهودية، وكان لها مراكز في انحاء المنطقة وخاصة في بلاد اليمن. فبلاد اليمن كانت تعتنق الوثنية، ثم انتقلت إلى اليهودية على يد الملك ذي نواس الحميري، وتعرف عرب الجزيرة على اليهودية من خلال قوافل التجارة القادمة من الحبشة وفلسطين ومصر وغيرها. وكان لليهودية أتباع وأنصار في مناطق المدينة وخيبر وفدك ووادي القرى وتيماء والبحرين. وقام ذو نواس بحملات وغزوات عديدة لهذه المناطق وسيطر عليها وقتل أهل نجران في معركة الأخدود التي ورد ذكرها في القرآن ﴿**قتل اصحاب الأخدود**﴾[١] . وقد فرض هذا الواقع هروب كثيرين من نجران وغيرها إلى الاستجارة

(١) البروج ـ ٤.

بملك الروم، وقد أدى وجود هؤلاء إلى الاتصال بعدد من السكان واعتناقهم للديانة المسيحية، وأنشأوا مراكز لهم وتجمعات ينشرون من خلالها الدعوة.

وتعاقبت على هذه المناطق مجموعة من الغزوات والحملات استهدفت موقعها الحساس وقربها من سواحل بلاد الحبشة، وبحكم علاقاتها التجارية مع تلك البلدان. لقد كانت هذه المنطقة جسر عبور للقوافل وتبادل العلاقات على اختلافها. وتعرضت هده المناطق لعدة غزوات أخرى لها طابع ديني، كالمجوسية من بلاد الفرس، والمسيحية من جهات وأصقاع مختلفة.

والخلاصة أن الديانة اليهودية انتشرت في الجزيرة العربية قبل الإسلام في بلاد اليمن، وذكر نلدكه بأن اليهود «كانوا في الأصل من أهالي الجزيرة العربية، ثم اعتنقوا اليهودية، وانهم لم يكونوا مزودين بمعلومات كافية في التوحيد، وإن كانوا شديدي التمسك بدينهم»[1]. بينما ذكر فريق آخر من المؤرخين وكتاب التاريخ بأن اليهود جاؤوا إلى الجزيرة العربية من فلسطين.

---

(١) جبران شامية ـ الإسلام: هل يقدم للعالم نظرية للحكم ـ ص ٢٢.

الديانة المسيحية

كما ذكرنا، فإن النصرانية عبرت إلى اليمن بواسطة التبادل التجاري مع بلاد سواحل الحبشة. والمعروف أن الحبشة كانت تدين بالنصرانية، وعندما غزا الملك الحميري ذو نواس اليمن وعاث فيها قتلاً، هرب قسم من أهلها إلى ملك الروم طالبين منه الأمان والحماية ونصرتهم على ذي نواس، فكان لهم ما أرادوا، إذ طلب ملك الروم من حليفه النجاشي ملك الحبشة أن يقدم لهم المساعدة والعون، فأرسل الأخير قائده أبرهة الأشرم بحملة قضى فيها على ذي نواس، وحكم بلاد اليمن ونشر الديانة المسيحية هناك، واستمر حكم الأحباش في اليمن قرابة اثنين وسبعين عاماً. حتى أتى من بعدهم الفرس وسيطروا عليها، واستمر حكمهم فيها حتى أيام الفتح الإسلامي.

والنصرانية في ذلك الوقت كان لها فرق مذهبية عديدة، منتشرة بين صفوف سكان الجزيرة العربية، وخصوصاً على

التخوم، فكانت هناك النسطورية واليعقوبية.

ـ فالنسطورية: أتت من آسيا الصغرى وبلاد سوريا...
وكان لها مراكز في الرها (أورفة) حالياً، ونصيبين في شمال شرق سوريا، والحيرة في العراق، وجندسابور في خوزستان. ومن هذه المراكز انطلقت النسطورية وانتشرت في البلاد العربية وفي مدنها، فكان لهم اكثر من عشرين أبرشية (والأبرشية هي منطقة ادارية كنسية تضم عدداً من المدن والقرى والكنائس تحت إدارة أسقف أو مطران).

وقد لعبت النسطورية والنساطرة تحديدًا دوراً هاماً في الحياة العربية، إذ استطاعوا ان يقوموا بترجمة العلوم اليونانية وفلسفتها إلى اللغتين السريانية والعربية، ولم يستطع القضاء على هؤلاء إلا غزوات تيمورلنك في القرن الرابع عشر، فانتشروا في أقاصي الأرض، وانطفأ ذكرهم وتشتتوا، ولم يبق منهم إلا طائفة صغيرة سكنت شمال العراق. وعرفوا لاحقاً باسم الطائفة الأشورية. ثم تفرقوا بعد ذلك في الدول المجاورة. ولم يعد لهم أي دور يذكر.

ـ اليعقوبية: أما الطائفة اليعقوبية، فكانت أول ما تأسست في الرها على يد الأسقف يعقوب براداوس، الذي نسبت الطائفة بإسمه. وهؤلاء يعتقدون بأن للسيد المسيح طبيعة واحدة؛ وتوفي الاسقف يعقوب براداوس سنة ٥٧٨م. وعرفت كنيسة اليعاقبة باسم: الكنيسة السورية اليعقوبية، وكانت لغة اليعاقبة اللغة السريانية وهي ليست ببعيدة عن اللغة الآرامية، التي كانت لغة

السيد المسيح وتلاميذه.

ويذكر أن اليعاقبة عرفوا من العلوم اليونانية وترجموها ونقلوها إلى عدة لغات، وبالأخص علم الطب والكيمياء والطبيعة، وكانت لهم مراكز علمية عديدة، وأسسوا مدرسة الاسكندرية.

تجدر الاشارة هنا، إلى ان أكثر العرب كانوا اعتناقاً وتعلقاً باليعقوبية هم: قبيلة غسان المنتشرة في بلاد الشام، بالإضافة إلى قبائل عربية أخرى، وكان من رؤساء العرب ومشاهيرهم يدين باليعقوبية هو: قس بن ساعدة وهو من نجران، وكان مع عدد من القساوسة والرهبان يقومون بنشر الدعوة، ويعظون السكان وينشرون تعاليمهم[1].

بالاضافة إلى هاتين الفرقتين النسطورية واليعقوبية، كانت هناك فرق أخرى صغيرة منتشرة في أنحاء البلاد كالأبيونية، وتعني بالعبرانية (الرجال الفقراء)، وهم يهود متنصرون اشتهروا بالزهد والتقشف والابتعاد عن أكل اللحوم، وتبعوا إنجيل متى، ووصفوا المسيح بأنه ابن الانسان، وانتشرت هذه الطائفة في مكة، وانتسب إليها كبراء أهلها، ومن بينهم القس ورقة بن نوفل (ابن عم خديجة زوجة النبي محمد (ص)، وهو الذي كان له الفضل في ترجمة الانجيل من العبرية إلى العربية، ومن بينهم أيضاً، عبد الله ابن جحش ابن عمة محمد (ص) وعثمان بن الحويرث وغيرهم..»[2].

(١) أحمد أمين ـ فجر الإسلام ـ ص ٢٩ ـ ٣١.

(٢) محمد حسين هيكل ـ حياة محمد ـ ص ١٢٧.

الخلاصة، أن كل الغزوات الدينية في الجزيرة العربية لم يكن لها التأثير الكبير والواسع في الانتشار، إنما بقي تأثيرها محدوداً ومحصوراً بين القبائل، ولم تعرف هذه الدعوات تأييداً والتفافاً واسعين، نظراً لقلة الوعي وعدم الاكتراث، ودرجة الجهل والتخلف الواسعين وسط القبائل والعشائر، ولم تعرف هذه الطوائف سوى انخراط عدد قليل جداً من القبائل على ما ذكره بعض المؤرخين المسلمين. من أمثال ابن قتيبة الذي قال: «كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاعة»[1]. بينما ذهب اليعقوبي إلى القول: «تنصرت تميم وربيعة وبنو تغلب وطي ومذبح وبهراء وسليخ وتنوخ ولحم...»[2] فيما قال الجاحظ: «كانت النصرانية قد وجدت سبيلها في تغلب وشيبان وعبد القيس وقضاعة وسليخ والعباد وتنوخ ولحم وعاملة وجذام... إلخ»[3].

والملاحظ ان النصرانية عرفت انتشاراً بين سكان الجزيرة العربية أكثر من الطائفة اليهودية، وقد يكون سبب ذلك ما قدمه ملك الروم لعرب اليمن من النصرة والعون، ومن حكم الاحباش لليمن لمدة تزيد عن ٧٠ عاماً.

كما أدَّت عزلة العربي في الصحراء إلى عدم أكتراثه، وتكوين شعور بالابتعاد عن هذه الديانات، لأنها لا تعني له شيئاً

---

(١) ابن قتيبة ـ المعلف ـ ص ٦٢١.

(٢) اليعقوبي ـ ج ١ ـ ص ٢٥٧.

(٣) الجاحظ ـ كتاب الحيوان ـ ج ٧ ـ ص ٢١٦.

بقدر ما تعنيه معارفه الخرافية والاسطورية من عادات اكتسبها مع الزمن، ومن انشغاله بأسباب العيش، والبحث عن الحياة المستقرة، بعيداً عن الانشغال بالفكر الديني وبالفلسفة وقضايا الكون ومعرفة الله.



«نحن حالياً أمة تتسول لقمة عيشها اليومي... وترزح تحت أسوأ نظم الحكم التي عرفها التاريخ. وتبدو مضحكة - ومبكية أيضاً - مثل مهرج مات في منتصف العرض».

الصادق النيهوم

العرب
قبل الدعوة النبوية

من المعروف ان العصر الذي سبق الاسلام سمي بالجاهلية نسبة إلى ما كانت عليه قبائل الصحراء والبادية من شدة الجهل والتخلف والتأخر. فلم يكونوا يعرفون شيئاً، أو يكونوا على علم بالمعرفة والفكر والفلسفة وسواها. وإنما كانوا «أهل بادية لا يألفون الحضر»[1] ولا يعرفون إلا الارتحال والتنقل وعدم الاستقرار. ولعبت هذه الحياة تشكيلاً مميزاً في طبائع القبائل، فكانت الجاهلية والأمية سمتَي العرب قبل الاسلام.

لقد كانت عبارة أو كلمة «الأمّية» منتشرة بشكل واسع بين أوساط سكان الجزيرة العربية، بما يعني أن عرب البدو بالجملة

(١) أحمد أمين ـ فجر الإسلام ـ ص ٨٣.

وعرب الحضر بنسبة معينة، كانوا أميين لا يعرفون القراءَة ولا الكتابة. بينما عرفها بعض العرب من سكان المدن والمحتكين بالوافدين من التجار من خارج المنطقة؛ وهذا مؤداه أنه لم يكن في حينه بين العرب حكماء وكتبة ومفكرون وفلاسفة بالشيء الذي يذكر، وإنما كان الشعر والرواية والقصة من سماتهم الأساسية.

والدليل على ذلك الشعر الجاهلي الذي مازال يدرَّس في مدارسنا ألى اليوم، كما كان للعرب اهتمام بمجالس الأدب. فكان لأجل ذلك الشعر «سوق عكاظ» حيث تحصل فيه المبارزة بالشعر والأدب، حتى ان القصائد الجميلة كانت تعلق على أستار الكعبة، ولذلك سميت المعلقات.. وكم من الأمثال العربية ما زالت على ألسنة الناس حتى اليوم.

فالجاهلية والأمية كانتا من مفاخر العرب وألفتهم، فيقول أحمد أمين: «كلمة الجاهلية ليست من الجهل الذي ضد العلم، بل من الجهل الذي هو السفه والغضب والأنفة. فكلمة الجاهلية تدل على الخفة والأنفة والمفاخرة، وهي أمور ما كانت في حياة العرب قبل الإسلام، فسمي العصر الجاهلي... أما الإسلام فعماده الخضوع لله والانقياد له»(١).

فالجاهلية والأمية كانتا إذاً، مذهبين شائعين عند عرب البادية. فقد سمي العصر الذي سبق الإسلام بالجاهلية، نسبة إلى ما كانت عليه القبائل من شدة الجهل والتخلف والتأخر. بينما

(١) أحمد أمين - فجر الإسلام - ج ١ ص ٦٩ - ٧٠.

كلمة «أمية» فإنها كانت لا تعني أبداً بأنها تطلق على واحد لا يعرف القراءَة ولا الكتابة؛ فقد كان في ذلك الزمان أشخاص كثيرون يعرفون القراءَة والكتابة وترجموا كتباً كثيرة إلى العربية. وتقول كتب السيرة بأن ورقة بن نوفل ترجم الانجيل من العبرية إلى العربية، وكان قساً نصرانياً، وكذلك علي بن أبي طالب، فقد كان يعرف القراءَة والكتابة قبل الإسلام، وكتب نهج البلاغة بعد إسلامه. لذلك، فقد كان هناك من علَّم وتعلم قبل وبعد هؤلاء أيضاً، مما يدل على أن القراءَة والكتابة كانتا منتشرتين في ذلك الوقت، إنما ليس بشكل واسع وبنفس المستوى بين جميع الناس، سواءً على صعيد أهل الحضر، أو على صعيد أهل البدو.

فالأمية كانت اصطلاحاً يعبر عن واقع اجتماعي وفكري وثقافي معين، ولذلك فقد قيل إن محمداً (ص) كان ينتمي إلى فريق الأمية ولم يكن أُمياً بالفعل، أي لا يعرف القراءَة ولا الكتابة. «... من المستبعد أن يتعلم عليّ ويبقى محمد جاهلاً...»[1] ويعزو ذلك بأن محمداً (ص) نشأ وترعرع وتربى في بيت عمه أبو طالب والد علي، وقد اعتمد بالتدليل على حديث للرسول عندما اشتد عليه مرضه، فقال لمن حوله: «إيتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً»[2].

من هنا، فإن موضوع «الأمّيّة» كان شائعاً ومتعارفاً عليه عند

(١) جبران شامية ـ الإسلام: هل يقدم للعالم نظرية للحكم ـ ص ٢٤.

(٢) محمد حسين هيكل ـ حياة محمد ـ ص ٥٠١.

عرب الجاهلية، ولم تكن تعني أو تقال لمن لا يعرف القراءَة ولا الكتابة. وخصوصاً أن بعض مدن الجزيرة مثل مكة والمدينة وغيرهما، كانت مركزاً هاماً تلتقي فيه وفود التجار والوافدين من مختلف الاجناس والطوائف والمعتقدات للتبادل التجاري؛ ولا بد من خلال هذا التبادل أن يحصل الاختلاط والتعاطي بين المتبادلين بشتى الافكار والانواع والمفاهيم، مما انعكس على أهل المدن ـ عدا التجارة ـ تبادلاً ثقافياً وحضارياً ودينياً وغيره. ومن خلال هذا التبادل والتحادث لا بد وأن تكون نمت حركة تدوين، ووجدت حركة كتابة وقراءَة تعلَّمها واطلع عليها وعرفها أهل هذه المدن، علماً بأن مثل تلك التجارة وذلك التبادل يقتضيان ويحتاجان إلى امور الكتابة والحساب وتسجيل البضاعة ووضع الأسعار عليها وسوى ذلك.

وفي هذا الاطار يذكر بعض المؤرخين بأن عدداً من الصحابة قد كتبوا ودونوا بعض آيات القرآن على الحجر والعظام وسعف النخيل، والتي جمعت كلها فيما بعد في مصحف أيام خلافة عثمان بن عفان.

كما تجدر الاشارة إلى ان انتشار اليهودية والنصرانية في ذلك الوقت في عدد من المدن والقرى في مناطق الجزيرة، كان لا بد وأن يعني بأن القساوسة والرهبان كانوا يتلون التوراة أو الانجيل، ويقرأونه على المصلين عند كل صلاة في جميع المراكز الدينية والكنائس، ومن خلال ذلك لا بد وأنه قد تعلم كثيرون القراءَة والكتابة واطلعوا وتعرفوا على الأديان الأخرى.

نعود للقول بأن «الأمية» كانت تعني غير ما تعنيه اليوم من

عدم المعرفة بالقراءَة والكتابة، وإنما كانت كما أشرنا من مزايا التصنيف وخصائص الأوضاع، إذ قيل إنها - أي الأمية - كانت تنوصف بقبائل العرب «الأميين» الذين لم يكن لديهم كتاب منزل، بينما كانت كلمة «كتابيون» تعني وتقال لمن عندهم كتاب منزل، فقيل إنَّ العرب أبناء اسماعيل هم «أميون». واليهود أبناء إسحق وكذلك النصارى هم «كتابيون»، وهنا يذكر الشهرستاني: «كان أهل الكتاب ينصرون دين الاسباط ويذهبون مذهب بني إسرئيل، والأميون كانو ينصرون دين القبائل ويذهبون مذهب بني اسماعيل»[(١)].

تفيد الإشارة هنا إلى أن العرب في ذلك الوقت لم يكونوا ليهتموا بتدوين التواريخ وتأريخ الأحداث والوقائع، ولذلك تختلف تواريخ بعض الاحداث الهامة من كاتب إلى آخر، واستناداً إلى مطالعة وقراءَة معلومات من هذا وذاك من المؤرخين، فمال معظمهم إلى طريق الاستنتاج والتخمين، ولم يعتمدوا على الدقة التاريخية وتدوين الاحداث في زمانها أو وقت حدوثها، فمثلاً «لا يعرف تاريخ زواج محمد (ص) من خديجة وتاريخ ولادة أطفاله، وتاريخ زيجاته ومن أبرم له عقد الزواج إلا تخميناً»[(٢)].

فكم من الاحاديث الكثيرة المنقولة من هنا وهناك، يطغى عليها طابع الكذب والاجتهاد الشخصي، أو إلصاقها بفلان،

---

(١) الشهرستاني - الملل والنحل - ج ١ ص ٢٨٠.

(٢) جبران شامية المرجع نفسه ص ٢٦.

واتهامها إلى فلان. وكم تشاطر البعض في إدراج أحاديث عن لسان النبي (ص) ما لا يصدقه العقل والمنطق. لذلك، لا بد من توخي الدقة والحذر عند تناول أي من هذه الامور تجنباً للوقوع في الزلل والانغماس في الشطط.

واقع الديانات قبل ظهور محمد (ص)

كما أسلفنا، فإن ما عرفته شعوب قبائل الصحراء العربية، هي الديانة الوثنية التي كانت منتشرة بشكل واسع، بالإضافة إلى الديانتين اليهودية والنصرانية، اللتين كان انتشارهما ضعيفاً جداً، ماخلا منطقة اليمن والمدن الأخرى. وقد عرفت هذه الديانات انقسامات حادة، وشهدت فرقاً متعددة تناحرت فيما بينها؛ وتفاقمت الخلافات الطائفية بين هذه الديانات، فمنها ما شهد انتعاشاً على حساب الأخرى ومنها ما شهد تفككاً وانهياراً لأسباب داخلية وخارجية. فالمجوسية مثلاً وقفت بوجه انتشار المسيحية تؤازرها قوى الشرق الأقصى والهند، بينما ظلت مصر وفينيقيا تعتقد في المسيحية، «فوقفت مسيحية الغرب ومجوسية الشرق وجهاً لوجه»[١]. وظلت

(١) محمد حسين هيكل - حياة محمد - ص ٦٨.

الصراعات حامية، والمنافسة تشتد بين رومية وبيزنطة، إلى أن بدأت المسيحية تتعدد مذاهبها، وكل مذهب ينقسم إلى عدة فرق وأحزاب متخاصمة، وصار لكل فرقة أوضاع دينية وطقوس مختلفة عن الأخرى، وأخذت هذه الفرق تتنكر لبعضها بعضاً، فدب الضعف والوهن في جسم الطائفة أو الديانة المسيحية، فمالت إلى العداوة والتعصب الأعمى، حتى دفع هذا الوضع بأحد الرهبان إلى القول: «كانت أطراف المدينة جميعاً ملأى بالجدل. ترى ذلك في الأسواق، عند باعة الملابس، وصيارفة النقود وباعة الأطعمة؛ فأنت تريد ان تبدل قطعة من ذهب، فإذا بك في جدل عما خلق وعما لم يخلق، وأنت تريد ان تقف على ثمن الخبز فيجيبك من تسأله؛ الأب أعظم من الابن، والابن خاضع له وأنت تسأل عن حمَّامك وهل ماؤه ساخن، فيجيبك غلامك؛ لقد خلق الإبن من العدم»[1].

لقد تنازعت الناس في أنسابها ودياناتها ومذاهبها، وكل ينظر إلى أن الحق إلى جانبه، وبأن الحقيقة محصورة في مذهبه وحزبه، وعلى ذلك قال كاهن آخر: «من كان يريد منكم الخمر والخمير، والديباج والحرير، والأمر والتدبير فليلحق ببصري وحفير، وهي أرض الشام (سكنها غسان). . . ومن كان يريد الثياب الرقاق والخيول العتاق، والكنوز والأرزاق، فليلحق بالعراق. . .»[2].

إن عوامل الانحلال التي شهدتها المسيحية، لم تنج منها

(١) المصدر نفسه ـ ص ٦٩.

(٢) المسعودي ـ مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٠.

المجوسية أيضاً بعد زمن، فقد أصاب المجوسية في بلاد فارس ما أصاب الأمبراطورية الرومانية، وانقسموا إلى فرق متعددة، بالرغم من أن عبادة النار ظلت ظاهرة مجوسية عامة. ولقد تنازعت الفرق المجوسية فيما بينها، وازداد الخلاف حتى تزعزعت كل الفرق الدينية المختلفة.

هذا التناحر جعل بلاد شبه الجزيرة العربية وبعض تخومها باقية على ديانتها الوثنية، ديانة الآباء والأجداد، ما خلا «بعض القبائل التي لانت للدعوة المسيحية»[١].

ولم تكن الحال أفضل بين المسيحية واليهودية، اللتين كانتا تتجاوران بين حوض البحر المتوسط والبحر الأحمر، فقد كان اليهود «لا يزالون يذكرون ثورة عيسى بهم وخروجه على دينهم، فكانوا يعملون في الخفية ما استطاعوا لصد تيار المسيحية التي أخرجتهم من أرض الميعاد»[٢]. ثم أنه كان لليهود جاليات لا بأس بها في بلاد العرب في اليمن وفي يثرب، فاحتدم الصراع وتأججت الخلافات، وتدهورت الأوضاع، وتفاقم الجدل. فيما بقي العرب على اتصال مستمر بنصارى الشام وبنصارى اليمن في رحلتي الشتاء والصيف، وعلى اتصال مماثل بنصارى الحبشة دون أن ينتصروا لفريق دون الآخر. وظلوا على وثنيتهم وازدهار أصنامهم وللعرب في هذا الشأن «أفانين شتى في عبادة الأوثان

(١) هيكل ـ حياة محمد ـ ص ٨١.

(٢) هيكل ـ حياة محمد ص ٨١.

يصعب على باحث اليوم أن يحيط بها . . »[1].

من كل ما تقدم من عرض، يعكس حال الديانات السائدة في ذلك الزمان وما أصابها من تفكك وتشتت وصراعات مهدت أو كانت السبب في ضرورة استنباط طريق آخر لتوحيد العرب، والاستفادة من هذه الأوضاع، للقيام بتغيير ينقل العرب من حال التشتت إلى حال التوحد وبناء الدولة العربية الواحدة؛ وهذا بالفعل كان طموح النبي محمد (ص) منذ أول ظهوره، فهل استطاع محمد (ص) أن يجمع العرب ويحقق الطموحات؟!! هذا ما سنعرضه في الفصل اللاحق.

(١) هيكل ـ حياة محمد ـ ص ٨٣.

كيف بدأت تتبلور فكرة بناء الدولة العربية ؟

في تلك الصحارى المترامية الأطراف، والتي يبلغ طولها أكثر من ألف كيلو متر، وكذلك عرضها، ولد الحلم، ونشأ الوعد، وتحققت الأمنية في بناء الدولة العربية. وقبل الدخول فيما قام به محمد (ص) من أعمال تاريخية، لا بد من التوقف قبلاً على الممهدات الموضوعية التي سبقت تحقيق الأمنية في بناء الدولة العربية الواحدة، إذا أنه من غير المعقول أن تحصل المعجزة في بناء الدولة العربية، قبل أن يسبق ذلك إرهاصات دولتية قامت وفتحت الطريق أمام سبيل تحقيق الوحدة العربية ولملمة شتات العرب من كل أنحاء الجزيرة وتخومها المترامية بين البحر المتوسط والبحر الأحمر.

وللتدقيق في البحث، والتماس الحقائق الموضوعية في

كيفية بناء الدولة العربية، وكيفية تبلور هذه الفكرة من الأساس، فإنه من المتعارف عليه بأن تاريخ الدولة العربية بدأ مع دعوة النبي محمد (ص) في مكة والمدينة حسب ما يذكره الإخباريون العرب، وكما جاء وورد في أدبيات وتراث الحكم الإسلامي العربي من نصوص وكتابات.

لقد أخذت فكرة بناء الدولة العربية تتبلور مع حركة التفاف واسعة من الإعراب وأهل المدن. وتطورت فكرة توحيد العرب، وبناء الدولة العربية وجمع شملها، والتي عرفت أوج عزها وازدهارها إبان الخلافة الراشدية؛ إذ واصل الخلفاء ما بدأه النبي العربي من نشر الدعوة التوحيدية. ثم توسعت الفكرة مع الفتوحات شرقاً وغرباً، وازدهرت في عصر الخلافة الأموية، في حين ان المؤرخين المحدثين يقولون: «إن تاريخ الدولة العباسية هو المرحلة التاريخية التي سقطت فيها مكانة العرب، وحل محلهم في السلطان، أجناس أخرى كالفرس والأتراك والبربر»[1] وعلى هذا الفهم يضيف الدكتور عبد العزيز سالم: «. . .بأن دولة بني العباسية أعجمية، ودولة بني أمية عربية. .»[2] أما في الواجهة الأخرى، فإنه يصح المنطق بأن فكرة بناء مشروع الدولة العربية كانت قد بدأت قبل الإسلام بعهود طويلة، لكن لم تستطع أية جهة تحقيق الفكرة نظراً لظروف تاريخية معقدة. وعندما نضجت الفكرة وصارت مشروعاً محققاً، وحاجة أو ضرورة سياسية

(١) عبد العزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربية ـ ص٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٣.

واجتماعية واقتصادية فرضتها الأوضاع السائدة، عرف النبي محمد (ص) اللحظة التاريخية المناسبة لبدء فكرته ومشروعه السياسي والديني في توحيد العرب وجعلهم أمة واحدة في دولة قوية ومتماسكة لها شأن ونفوذ وسلطان، فانتهز فرصة تصدع الدول الخارجية والأمبراطوريات، وخصوصاً الأعجمية المحيطة بالجزيرة العربية.. وبدأ العمل في هذا النطاق الملائم لجمع الأمة.

وللتدليل على مراحل تطور فكرة بناء الدولة العربية، نشير إلى أن هناك بين صفحات التاريخ، نشأت دويلات في شبه الجزيرة العربية مثل: الدولة القحطانية في جنوبي الجزيرة العربية وعلى تخوم الشام والعراق، والدولة المعينية، والدولة السبئية والدولة الحميرية، وكذلك دولة الأحباش في اليمن، ودولة الغساسنة والمناذرة، ودولة الأنباط والتدمريون. .إلخ.

إن هذه الدويلات العربية المتفرقة في أنحاء بلاد العرب، كانت تبذر بذور الفكرة العربية الواحدة، نظراً لأهميتها وتأثيرها، في مقابل امبراطوريات ذلك العصر؛ فالفكرة إذاً كانت موجودة، وجرى السعي إلى تحقيقها، فبرزت دويلات هنا وهناك كتربة صالحة لتنفيذها في المستقبل. ولذلك، تعتبر الدولة المعينية أقدم الدول العربية التي قامت في اليمن. «ودام حكمها من سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد إلى سنة ٦٣٠ ق. م»[١].

وعن تاريخ الدولة المعينية، علق الدكتور حسن ابراهيم

---

(١) الهمذاني ـ صفة جزيرة العرب ـ ص ٢٠٣.

حسن بالقول: «ويستدل من النقوش، وما ورد في التوراة، وما كتبه بعض مؤرخي اليونان، أن معين ظهرت في الألف الثاني قبل الميلاد، أي بين سنتي ١٢٠٠ و ٦٥٠ ق.م.»[١]. بينما الدولة السبئية دامت من سنة ٨٠٠ ـ ١١٥ ق م. وهذه الدولة ورد ذكرها في القرآن الكريم بقوله تعالى: **﴿فمكث غير بعيد فقال أحملت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين. أني وجدت امرأة تملكهم وأُوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم﴾**[٢]. والإشارة هنا إلى بلقيس ملكة سبأ، والتي تزوجها الملك سليمان بعد أن أسلمت، وكذلك الآية: **﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور﴾**[٣].

وقد ذكر أكثر من كاتب، وتحدث عن دولة سبأ وعن مكانها، فقيل: «كانت مملكة سبأ بين معين وقتبان، وامتد نفوذها حول سنة ٩٥٠ إلى سنة ١١٥ ق.م.»[٤]. بينما ذكر أوليري بأن «حاضرة سبأ كانت تسمى مريابة Mariaba جنوب شرقي مأرب، وأنها على جبل كثير الأشجار»[٥].

ودولة سبأ عرفت ثراءً فاحشاً وازدهاراً كبيراً، باعتمادها

---

(١) حسن إبراهيم حسن ـ تاريخ الإسلام ـ ج١ ص٢٤ .
(٢) سورة النمل ـ ٢٢ ـ ٢٣.
(٣) سبأ ـ ١٥.
(٤) حسن إبراهيم حسن ـ تاريخ الإسلام ـ ج١ ص٢٥ .
(٥) أوليري ـ العرب قبل محمد ـ ص٩٠ .

على الزراعة والتجارة، وأطلق على شعبها في حينه «فينيقيي البحر الجنوبي»[1]. وامتد نفوذ هذه الدولة وتوسع إلى نجد والحجاز شمالاً، وكان لهذه الدولة اسطول تجاري كبير، وتفوقوا في الملاحة والتجارة على مصر، وكان للهمذانيين دور فعال في خلق المتاعب والاضطربات لهذه الدولة القوية، والقضاء على شبابها ونفوذها، وحصلت فيما بعد نزاعات وخصومات على العرش، استفاد منها المتربصون أمثال الريدانيون والحميريون الذين انتزعوا في النهاية العرش السبئي.

أما الدولة الحميرية في اليمن، فقد امتدت من (١١٥ ق م إلى ٣٠٠ م). «وتقع مملكة حمير بين سبأ والبحر الأحمر، وقد ظهرت هذه المملكة بعد سنة ١١٥ ق.م.... ودامت ٦٤٠ سنة. ويمكن تقسيمها إلى عصرين متساويين: ملوك العصر الاول أو الطبقة الاولى بملوك سبأ وريدان، والعصر الثاني بملوك سبأ وريدان وحضرموت.»[2].

ومرت هذه الدولة بمرحلتين:

ـ الدولة الحميرية الأولى، وكان سكانها من بني حمير، ذوي فطنة وذكاء وعلم، وهم «الذين اقاموا سد مأرب لتجميع المياه، استجابة لما تقتضيه حياة الحضارة والاستقرار»[3]. ومؤسس هذه الدولة هو آل شرح يخصب. «وهو الذي بنى قصر غمدان أشهر

---

(١) فيليب حتّي ـ ص ٦٠.

(٢) حسن إبراهيم حسن ـ تاريخ الإسلام ـ ج١ ص٢٨ .

(٣) هيكل ـ حياة محمد ـ ص ٧٤.

قصور اليمن»[1] .

وخلال فترة أو مرحلة الدولة الحميرية الأولى، تعرضت هذه الدولة لحملات غزو من قبل الرومان، على يد اليوس جالوس حاكم مصر الرومانية، بغية الاستيلاء على الطريق التجارية، واستغلال ثروات اليمن لغناها وغنى مواردها، لكن هذه الحملات لم يكتب لها النجاح، فعادوا وعدلوا عن اللجوء إلى الخيار العسكري، واستعاضوا عن ذلك باللجوء إلى السيطرة عليها تجارياً.

ـ أما الدولة الحميرية الثانية، فقد كان مؤسسها شمر يهرعش بن ناشر النعم (٢٧٠م ـ ٣١٠م). وشمر هذا هو تبع الأكبر الذي جاء ذكره في القرآن الكريم بقوله تعالى: **﴿أهم خيرٌ أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين﴾**. وذكر الإخباريون أن شمراً هو الذي هدم سمرقند[2] .

وخلال مرحلة الدولة الحميرية الثانية، احتل الأحباش بلاد اليمن على عهد النجاشي، ولم يطل احتلالهم، فطردوا من اليمن عام (٣٧٠م ـ ٣٧٨م) على يد ملكي كرب يهمن اليهودي. وعاود الأحباش الكرة الثانية لغزو اليمن، واستطاعوا إسقاط الدولة الحميرية الثانية على يد ذي نواس سنة ٥٢٣م. وخير أهلها بين نبذ المسيحية والدخول في اليهودية أو القتل، فتخيروا القتل وآثروا الاستشهاد، فحفر لهم أخاديد وأحرقهم فيها وأحرق

(١) الهمذاني ـ الإكليل ـ ج ٢ ص ١٩.

(٢) الدخان ـ ٣٧ .

إنجيلهم. وذكرهم وارد في القرآن الكريم بقوله تعالي: ﴿**قتل أصحاب الأخدود**﴾[١]. كما ذكر المؤرخون في كتب السيرة «أن ذا نواس أهلك ما يزيد على عشرين ألفاً»[٢]. وبذلك زالت الدولة الحميرية الثانية، وبدأ عهد استيلاء الأحباش على اليمن سنة ٥٢٥م. وتولى حكمها أبرهة الأشرم، الذي له الفضل في نشر الدين المسيحي في هذه المناطق. «وبنى فيها القصور والكنائس، منها كنيسة سماها القليس (من لفظة ekklessia اليونانية في صنعاء، ونصب فيها صلباناً من الذهب والفضة، ومنابر من العاج والأبنوس»[٣].

وفي أخبار التاريخ أن سد مأرب كان له الفضل في ازدهار هذه الدولة وفي انتعاش عمرانها، وقد قيل إنّ هذا السد قد اجتاحه سيل العرم فجرفه وخربه، وبسبب ضعف الدولة الحميرية آنذاك، والتنافس الحاد بين الروم والفرس على السيطرة على اليمن، لم تستطع أن تعيد بناء ذلك السد مما أضعف الحالة بشكل عام. وأصاب الشلل الحياة الأقتصادية، فضربت المجاعة أهل اليمن، وجاءت حملة ملك الروم عليها، فدفعت بالكثيرين من أهلها إلى الهجرة منها، ولهذه الأسباب قيل إن أزد اليمن قد هاجروا باتجاه الشمال ـ أي إلى الجزيرة العربية ـ وكان ذلك مع الوقت سبباً في اتصال اليمن بسائر بلاد العرب.

---

(١) البروج ـ ٤.

(٢) هيكل ـ حياة محمد ـ ص ٧٥.

(٣) ياقوت ـ معجم البلدان ٤ ص ٣٩٥.

ونستخلص من ذلك بأن بلاد اليمن كانت الوحيدة من بين بلاد العرب، التي عرفت مبكراً التمدن والحضارة وحركة التواصل والاختلاط بالحضارات الأخرى، لما يشكله وشكله موقعها التجاري من جهة، ولما فيها من الخير والزرع وحياة الإزدهار، من جهة أخرى.

وبالعودة إلى الممارسات الاستبدادية للحبشيين بحق أهالي اليمن، فقد أفرز هذا الظلم ثورة عند المواطنين، وبدأوا بحركات احتجاج تطالب بالتخلص من حكم الأحباش، وتحرير اليمن من احتلالهم؛ فكان أن ظهر وطني حميري اسمه سيف بن ذي يزن، فأخذ بشتى الطرق والوسائل يعمل على إخراج الأحباش من بلاده، فحاول بادىء الأمر بالاعتماد على مساعدة الروم البيزنطيين، ففشل، ثم لجأ إلى ملك الفرس كسرى أنوشروان، فحصل له ما أراد في عهد ابنه معد يكرب، ودخل الفرس أرض اليمن وخرج الاحباش منها.

وتقول الروايات إن زعيم اليمن سيف بن ذي يزن أراد ان يتخلص من مسروق بن أبرهة الأشرم الحبشي حاكم اليمن بالظلم والاستبداد، وكان ذي يزن يكنى أبا مرة[١]. وعزم سيف ان يخلص شعبه من شرور مسروق، وتحرير بلاده من حكم الأحباش، فرأى صعوبة ذلك بالسيف، فلم يجد سبيلاً إلا ان يركب البحر إلى القسطنطينية، وقيل أنطاكية، وقدم على الامبراطور البيزنطي (جستين الثاني) ملتمساً منه العون والمساعدة،

---

(١) وهب بن منبه ـ التيجان ـ ص ٣٠٣.

فلم يحظ بها، وطال مقام بن ذي يزن ببلاط الامبرطور البيزنطي، حتى قيل إنه مكث ببابه سبع سنين[1]. ولما يئس بن ذي يزن، وطال به الانتظار، تحول إلى الملك كسرى انو شروان (٥٣١ - ٥٧٨م) لطلب النجدة منه، فعرض الأمر على النعمان بن المنذر ملك الحيرة لعلاقته وتبعيته لكسرى ملك فارس، فذهب معه إلى كسرى، ولما دخل سيف بن ذي يزن إيوان كسرى، شاهد مظاهر الابهة والعظمة، ولم يبهره ذلك، بل تقدم من كسرى وطلب منه أن يساعده على طرد الأحباش من اليمن[2]، فاستهان به كسرى وقال له: «بعدت أرضك من أرضنا، وهي أرض قليلة الخير، وإنما بها الشاء والبعير وذلك مما لا حاجة لنا به» ثم صرفه بعد أن أعطاه عشرة آلاف درهم، فخرج سيف ونثر الدراهم على الناس. ولما علم كسرى بذلك، أمر بإحضاره وقال له: «عمدت إلى حباء الملك تنثره على الناس». فقال سيف: «ما أصنع به، ما جبال أرضي كلها إلا ذهب وفضة»[3]. عندها طمع كسرى في بلاد اليمن، وأرسل مع سيف حوالي «ثمانمائة رجل كانوا سجناء في حوالي ثماني سفن غرقت اثنتان منها، ونجت ستٌ رست على ساحل اليمن[4]. ولم يتحقق حلم ذي يزن، فحمله ابنه معد يكرب، وساعده كسرى وأرسل قائده وهرز»[5] فنجحت حملته

(١) المصدر السابق - ص ٣٠٤.
(٢) المصدر السابق - ص ٣٠٤.
(٣) المصدر السابق - ص ٣٠٤.
(٤) عبد العزيز سالم - تاريخ الدولة العربية ص ٩١.
(٥) الاصفهاني - تاريخ صفي ملوك الأرض - ص ٩٢.

وانهزم مسروق بن أبرهة، واقتنع كسرى بتمليك سيف عليها[١].

لكن فيما بعد تبين أن أنوشروان كان قد اشترط على ذي يزن نظير مناصرته عدة شروط: منها أن يتزوج الفرس من نساء اليمن ولا يتزوج اليمنيون من نساء الفرس، وأن يحمل سيف ذي يزن الخراج إليه»[٢].

وبالنتيجة، ما فعله ذي يزن، هو أنه استبدل احتلال الأحباش لبلاده باحتلال الفرس لها، وبقيت اليمن أرضاً محتلة وليست محررة من حكم الخارج، وبذلك دخلت اليمن عهد احتلال الفرس لأرضها بدلاً من الأحباش، وبدأ الحكم الفارسي تحت يافطة الاستفادة السياسية والاقتصادية من اليمن، والسيطرة على ممرات سواحل البحر الأحمر. وبعد وفاة سيف وإبنه معد يكرب آخر ملوك حمير في اليمن «انقضى ملك حمير فصارت اليمن بأيدي عمال ملوك الفرس»[٣].

حاول الفرس بعد سيطرتهم على الطريق البحري التجاري إلى الهند، «السيطرة على الطريق البري أو على طريق الحجاز»[٤]، والإنطلاق منه إلى فتح بلاد الشام ومصر. وهذه المحاولات الفارسية أثارت الروم وأزعجتهم، فثار هرقل ملك الروم خشية خنق دولة أكسوم الحبشية حليفة الروم، «فنظم حملة

(١) الدينوري - ص ٦٤.

(٢) المسعودي - مروج الذهب ج ٢ ص ٨٢.

(٣) حمزة الاصفهاني - ص ٩٠.

(٤) جواد علي - ج ٣ ص ٢١٢.

بحرية واحدة»[1] استرد فيها سلطانه على مصر والشام.

أما في بادية الشام وجنوبي فلسطين، وعلى تخوم العراق، فقامت أيضاً «دويلات عربية سبقت ظهور الإسلام. ومن أقدم الشعوب العربية التي استقرت في جنوبي فلسطين، هم شعب الأنباط»[2]. وقد أسسوا مملكة قامت في شمالي الحجاز، وتنسب إلى شعب من شعوب العرب يعرف عند اليونان باسم nabataei أو النبط، «وسكنوا بادية الشام وجنوبي سورية في القرن السادس قبل الميلاد»[3]. وكانت لغتهم اللغة الآرامية، وامتد ملكهم زهاء أربعمائة سنة[4] «وبلغوا من القوة والشأن الكثير، إذا أخبر ديودور الصقلي على ان الأنباط بلغوا من القوة ما جعلهم يردون جيش أنتيجوناس على أعقابه»[5]. ومن أشهر ملوك الأنباط «الملك أرتياس أو الحارث (١٦٩ ـ ١٤٦ق.م.) والحارث الثاني (١١٠ ـ ٩٦ق.م.) وكان يعرف بإسم إيروتيموس. والحارث الثالث (٨٧ ـ ٦٢ق.م.) وهو أشهر ملوك الأنباط والمؤسس الحقيقي لسلطتهم»[6].

والملك عبادة الثاني (٦٢ ـ ٤٧ق.م.). الذي اهتزت مملكة الأنباط في عهده بسبب الغزو الروماني لسورية. حتى ان

---

(١) سالم ـ ص ١٠١.

(٢) سالم ـ ص ١٠١.

(٣) جواد علي ـ ج ٣ ص ٦.

(٤) المصدر السابق ـ ص ٦.

(٥) سالم ـ ص ٦٠١.

(٦) فيليب حتي ـ تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ١ ص ٤١٩.

مالك الأول (٤٧ ـ ٣٠ق.م.) «شارك بفرقة مع يوليوس قيصر في حملته على الإسكندرية سنة ٤٧ ق.م.»[١].

وفي عهد الملك النبطي عبادة الثالث (٣٠ ـ ٩ق.م.) اشترك الأنباط في حملة أغسطس قيصر لغزو بلاد اليمن. وهذه الحملة تعرضت لكوارث عديدة، وأخفقت بسبب «خيانة صالح دليل الحملة فمات عدد كبير عطشاً»[٢]. أما في عهد مالك الثاني بن الحارث الرابع (٤٠ ـ ٧١م.) اشترك الأنباط بحملة قوامها «ستة آلاف فارس في حملة الأمبراطور الروماني طيطس لمهاجمة بيت المقدس»[٣].

وآخر ملوك الأنباط كان الملك مالك الثالث (١٠١ ـ ١٠٦م.) وفي عهده استطاع الأمبرطور الروماني تراجان من القضاء على مملكة الأنباط، الذين تركوا خلفهم حضارة مركبة، «عربية في لغتها، آرامية في كتابتها، سامية في ديانتها، ويونانية في فنها وهندستها المعمارية، وبقيت عربية في جوهرها»[٤]. ويظهر ذلك واضحاً من خلال الأسماء التي اعتمدها الأنباط وهي «أسماء كانت بأكملها عربية صرفة»[٥].

---

(١) جورجي زيدان ص ٨٨ وفليب حتي ـ تاريخ العرب ص ٨٢.
(٢) فيليب حتي ـ تاريخ العرب ص ٥٦.
(٣) فيليب حتي ـ تاريخ سورية ج ١ ص ٤٢٣.
(٤) فيليب حتي ـ تاريخ سورية ج ١ ص ٤٢٦.
(٥) سالم ـ ص ١١٢.

مملكة تدمر

ومن الدويلات التي اشتهرت عند العرب وذاع صيتها، هي دولة مملكة تدمر المعروفة في التاريخ. وأما أصل هذا الاسم، فإن بعض الأخباريين العرب نسبوه إلى شخصية خرافية هي «تدمر بنت حسان بن أذينة بن السميدع، والتي يرتفع نسبها إلى سام بن نوح»[(١)]. وبعضهم رجح أن ملكة تدمر هي الزباء ابنة عمرو بن ظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوبر، ويعود أصلهم إلى العماليق على ما يذكره المسعودي»[(٢)]. وتاريخ تدمر السابق على التاريخ الميلادي غير معروف، ذلك لأن كل الكتابات القديمة التي عثر عليها في شأن تدمر، تفيد على أنه «لايتجاوز تاريخها سنة ٩ق.م.»[(٣)].

يمكن القول ان التدمريين حافظوا على دولتهم خلال فترة النزاع العسكري بين البارثيين والسلوقيين. ولكن لم يمنع ذلك من أطماع الرومان في الاستيلاء عليها عام ٤١ق.م.، عندما حاول ماركوس انطونيوس غزوها وهجَّر أهلها فتفرقوا. ثم عاود التدمريون محاولة بناء دولتهم وتوسيعها خلال فترة انشغال الدولة

---

(١) ياقوت ـ معجم البلدان مجلد ٢ ص ١٧.

(٢) المسعودي ـ مروج الذهب ج٢ ص٩٣ .

(٣) عبد العزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربية ـ ص ١١٩.

الرومانية بغزوات مع الجرمانيين في أوروبا الغربية[١] .

وخلال فترة النزاع بين الساسانيين والرومان، ظهرت إحدى الأسر التدمرية برئاسة سبتيموس أودوناتوس، والمعروف في المصادر العربية باسم أذينة بن السميدع، ووفقاً لرواية الطبري، «فيعود إلى هوبر العمليقي»[٢] . ومن الواضح هنا ان أذينة يعود أصله إلى الرومان حسب طبيعة اسمه، إذ لا يوجد في اللغة العربية أسم سبتيموس. والأرجح ان يكون أصله رومانياً جاء إلى شبه الجزيرة العربية عن طريق «تعيينه قنصلاً في عهد الأمبراطور ڤالريانوس»[٣] .

والأمر نفسه ينطبق على زنوبيا ملكة تدمر الشهيرة، فأجمعت المصادر اليونانية واللاتينية والعربية على أنها كانت «على درجة كبيرة من الذكاء وسعة الحيلة»[٤] . بينما أشارت روايات كثيرة تزعم نسبها إلى مصر وقرابتها لقلبطرة (كليوباتره) ملكة مصر، وكانت تجيد التخاطب باللغة المصرية، والبعض زعم انها من أصول أدومية، أي من أصل يهودي، وذهب البعض إلى اصل نسبها، بأنها كانت بدوية فتقربت من الرومان من أجل تحقيق حلمها بالاستيلاء على مصر»[٥] .

---

(١) سالم ـ ص ١٢٠.
(٢) الطبري ـ مجلد ١ ص ٧٥٦.
(٣) سالم ـ ص ١٢١.
(٤) سالم ـ ص ١٢٤.
(٥) سالم ـ ص ١٢٥.

وتفسير الأحداث والأخبار، بأن ملكة مثل زنوبيا شعرت بالمنافسة، وأرادت أن تصبح أكثر شهرة من كليوباترا ملكة مصر التي ذاع صيتها، وغيرة النساء لاتقف أمامها عوائق، ومن المرجح انها اعتمدت على الرومان لتحقيق هدفها، فزعمت أصلها العربي، وكانت ذكية، وحصل لها ما أرادت، ونفذت سياسة الرومان وتعاملت معهم، ثم ما لبث الرومان ان «خافوا من أطماعها، فاصطدموا معها في سورية وانتصرت عليهم»[١]. ويذكر عبد العزيز سالم بأن «زنوبيا اتفقت مع روما على بقاء جيوش تدمر في مصر نظير اعتراف تدمر بسيادة الرومان على مصر»[٢].

وبقيت مملكة تدمر تشهد عزها إلى أن «افتتحها خالد بن الوليد في خلافة أبو بكر صلحاً، وهو قادم من الحيرة إلى الشام»[٣]. وفي عهد مروان بن محمد الملقب بالحمار، ثار أهل تدمر، «فقصدها مروان بن محمد وقتل أهلها وهدم سورها»[٤].

والخلاصة ان الحضارة التدمرية كانت خليطاً من عناصر عربية ويونانية وفارسية، «وكانت اللغة اليونانية سائدة إلى جانب اللغة الآرامية»[٥]. وكانت ديانتهم عبادة الأصنام، وأعظم آلهتهم: الإله شمس وبعل واللات وعشتار.

---

(١) جواد علي ـ ص ١٠٥.
(٢) عبد العزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربية ـ ص ١٢٦ ـ ١٢٧.
(٣) ابن الفقه الهمذاني ـ مختصر كتاب البلدان ص ١١١.
(٤) ياقوت معجم البلدان مجلد ٢ ص ١٧.
(٥) فيليب حتي ـ تاريخ سورية ـ ص ٤٤٢ ـ ٤٤٤.

دولة الغساسنة

يقول رواة العرب ومخبروهم، بأن الغساسنة أصلهم من بلاد اليمن من الأزد بن الغوث، وقد هاجروا تحت قيادة زعيمهم عمرو بن عامر مزيقياء من جنوب الجزيرة العربية إلى بادية الشام قبل أو بعد حادثة سيل العرم[1]. وقد حصل هذا النزوح تحت وطأة الظروف الاقتصادية والسياسية التي حدت بهم إلى الإنتقال من اليمن، ونسب بعض الباحثين أن «الأزد أقاموا في تهامة بين بلاد الأشعريين على نبع ماء يقال له غسان فنسبوا إليه»[2].

وللتدليل على ذلك وعلى صحة هذه الأخبار، ما رواه المسعودي «. . . .وإنما غسان ماءٌ شربوا منه، فسموا بذلك. . .»[3] وقد تفرقوا بعد ذلك في نواحي عديدة، وخصوصاً بعد خبر سيل العرم، وجاؤوا إلى الشام، وملّكهم الروم على العرب، وكان أول من ملك من ملوك غسان بالشام: «الحارث بن عمرو بن عامر بن حارثة بن أمرىء القيس بن ثعلبة ولد مازن»[4]. وكانت ديارهم باليرموك والجولان وغوطة دمشق،

---

(١) سالم - ص ١٣٩.

(٢) سالم - ص ١٣٩.

(٣) المسعودي - مروج الذهب - ج٢ ص ١٠٦.

(٤) حمزة الاصفهاني ص ٧٧.

وبعضهم نزل في الأردن من أرض الشام، وكان جميع من ملك من ملوك غسان بالشام «أحد عشر ملكاً»[1].

فيما ذهب ابن خلدون وزعم بأن أول ملوك الغساسنة هو جفنة بن عمرو مزيقياء[2]. بينما المسعودي زعم حسب ما ذكرنا سابقاً بأن أول ملوكهم كان «الحارث بن عمرو بن عامر. وقد حلوا محل قبائل من بني سليح بن حلوان من قضاعة، ويعرفون بالضجاعمة»[3]. وقد كان أعظم أمراء دولة الغساسنة هو الحارث بن جبلة بن الحارث الجفني (٥٢٩ ـ ٥٦٩م.). وهو ابن امرأة تسمى «مارية ذات القرطين بنت أرقم بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو، أو بنت ظالم بن وهب بن معاوية بن ثور وهو كندة»[4] أو «بنت الهاني من بني جفنة حسب زعم إبن خلدون»[5].

ويقول الإخباريون بأن الحارث هذا، «غزا بلاد المنذر بن النعمان ملك الحيرة وسيطر عليها وغنم الكثير منها»[6].

وقدِّر لهذه الدولة أن تدخل في صراع مع المناذرة على الأراضي الواقعة جنوبي تدمر، وهي البادية[7]». وتذكر الأخبار بأن «الحارث اشترك مع البيزنطيين في حملتهم ضد الفرس، وقد

---

(١) المسعودي ـ مروج الذهب ج ٢ ص ١٠٩.
(٢) مقدمة ابن خلدون ج ٢ ص ٥٨٥.
(٣) المسعودي: التنبيه والإشراف ص ١٨٦ .
(٤) المسعودي: التنبيه والإشراف ص ١٠٧.
(٥) ابن خلدون ج ٢ ص ٥٨٥.
(٦) عبد العزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربية ـ ص ١٤٤.
(٧) جواد علي ـ ج ٢ ص ١٣٠.

رجع قبل عبور نهر دجلة، مما أثار شك الروم في أخلاصه»[1] .. وبعد مرور وقت قصير، عادت الاشتباكات إلى الظهور بين الغساسنة والمناذرة بين كر وفر، وهزيمة وانتصار لكلا الطرفين، انتهت بقتل المنذر نفسه في موقعه قنسرين سنة ٥٥٤م.[2] . وتوفي الحارث آخر سنة ٥٦٩م. ، بعد ان قضى في إمارته حوالي أربعين سنة، لكن الصراعات استمرت تارة مع اللخميين وطوراً مع البيزنطيين. وذكر أن حملات هرقل ملك الروم ضد الفرس شارك فيها أمراء غسان، بدليل ان «الغساسنة حاربوا المسلمين في وقت من الأوقات إلى جانب الروم»[3] وكان آخر ملوك الغساسنة، جبلة بن الأيهم «الذي أسلم وارتد عن دينه خوف العار والقود من اللطمة»[4] .

والخلاصة، أنه كان لدولة الغساسنة دور كبير في حضارة مزدهرة، ومتأثرة بالحضارتين الساسانية والبيزنطية[5] ؛ واشتغل الغساسنة بالزراعة، وبنوا القصور والقناطر والأبراج العالية والضياع، واهتموا بفنون العمارة نقلاً عن البيزنطيين.

---

(١) جواد علي ـ ج ٤ ص ١٣٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٦١.

(٣) الطبري ج ٢ ص ٢٠٦.

(٤) المسعودي ـ مروج الذهب ج ٢ ص ١٠٩.

(٥) عبد العزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربية ـ ص ١٥٦.

دولة المناذرة

من المعروف كما ذكرنا سابقاً، ان هناك قبائل كثيرة هجرت وتشتتت من بلاد اليمن وأطراف شبه جزيرة العربية باتجاه البوادي. وقد عرفت بادية الشام هجرات متشابهة ومتنوعة، وكذلك بادية العراق. ومن الهجرات حسب ما ينسب الأخباريون، هجرة قبائل تنوخ من اليمن بعد انهيار سد مأرب، إلى مناطق قريبة من بادية العراق، نظراً لصعوبة الحياة هناك. وأخذت تتحين الفرصة الملائمة للمكوث في منطقة تستقر فيها، وعند نشوب الحرب الأهلية في بلاد الفرس أواخر عصر الدولة البارثية، «استقرت هذه القبائل التنوخية في منطقة الحيرة والأنبار»[١].

وتقول الأخبار بأن تنوخ قبيلة عربية يمنية ورد ذكرها في جغرافيا بطليموس تحت اسم «tanueita»[٢].

وتعاقب على حكم المناذرة، التنوخيين عدة ملوك، كان أولهم «مالك بن فهم، ثم خلفه ابنه جذيمة»[٣]. ثم تولى بعده «عمرو بن عدي، وهذا يعتبر المؤسس الفعلي لإمارة اللخميين

(١) سالم ـ ص ١٥٨.

(٢) جواد علي، ج ٢ ص ٤١١.

(٣) اليعقوبي ـ ج١ ص ١٦٩.

في الحيرة»[1]. وتنازع مع أردشير بن بابك ملك الساسانيين بسبب النزوح إلى العراق، ثم استيطانهم في الحيرة، فخرج بعض القبائل منها، مثل «قضاعة وتنوخ ولحقوا بتوابعهم في الشام»[2].

ومن أشهر ملوك المناذرة بعد عمرو بن عدي، هو «امرىء القيس (٢٨٨ ـ ٣٢٨م.). وكان أول من تنصّر من ملوك آل نصر بن ربيعة، وقيل إنه عاش ملكاً ١١٤ سنة»[3]. «وتدل النقوش في جبل حوران على ان امرىء القيس كان محارباً عظيماً، أخضع قبائل العرب لسلطته، مثل قبائل أسد ونزار ومذحج ومفد»[4].

وتقلد إمارة المناذرة أيضاً، النعمان الأول بعد امرىء القيس الثاني (٣٩٠ ـ ٤١٨م.) الذي حكم ما يزيد عن ٣٠ سنة. «وزهد في الدنيا في آخر عمره»[5]. «واهتم النعمان ببناء الجيش، وفي عهده بدأت بذور المسيحية تنمو وتشتد. فأباح حرية ممارسة الشعائر المسيحية في الحيرة، كما أباح بناء الكنائس»[6]. ويقول بعض المؤرخين العرب، إنَّ النعمان قد تنصر، وقيل: «إنه ترك ملكه في ليلة، وارتدى مسوح الرهبان واختفى عن الأنظار»[7].

ثم جاء «المنذر بن امرىء القيس، فقضى حياته في غزو

(١) عبد العزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربية ـ ص ١٦٥.
(٢) الطبري. ج ١ قسم ٢ ص ٨٢١.
(٣) الطبري. ج ١ قسم ٢ ص ٨٣٤.
(٤) جواد علي ـ ج ١ ص ١٨٩.
(٥) الطبري ـ ج ١ قسم ٢ ص ٨٥٤.
(٦) سالم ـ ص ١٧٩.
(٧) جواد علي ـ ج ٤ ص ٤١.

لبلاد الروم والعرب، فغزا بلاد الروم عام ٥١٩م. ، ثم عاود غزوها مرة ثانية سنة ٥٢٨م. تأييداً للفرس، وتوغل في بلاد الشام مرتين، وانتهت حروبه بمقتله في موقعة حليمة، أو موقعة خيار سنة ٥٥٤م. »[١] . وذكر بعض الرواة بأن «المنذر كان قاسياً جداً في معركة أوارة ضد جيش بكر بن وائل، وأسر يزيد بن شرحبيل الكندي وأمر بقتله، ثم ذبح عدداً كبيراً من الأسرى على جبل أوارة، وأمر بالنساء أن يحرقن بالنار»[٢] . وهناك رواية تقول بأن «المنذر بن ماء السماء كان له نديمان من بني أسد يقال لأحدهما خالد بن نضلة، والأخر عمرو بن مسعود، فثملا، فراجعا الملك في بعض كلامه، فأمر (المنذر) وهو سكران، فحفر لهما حفيرتين في ظهر الكوفة ودفنهما حيين».

وخلف المنذر، «عمرو بن المنذر (٥٥٤ ـ ٥٧٤م.) وأمه هند بنت عمة امرىء القيس الشاعر، وكان يعرف مضرط الحجارة، ومحرق بن قتيبة»[٣] . وقضى عمرو حياته بمحاربة الروم والعرب، وقال الرواة: «إن عمرو بن المنذر، قتل على يدي عمرو بن كلثوم، بسبب غروره وإذلاله لأمه»[٤] . وقال ابن الأثير: «بأن عمرو بن كلثوم استل سيف ابن هند وهو معلق في السرداق، فأخذه ثم ضرب به رأس مضرط الحجارة فقتله»[٥] .

(١) ابن قتيبة ـ المعارف ـ ص ٢١٦.
(٢) ابن الأثير ج ١ ـ ص ٣٣٤.
(٣) سالم ـ ص ٢١٩.
(٤) سالم ـ ص ١٨٦.
(٥) ابن الأثير ج ١ ص ٣٣١.

وجاء بعده النعمان بن المنذر (٥٨٣ ـ ٦٠٥م.) وقيل إن أم النعمان كانت «من طبقة وضيعة لا تليق بأسرة من الملوك»[(١)]. فيما اعتقد الدكتور عبد العزيز سالم «بأن أمه يهودية»[(٢)]. والنعمان هذا سجنه «كسرى ملك الفرس بساباط المداين وقيل بخانقين»[(٣)]. فرمي تحت أرجل الفيلة، وقيل مات في محبسه.

وذكر أكثر من مصدر بأن «النعمان بن المنذر لم يكن موفقاً في حروبه وقد هزم في أكثرها، وكادوا يقتلونه»[(٤)]. وقيل إنه «كان يحب الشعر، وصادق النابغة الذبياني، وتنصر بعد أن كان عابد وثن»[(٥)].

وبعد النعمان بن المنذر، تسلم الإمارة أياس بن قبيعة، وعهد إليه كسرى بإمارة الحيرة بعد مقتل النعمان. وحكم إياس مدة سبع سنوات حسب رواية الأصفهاني، وتسع سنوات في رواية الطبري. وأربع عشرة سنة حسب رواية ابن الأثير، وفي عهده انتصر العرب على الفرس في واقعة ذي قار الشهيرة، وفي هذا اليوم قال النبي محمد (ص): «هذا أول يوم انتصفت العرب فيه من العجم وبي نصروا»[(٦)]. وذكر بأن المعركة حصلت سنة ٦١٠م. بعد بعثة الرسول بقليل، والتي حدثت سنة ٦٠٩م. فيما

---

(١) جواد علي ج ٢ ص ٨٥.

(٢) سالم ـ ص ١٨٨.

(٣) الطبري ـ ص١٠٢٩ .

(٤) ابن الأثير ج ١ ص ٣٩٦.

(٥) الإصفهاني ـ ص ٧٣.

(٦) المسعودي ـ ج ١ص ٢٧٨.

أشار آخرون إلى ان «المنذر بن النعمان، الملقب بالمغرور (٦٣١ ـ ٦٣٢م.)، كان آخر ملوك اللخميين في الحيرة، وقد خاض عدة معارك مع المسلمين، وفر المنذر من حصن البحرين، ثم ما لبث أن قتل»[1].

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ج ٢ ص ٢٩٧.



الواقع الاقتصادي لبلاد الحجاز وأهميته

بالنظر إلى هذه المنطقة، فإنها من الأهمية الاقتصادية والدينية، بحيث تشكل شرياناً حيوياً وهاماً، لاغنى عنه في عالم التجارة وتواصل الحضارات؛ فهي صلة وصل بين عدة مناطق من عدة جهات شرقية وشمالية شرقية. وتعتبر هذه المنطقة جسراً يربط بلاد الشام ومناطق حوض البحر الأبيض المتوسط، بمناطق الحبشة والصومال والسواحل المتصلة بالمحيط الهندي.

وقد شكلت هذه المنطقة، محطة تجارية هامة، ونقطة انتقال وتبادل على جميع المستويات الاقتصادية والدينية، ففيها تلاقت جميع الأديان الوثنية والمجوسية، بالإضافة إلى الديانات السماوية الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلامية.

ونظراً لأهميتها، فقد جرى تجاذب التنافس والسيطرة عليها

من كل الدول والامبراطوريات التي تأسست في ذلك الزمان، وكانت هدفاً لأطماع السيطرة والنفوذ والتوسع.

ويستنتج من النقوش الكتابية التي عثر عليها في أعالي جبال الحجاز، والتي تعود إلى ماقبل الميلاد، بأن منطقة الحجاز الشمالية «كانت تخضع للإمارة المعينية ثم السبئية ثم الحميرية»[١]. ولما تخلصت بلاد الحجاز من نفوذ اليمن، خضعت لسلطان دولة الأنباط. وللدلالة على ذلك، فقد عثر على كتابات نبطية في العلا والمدائن، وترجع إلى القرن الميلادي الأول، واتخذ سكان الحجاز «آلهة الأنباط مثل: ذو الشرى، واللات والعزى ومناة وهبل»[٢].

ولأنها كما ذكرنا، كانت بلاد الحجاز ساحة لأطماع الدول والأمبرطوريات، نظراً لموقعها وأهميتها، فقد أدرك الرومان هذه الأهمية، وأخذوا يتهيأون للسيطرة على الطريق التجاري الموصل إلى الهند عبر سواحل البحر الأحمر، ودأبوا في السعي لفرض حكم مسيحي على بلاد حمير الوثنية، حسب ما ذكره عبد العزيز سالم نقلاً عن «بركوبيوس»[٣].

ومع بدايات القرن السابع الميلادي، برزت قريش في تلك المنطقة من بلاد الحجاز، وسيطرت على التجارة بزعامة شيخها هاشم بن عبد مناف، الذي ابتكر رحلتين لأهل قريش تدعم

(١) جواد علي - ج ٤ - ص ١٦٥.

(٢) عبد العزيز سالم - تاريخ الدولة العربية - ص ٢٣٤.

(٣) عبد العزيز سالم - تاريخ الدولة العربية - ص ٢٣٥.

وضعهم الإقتصادي والمعيشي: فكانت «رحلة الشتاء إلى الشام، ورحلة الصيف إلى الحبشة»[1]. فيما ذهب آخرون إلى القول بأن «رحلة الشتاء كانت إلى اليمن والحبشة والعراق، ورحلة الصيف إلى الشام» [2] وحاجة هاتين الرحلتين التجاريتين فرضتها ظروف ما كانت تعانيه قريش من ضيق معيشي لقلة الموارد، وجفاف الأرض.

وبما أن هذه المنطقة باتت مركزاً تجارياً مقصودا مع الوقت، فقد ساعد ذلك على ازدهار مدن كمكة والطائف ويثرب. وازدهرت فيها أسواق حرة كانت تعقد في الأشهر الحرم للتأمين على حياة وأموال الناس. مثل: سوق عكاظ، الذي أقيم على أرض فسيحة بين مكة والطائف، وكان يقصده جميع التجار والمجتازين من كل حدب وصوب، كما انعقدت أسواق مماثلة مثل: «سوق مجنة بأسفل مكة لبني كنانه، وسوق حباشة قرب بارق لوزد، وسوق ذي المجاز لهذيل قرب عرفة»[3].

ولهذه الأسباب، اشتهر اسم بكة في التاريخ، ولعبت دوراً هاماً في الحياة السياسية والاقتصادية والدينية، وقيل عنها بكة. حيث ورد ذكرها في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين**﴾[4]. وفي قوله

(١) اليعقوبي ـ ج ٢ ص٢٠٢.

(٢) البلاذري ـ أنساب الأشراف ص ٥٩.

(٣) سالم ـ ص ٢٣٧.

(٤) آل عمران ـ ٩٦.

تعالى: **﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة...﴾**[1].

وذكر الإخباريون لمكة أسماء أخرى منها: «النساسة، والناسة، والباسة لأنها تبس، أي تحطم الملحدين. وسميت أيضاً بأم رحم وأم القرى»[2]. وقد ورد اسم أم القرى في القرآن الكريم بقوله تعالى: **﴿لتنذر أم القرى ومن حولها...﴾**[3].

بينما ذكر لها آخرون أسماء أخرى مثل: معاد والحاطمة والبيت العتيق، «لأنه عتق من الجبابرة»[4] وكذلك ورد اسم البيت العتيق في القرآن الكريم، فجاء في قوله تعالى: **﴿...وليطوفوا بالبيت العتيق...﴾**[5]. وعرفت مكة بأسماء أخرى مثل: الحرم وصلاح، والبلد الأمين، والعرش، والقادس والمقدسة وكوثى. وقد ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز: **﴿والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين﴾**[6]. وسميت كذلك البيت الحرام في قوله تعالى: **﴿جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس﴾**[7].

يستدل من هذه الأسماء كلها، على ان مكة كانت في أول

---

(١) الفتح ـ ٢٤.
(٢) عبد العزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربية ـ ص ٢٤٠.
(٣) الأنعام ـ ٩٢.
(٤) الإزرقي ـ ج١ ص ١٨٩.
(٥) الحج ـ ٤٩.
(٦) التين پ ـ ٣.
(٧) المائدة ـ ٩٧.

أمرها مقاماً دينياً، أسسه النبي ابراهيم. ولا يستبعد ان يكون اسم مكة ما كان يعرف «باسم مكرب، أي مقدس ثم تحول إلى مكة»[1].

كانت مكة تعاني من قلة موارد المياه، لأنها تقع في واد غير ذي زرع ولا ضرع. ونظراً لشح المياه، عانى المكيون ظروفاً قاسية في الحصول عليه. ولحل هذه المعضلة، لجأ أهالي مكة إلى حفر الآبار وتجميع المياه، ثم نقله في المزاد والقرب لسكبه في حياض من أدم بفناء الكعبة، ومن أشهر الآبار: بئر زمزم، الذي حفره عبد المطلب قرب البيت والمسجد بين الوثنيين: إساف ونائلة. وهذه الأبار حلت مشكلة المكيين وخصوصاً بئر زمزم الذي غطى على آبار مكة كلها، «لأنها بئر اسماعيل بن إبراهيم»[2] حسب ما ذكره المؤرخون.

ولأن مكة لا يوجد فيها زرع ولا ضرع، ولم يكن ينبت فيها أشجار مثمرة قبل ظهور الإسلام، واقتصر ذلك على نباتات صحراوية مثل: الضغابيس والسنا، وهي نباتات كان يؤخذ منها «الدواء والسواك»[3]، انصرفت إلى ايجاد البدائل من اجل العيش والاستمرار.

ونختصر القول بأن قريشاً في مكة كان لها مصادر اساسية للعيش والثروة، من خلال فرض الأتاوات على التجار العابرين

---

(١) سالم - ص ٢٤١.

(٢) ابن هشام - ج ١ ص ١٥٨ (كتاب سيرة النبي).

(٣) البلاذري - نتوج البلدان ج ١ ص ٥٢.

والعرب الذين لا علاقة لهم مع قريش بأي حلف. وكان من بين الضرائب، ضريبة العشور، إذ «كانوا يعشرون من يدخل مكة من تجار الروم»[1]. فكانت أسرة بني مخزوم، من الأسرات المكية الفاحشة الثراء، ومنهم الوليد بن المغيرة بن مخزوم، وهو القائل عندما نزل الوحي على محمد (ص): «أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها...»[2].

وعرف أهل مكة الكتابة عن النبط وأهل الحيرة. وعرفوا بعض «الأدوية عن الأحباش، واستفادوا من الروم والفرس في بعض مظاهر الحياة الإجتماعية والثقافات»[3].

(١) الأزرقي ج ١ ص ١٠١.
(٢) ابن هشام ـ السيرة ـ ج ١ ص ٣٨٧.
(٣) عبد العزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربية ـ ص ٢٥٨.

سكان ظاهر مكة
قبل ظهور الاسلام

لم يستطع أحد تحديد معرفة تاريخ قيام مكة، وإنما قيل إنها ربما كانت محطة لتوقف القوافل من العنت، فيضربون الخيام للراحة والتبادل التجاري؛ أي أنها كانت أشبه بسوق تلتقي فيه القوافل التجارية، ونقطة التقاء متعارف عليها، ولذلك أورد الإخباريون أنه قدم مكة «قوم من العمالقة (الهكسوس) يتزعمهم السميدع ابن هوبر بن لاوي»[١]. وقبل ذلك كان ابراهيم قد أسكن ولده اسماعيل في مكة مع أمه هاجر، على «ربوة حمراء هي موضع البيت»[٢]. ونظراً لحالة أسماعيل وظمئه وخبر هاجر، حصل ان أنبع الله لهما بئر زمزم. وكان أن قحط الشحر واليمن،

---

(١) المسعودي ـ مروج الذهب ج ٢ ص ٤٦.

(٢) المسعودي ـ مروج الذهب ج ٢ ص٤٦.

فتفرق العماليق وجرهم ومن كان هناك من بقايا عاد[١]. وتزوج اسماعيل امرأة جرهمية لأن منازل جرهم كانت حول مكة وبطاحها.

بعد ذلك وفدت إلى مكة جماعات من بني خزاعة وأزد بعد حادثة سيل العرم وخراب السد في اليمن، ونزلوا بظاهر مكة، وهم الذين طردوا الجرهميين منها، وكانوا يعبدون الأوثان، بينما احتفظت قبيلة مضر «بحق الإجازة بالناس من عرفة، والإفاضة بهم غداة النحر إلى منى»[٢].

وتطور وفود الجماعات من خزاعة ومضر وكنانة إلى مكة، وعرفوا نوعاً من الاستقرار الدائم، رافقه تلقائياً بناء بيوت وأحياء بظاهر مكة، واستطاع «قصي بن كلاب بن مرة من تزعم وسيادة مكة، كما يعود له الفضل في جمع قريش، سواء الذين سكنوا البطاح وهم (البطون التي كانت تسكن مكة نفسها) ومنهم: بنو عبد مناف، وبنو عبد الدار، وعبد العزى وبنو زهرة ومخزوم، وتيم بن مرة، وجمح وسهم وعدي وعتيك بن عامر، أما الذين سكنوا قريش الظواهر، وهم الذين تواجدوا خارج مكة ومنهم: بنو محارب والحارث بن فهر، وبنو الأدرم بن غالب بن فهر، وبنو هصيص بن عامر ابن لؤي»[٣].

وبنى قصي بن كلاب داره في مكة وسميت «دار الندوة»؛

---

(١) المسعودي ـ مروج الذهب ج ٢ ص ٤٦.

(٢) المسعودي ـ مروج الذهب ج ٢ ص٤٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٩.

وهذه الدار تحولت إلى منتدى يلتقي فيه أهل مكة، «ويتشاورون في جميع الأمور التي تهم قريشاً في حالتي الحرب والسلم»[١] وكانوا في «دار الندوة» يعقدون الألوية «ويزوجون من أراد التزويج»[٢]. حتى أن «دار الندوة» تحولت مع الوقت إلى ما يشبه شكل «الحكومة»، يديرها الملأ أو مجلس شيوخها، أو كما عرِّف عنها بأنها تشبه «الأكليسيا في أثينا والسناتو في روما»[٣]. وفرض «قصي بن كلاب على قريش مجموعة من التدابير في إدارة شؤون البلاد، مثل: الحجابة والرفادة والسقاية واللواء والقيادة. وكانت هذه التدابير تعني:

- الحجابة: من يمتلك مفاتيح الكعبة.
- الرفادة: إطعام من لم يكن له سعة ولا زاد من الحجاج.
- السّقاية: التكفل بسقاية الحجاج الماء العذب.
- اللّواء: راية يلوونها على رمح ينصبونها علامة للعسكر إذا توجهوا إلى الحرب، وتدور حوله المعارك.
- القيادة: قيادة الجيش عند الحرب يتولاها قصي أو من ينوب عنه»[٤].

والحقيقة أن «قصي بن كلاب»، يعتبر أول من جاهد على

---

(١) قطب الدين النهروالي ـ الإعلام بيت الله الحرام ـ ص ٤٥.
(٢) البلاذري ـ أنساب الأشراف ـ ص ٥٢ واليعقوبي ج ٢ ص ١٩٧.
(٣) النهروالي ـ ص ٤٥.
(٤) تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي ـ أبو الطيب ـ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج ٢ ص ٨٧ ـ ٨٨.

جمع كلمة أهالي مكة ظواهرها وبطاحها. وأسس فيها نواة سلطة كان هو مرجعها ومؤسسها وملهمها، وهو الذي فتح لها الطريق، ومهد لها سبيل الحياة إلى الخارج، والتعاطي مع الأطراف لتصبح محط نظر ومقصد جميع التجار والأديان، كما حوَّلها إلى ساحة للجدل وتبادل الأفكار والمعتقدات.

ولما توفي قصي بن كلاب، انحلت معه السلطة في مكة، أو بالأحرى خسرت مكة، المرجعية القوية، وصاحب الكلمة الجامعة لجميع سكانها؛ وأسفر موت قصي، عن تفجر خلافات عميقة بين سائر القبائل والعشائر، مع الإشارة إلى ان هاشماً وعبد المطلب قد لعبا أيضاً دوراً هاماً في حياة مكة والمكيين، وفي تقوية دورها، وتعزيز أمر وجودها الإقتصادي والتجاري والديني، إنما لم يمنع ذلك من بقاء مكة تعاني من خلافات وانقسامات حادة بين سكانها وقبائلها، إلى ان جاءت فترة النبي محمد (ص)، والذي كان له الدور الأهم والأبرز في استكمال ما بدأه قصي، وفي إعادة إحياء الدور التاريخي لمكة، وصناعة حضارة كبيرة، وبناء دولة من أقوى دول ذلك العصر.

ولا بد، من الإشارة هنا، إلى أن أجواء الخلافات والانقسامات بين القبائل في مكة، وجو الاتهامات المتبادلة بين جميع المختلفين فيها، أتاح جواً غنياً من النقاش الحامي، والجدال الواسع حول أمور كثيرة، أدت إلى مزيد من إفساح المجال أمام حرية الرأي والتفكير، والإعلان جهرة عن مواقف لم تكن تحصل في السابق، كملامة اليهود والنصارى، وتعييرهم

العرب على عبادة الأوثان. وهذه الأجواء سنحت لمقدمات لا يمكن إغفالها، لجهة البحث والتفتيس عن بدائل، وحلول لإخراج واقع مكة من التشرذم، والتفكير في إعادة اللحمة، وتوحيد الجهود والطاقات لمواجهة الحاضر والتأسيس للمستقبل.

وتبرز هنا أهمية موضوع القيادة والمرجعية القوية، وإشكاليتهما في جمع القبائل وانضوائها في ظل قيادة حكيمة، كما تبرز الحاجة ومناخ الاستعدادات النفسية الحاضرة لتقبل فكرة الجمع وتوحيد الجهود؛ وتؤكد أيضاً ميل الناس إلى التعلق بفكرة الوحدة والخلاص من التشرذم. وهذا بالضبط ما حصل مع قصي وتحقق في حياته، لكنه ما لبث أن انهار بعد وفاته، وبقيت فكرة التوحيد، ووجود المرجعية القوية، وأزمة القيادة مستمرة حتى عصر النبوة وظهور محمد.



الطائف قبل الاسلام

كانت مدينة الطائف قديماً، مدينة صغيرة، تتألف من بيوت عتيقة، وهي مجاورة لمدينة مكة ويعتقد الدكتور عبد العزيز سالم، بأنها سميت بهذا الاسم «. . . من الطواف حول بيت اللات. . . وأن التسمية بالطائف كانت نتيجة لأهميتها الدينية، باعتبارها المركز الوثني الثاني في بلاد الحجاز بعد مكة»[١].

والطائف من حيث موقعها، تقع على ظهر جبل غزوان من جبال السراة «وفيه قبائل هذيل»[٢]. ويشرف هذا الجبل على

(١) عبد العزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربية ـ ص ٢٦٤.

(٢) المقدسي ـ أحسن التقاسيم ـ ص ٧٩ وياقوت ـ معجم البلدان ـ مجلد ٤ ص ٩.

المدينة، وهو بمحاذاة البحر الأحمر ويشكل مع سلسلة جبلية، امتداداً لجبال اليمن.

والطائف، من حيث الأهمية، كانت فعلاً المدينة الوثنية الثانية بعد مكة، وكان لها دور ديني واقتصادي، واقترن اسمها بإسم مكة، فكان يقال مثلاً: مكة من الطائف، والطائف من مكة، وسميتا بالقريتين، استناداً إلى ماورد في الآية الكريمة: **﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾**[(١)].

وقد عرفت مدينة الطائف «بمناخها المعتدل، وطيب هوائها وبرودة مائها»[(٢)]. وهذا ساعدها على انتعاش القطاع الزراعي فيها. فزرعوا الحنطة وشتى أنواع الحبوب، وكذلك العسل[(٣)] الذي اشتهرت به الطائف، وكان أحد أهم مصادر ثرواتها. وذكر أن أصحاب تربية النحل كانوا «يؤدون إلى الرسول من كل عشر قرب عسل قربة»[(٤)]. واشتهرت أيضاً بالفواكه وأشجار النخيل، وقد ورد عن المقدسي قوله: «فيها من العنب العذب، ما لا يوجد مثله في بلد من البلدان، وأما زبيبها فيضرب بحسنه المثل»[(٥)].

وقيل إن النبي محمد (ص) لما خرج إلى الطائف يلتمس

---

(١) الزخرف ـ ٣١.

(٢) المقدسي ـ ص ٧٩.

(٣) الإزرقي ـ ج ٢ ص ١٩٣.

(٤) سالم ـ ص ٢٦٩.

(٥) المقدسي ـ ص ٧٩.

النصرة من ثقيف، «سبوه وتصايحوا به وألجأوه إلى حائط (بستان)لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، فجلس الرسول في ظل حبلة من عنب»[١].

لذلك، فقد سكن مدينة الطائف جماعة من ثقيف، وكان نزلها أولاً «قس بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن غيلان»[٢]. وقيل إن قس هذا كان سبب نزوله في الطائف، إثر خلاف أو تصدٍ لأحد رجال ملوك اليمن له، عندما كان في تجارة، ففر ونزل على عجوز يهودية لا ولد لها، فاتخذته ولداً، وورثها بعد موتها. ثم استجاره عامر بن الظرب العدواني سيد قس، فزوجه ابنته. وغرس قس قضبان كَرْم كانت أعطته إياها أمه اليهودية، فنبتت، ولما أثمرت قالوا: «قاتله الله كيف ثقف عامراً حتى بلغ فيه ما بلغ...» فسمي ثقيفاً منْ يومئذ[٣]. وكثر ولدان ثقيف وتعددوا، وجرت بينهم وبين عدوان حروب انتهت بخروج عدوان من الطائف، «فحمت دارها، وكاوحت العرب عنها»[٤].

وسكنت إلى جانب ثقيف في الطائف مجموعات «من قبائل حمير، وأخرى من هوازن والأوس والخزرج ومزينة وجهينة»[٥]. وكان كثير من أسياد وأثرياء قريش في مكة، يمتلكون في الطائف

---

(١) ابن هشام - ج ٢ ص ٦١.
(٢) عبد العزيز سالم - تاريخ الدولة العربية - ص ٢٧٠.
(٣) سالم - ص ٢٧١.
(٤) البلاذري - أنساب الأشراف - ص ٢٧.
(٥) سالم - ص ٢٧٢.

مزارع وبساتين. فكانت لعمرو بن العاص «اموال ومزارع بوهط الطائف ورثها عن أبيه»[١]. كذلك كانت لعمر بن الخطاب أملاك مشابهة، وللعباس بن عبد المطلب كروم، ولعامة قريش»[٢]. ثم لا يغيب عن بالنا أيضاً، بأنه قد سكنت في الطائف إلى جانب تلك الجماعات، جماعة من اليهود، وفدوا إليها عن طريق التجارة، وجماعات أخرى من الروم، ذكر البلاذري من بينهم «الأزرق والد نافع بن الأزرق الخارجي، إذ كان عبداً رومياً وكان طبيب العرب»[٣].

وكما ذكرنا، فإن الطائف تعتبر المدينة الثانية من حيث الأهمية الدينية بعد مكة. وقد بنت فيها ثقيف بيتاً سترته بالثياب، «يقدمون له الهدايا، ويطوفون حوله، وكانوا يسمونه الربة، ويمجدونه ويعظمونه كتعظيم مكة للكعبة»[٤].

وهذا البيت كان عبارة عن مركز ديني يقصده أهل الطائف، ويتعبدون فيه، ويضم البيت صخرة مربعة تعرف باللات، ويروى أن الرسول (ص) لما عزم على فتح الطائف، «هدمت بالمنجنيق بعد حصار دام خمسة عشر يوماً»[٥] وقيل شهراً[٦]. وبعد مفاوضات طلب الصلح على أساس شروط: «ألا يحشروا وألا

(١) البلاذري ـ أنساب الأشراف ـ ص ١٣٩.
(٢) البلاذري ـ أنساب الأشراف ص ٥٧.
(٣) المصدر السابق ـ ص ٤٨٩.
(٤) ابن هشام ـ السيرة ج ١ ص ٤٩.
(٥) البلاذري ـ أنساب الأشراف ـ ص ٣٦٦.
(٦) الواقدي ـ مغازي رسول الله ص ـ ٣٣٨.

يعشروا وألا يجنوا، وأن يتمتعوا باللاَّت سنة»[1] . فأعرض النبي عنهم، وقبلوا أن تكسر اللاّت، فقيل إن الذي كسرها، المغيرة بن شعبة، وقيل «هدمها وأحرقها بالنار»[2] .

يثرب قبل الإسلام

ومن المدن الهامة أيضاً في بلاد الحجاز في ذلك الزمان، كانت مدينة يثرب، من حيث سمعتها وموقعها الديني والاقتصادي.

ويثرب مدينة قديمة، عرفت من خلال الكتابات المعينية، وفيها أقامت قوادم من جاليات من معين، وخضعت للدولة المعينية، ثم آل أمرها وخضعت للدولة السبئية، لأنه في ذلك الوقت كانت معين وسبأ تتنازعان نفوذهما على المناطق العربية الشمالية كما جاء ذكر يثرب في جغرافيا بطليموس، كما ذكرها استيفانوس البيزنطي بإسم «lathrippapolis»[3] .

ويقول المسعودي بأن أول من نزل هذه المدينة وسميت باسمه هو: يثرب بن قانية بن مهلائيل بن إرم بن عبيل بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وقد وفد إليها وسكن فيها بعد تفرق ذرية نوح»[4] .

---

(١) الواقدي ـ مغازي رسول الله ص ٣٣٩.
(٢) سالم ـ ص ٢٧٤ .
(٣) جواد علي ـ ج ٣ ص ٣٩٥ .
(٤) المسعودي ـ مروج الذهب ج ٢ ص ١٤٨.

وكان الرسول محمد (ص) قد نهى عن تسمية يثرب بيثرب، وسماها «طيبة وطابة كراهية للتثريب[1]»[2]. أما البلاذري فذكر بأنها «سميت يثرب نسبة إلى رئيس للعماليق الذين نزلوها»[3]. وقد ورد اسم يثرب في القرآن الكريم على لسان المنافقين في الآية الكريمة: **﴿وإذا قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا. . .﴾**[4].

واسم يثرب كان يطلق على المدينة قبل ظهور الإسلام، وتحديداً بعد الهجرة النبوية. ويقال: «بأن اسم المدينة مأخوذ من لفظة مدينتا «medinta» الآرامية. ومعناها: الحمى أو المدينة. كما ان بعض اليهود الذين نزلوا بيثرب دعوها مدينتا»[5].

ويذكر الاخباريون بأنه كان لمدينة يثرب بعد الهجرة حوالي ٢٩ اسماً هي: «المدينة، طيبة، طابة، المسكينة، العذراء، الجابرة، المحببة، المحبورة، يثرب، الناجية، الموفية، أكالة البلدان، المحفوفة، المسلمة، المجنة، القدسية، العاصمة، المرتزقة، الشافية الخيرة، المحبوبة، المرحوقه، جابرة، المختارة، المحرقة، القاصمة، وطبابا»[6] بينما زاد عليها أحمد

(١) التثريب ـ الإفساد.

(٢) ياقوت ـ معجم البلدان ـ مادة يثرب مجلد ٥ ص ٤٣٠.

(٣) البلاذري ـ أنساب الأشراف ـ ص ٦.

(٤) الأحزاب ـ ١٣.

(٥) عبد العزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربية ـ ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

(٦) ياقوت ـ معجم البلدان ـ مجلد ٥ ص ٨٣.

ابن الحميد العباسي أسماء عدة: البحره، البارة، تندر، الحسيبة، دار اوبرار، حسنة، دار اوخبار، دار الإيمان، او السنة، دار الهجرة، المختارة، غلبة، قبلة الإسلام، الحفوظة، مدخل صدق، والمقدسة»[١]. بينما عند السمهودي بلغ عدد أسماء يثرب ٩٤ اسماً[٢] وأبن زبالة ذكرها بأحد عشر اسماً هي؛ المدينة، طيبة، طابة، المسكينه، جابرة، المجبورة، المرحومة، العذراء، المحبة، المحبوبة، وقاصمة،[٣]. وهناك اسم عرفت به بحكم طبيعتها وموقعها الجغرافي بين حرَّتي وأقم ووبرة ، فقيل عنها ذات الحرار أو ذات الأحرين[٤]. ويوجد في يثرب (المدينة) حرات ثلاث هي: حرة واقم في الشرق، وحرة الوبرة في الغرب وحرة قباء في الجنوب. ويجاورها أيضاً ثلاث حرات هي؛ شوران وليلى والنار[٥].

كان يصيب اهالي يثرب الوباء الشديد، لأنها «أوبأ أرض الله من الحمى» حسب ما ذكره ابن إسحق عن النبي (ص). ومناخ يثرب كان معتدلاً بوجه عام، وتزرع فيها الحبوب على أنواعها لخصوبة تربتها. وتكثر فيها« . أشجار النخيل والليمون والبطيخ والخضروات»[٦]. وقيل إنَّ العماليق أول من نزل المدينة

(١) عمدة الأخبار ـ ص ٤١.
(٢) السمهودي ـ ص ١٩.
(٣) ابن زبالة ـ الدرة الثمينة ـ ص ٣٢٣.
(٤) السمهودي ـ ج ١ ـ ص.
(٥) ياقوت ـ معجم البلدان ـ مجلد ٢ ص ٢٤٧.
(٦) أحمد الشريف ـ مكة والمدينة ـ ص ٣٥٦.

وزرعوا فيها الزرع والنخيل، وبنوا الدور والآطام[١]. ويروي السمهودي بأن موسى بن عمران بعث جماعة إلى العماليق، «فقاتلوهم حتى قتلوهم. وكان هذا أول سكنى اليهود بالحجاز ويثرب»[٢]. وهذا يأتي تفسيراً لما وجدوا في التوراة من صفة النبي محمد (ص) «الذي يهاجر وينزل في بلد بين حرتين وفيها نخل، فعرفوها فنزلوا فيها»[٣]. وذكر البعض بأن «الرومان قاموا بحملات على فلسطين في القدس وطردوهم منها وهدم معبدهم الأمبراطور الروماني طيطس سنة ٧٠م.، ففرت جموع كثيرة منهم إلى جزيرة العرب، واستوطنوا في يثرب ببلاد الحجاز»[٤] وذكر آخرون بأن يثرب كانت قد سكنتها قبائل يهودية قديمة، نزحت إليها في عهود سابقة. وأهم هذه القبائل: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع.

لذلك فمجتمع سنة ٧٠ م. كان يتألف من اليهود القدامى الذين تغلبوا على عماليق يثرب[٥] ومن اليهود الجدد الذين اتخذوا من بلاد العرب دار هجرة أمام اضطهاد الرومان لهم[٦]. ولأجل حماية أنفسهم وحماية النساء والأطفال من احتمال

---

(١) ياقوت ـ معجم البلدان ـ مجلد ٥ ص ٨٤.

(٢) السمهودي ـ ج ١ ص ١١٢.

(٣) ياقوت. معجم البلدان ـ ص ٨٤.

(٤) جواد علي، ج ٤ ص ٨٤.

(٥) محمد جمال الدين سرو ـ قيام الدولة العربية الإسلامية ص ٤٣.

(٦) محمد أحمد برانق ـ ص ١٩.

غزوات تشن ضدهم أو تستهدف وجودهم، لجأوا إلى تحصين مناطقهم وأماكن تواجدهم، فبنوا الحصون والآطام، يحتمون بها لتجنب خطر الغارات، عندما يخرج رجالهم إلى خوض المعارك والقتال، وقد بلغ عدد الآطام تسعة وخمسين أطماً[١].

وكان لبناء هذه الآطام هدف آخر، هوخوف اليهود من أطماع العرب الذين يسكنون من حولهم في الصحراء، وخصوصاً بعد نزول الأوس والخزرج، وتطلعهم إلى السيادة والغلبة[٢].

وقد عقد الأوس والخزرج حلفاً مع اليهود يأمن بعضهم من بعض «فتعاقدوا وتحالفوا واشتركوا وتعاملوا» وقد رحب اليهود بهذا العقد، «لضمان سيادتهم على يثرب، ولدعم ردعهم لأي غزو خارجي»[٣].

وبعد تطور من الزمان، كان الاوس والخزرج قد نالوا من المال والعدد الكثير. فأثار ذلك خوف القبائل اليهودية، فبادروا إلى نقض الحلف، واستبدوا بسلطانهم وسيطرتهم على العرب. فأثار ذلك حفيظة العرب وأبوا أن يستبد بهم أغراب عن منطقتهم وأرضهم، فتزعم حركة التمرد والاحتجاج والمقاومة مالك بن العجلان لوضع حد لصلف اليهود وتماديهم في تعاملهم مع العرب. فعمد إلى اغتيال زعيم يهودي يقال له الفطيون. وهرب

(١) السمهودي ـ ج ١ ص ١١٦.

(٢) عبد العزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربية ـ ٢٨٧.

(٣) السمهودي ج ١ ـ ص ٣٣٦.

مالك والتجأ إلى ملوك غسان لنصرته[١]. ولم يتردد الملك الغساني، فسير حشداً من قومه إلى يثرب لنصرة الاوس والخزرج. وأعد لليهود مكيدة، فصنع لهم طعاماً، واجتمع رؤساؤهم فوثب عليهم وقتلهم جميعاً، فانتشرت الاوس والخزرج في يثرب ومحيطها، وابتنوا الحصون والآطام، وبنوا مائة وسبعة وعشرين أطماً[٢].

ولم يلبث الاتفاق بين الاوس والخزرج ان يتعزز، حتى بدأت الخلافات والصراعات فيما بينهم، ونشبت حروب بينهما استمرت حتى قبيل الهجرة النبوية[٣]. وهذه الحروب فتحت الأبواب للمستفيدين والمنتقمين، فتحالف فريق من العرب على الآخر بالاستعانة باليهود. ولا يستبعد ان تكون لليهود يدٌ في إذكاء نار الفتنة للقضاء وعلى وحدة القبيلتين، وذلك بغية استعادة سيطرتهم وسيادتهم على يثرب؛ ثم إن هناك أسباباً اقتصادية وسياسية لهذا النزاع. فالسبب الإقتصادي هو توافر المياه والنخيل. والسبب السياسي، يعود إلى التنافس على الزعامة والرئاسة في يثرب، إذا لم يقبل أحد الطرفين بتباهيه بزعامته على الآخر[٤].

وكانت النتيجة لهذا النزاع خسائر فادحة لحقت بالطرفين

---

(١) ابن حزم ـ جمهرة آتاب العرب ص ٣٣٦.
(٢) السمهودي ـ ج ١ ص ١٢٧.
(٣) سالم ـ ص ٢٩٣.
(٤) سالم ـ ص ٢٩٥.

وأضعفت قدرتهما، ولم يتفقا إلا بعد ظهور الرسول العربي الذي وحد القبائل وجمع كلمتها.

ويثرب في خلاصة الأمر، كانت تجمعاً لليهود بعد طردهم للعماليق منها، واحتك اليهود في يثرب بجميع سكان المناطق المحيطة، ونشروا تعاليمهم وأفكارهم الدينية، وبنوا لهم مقامات شكلت مراجع لأهل المشورة والرأي، كما شكلت مكاناً لنشر الدعوات الدينية وبث حضارتهم.

ومما لا شك فيه ان الذين عايشوا اليهود خلال هذه الفترة، تأثروا بأفكارهم ودعواتهم الجديدة بهذا الحد أو ذاك. وقد أنشأ اليهود في يثرب بيتاً عرف باسم: «بيت المدارس». وكان يجلس فيه «علماؤهم وأحبارهم وربانيوهم، يتدارسون التوراة، ويفصلون فيما شجر بينهم»[١].

(١) سالم ـ ص ٢٨٦.



إرهاصات تمهيدية لبدء الدعوة

مما لاشك فيه، أن موضوع ظهور نبي ينقذ الأمة وينتشلها من تشرذمها، ويصنع لها الوحدة، كانت منتشرة بشكل واسع، وبين أوساط عديدة، وخصوصاً الدينية منها. وتناقلت الألسن بين جميع السكان ضرورة إيجاد مخرج لواقع شبه الجزيرة العربية، وانتقالها إلى أوضاع أفضل، تعزز من الوحدة والمنعة وجمع الكلمة. فكان ما أوردته الأخبار عن نسطور الراهب الذي رأى النبوءة وشاهدها في محمد (ص) في صومعته عندما كان في تجارة لخديجة إلى الشام، وقد أظلته غمامة فقال الراهب: هذا نبي وهذا آخر الأنبياء، كما وجد علماء اليهود والأحبار صفة النبي في التوراة، وكذلك ما ورد في الإنجيل وما قاله عيسى عليه السلام، والذي بشر بأنه سوف يأتي من بعدي نبي اسمه أحمد.

ومن الممهدات الأخرى التي ساعدت على ظهور الإسلام، هو انتصار العرب (عرب الحيرة) على الفرس في موقعة ذي قار الشهيرة سنة ٦٠٩م. ، والذي انتشر خبره في جميع الديار العربية، مما حرَّك في نفوسهم الثورة والتمرد، ثم العمل على التخلص من حكم الغرباء؛ كما برز في داخلهم شعور بالتوحد والتجمع، لأنه كان أول انتصار للعرب على العجم، وهذه الموقعة الشهيرة وصفها النبي محمد (ص) بالقول: «هذا أول يوم انتصفت العرب فيه من العجم وبي نصروا»[١].

ومن الممهدات الأخرى، والضرورات التي برزت، هي الشعور بتوحيد رأي العرب على دين واحد وإله واحد، ذلك لأن حركة الجدل بلغت أوجها، وبدأ التذمر من الأصنام، وتداخل الدعوات الدينية من يهودية ومسيحية بين أذهان الناس، مما خلق جواً قابلاً وقائلاً بضرورة الخروج من المراوحة، وإيجاد البدائل الملائمة للاجتماع على دين واحد وعقيدة واحدة. ولذلك انتشر في حينه البحث عن خيارات، ومال كثيرون إلى التخلي عن الأصنام، وكثيرون من القبائل مالوا إلى توحيد عبادتهم لصنم واحد، بعد ان كانوا يعبدون مجموعة من الأصنام دفعة واحدة.

ثم إن الآفاق الثقافية للعرب، وتعرفهم كما ذكرنا سابقاً على الديانتين اليهودية والنصرانية من خلال احتكاكهم بهما. قد ساعدت في ذلك، حيث أخذت الديانات الوثنية القديمة تتداعى وتنهار أزاء هاتين الديانتين السماويتين.

---

(١) المسعودي - مروج الذهب - ج ١ ص ٢٧٨ - ابن الأثير ج ١ ص ٢٨٥.

يضاف إلى ذلك بروز وظهور جماعة من المتحنفين الذين أخذوا بزرع الشكوك بين الناس، وتسفيه عبادة الأوثان، والدعوة إلى عبادة الخالق الواحد، خالق السماوات والأرض.

بالإضافة إلى تلك المقدمات، لابد من الإشارة إلى عامل التجارة، وما كان له من أثر كبير، وأهمية بالغة في اختلاط العرب بالثقافات الأخرى والاطلاع عليها، ومدى اهمية الأسواق التي كانت منتشرة في ذلك الزمان، فعدا عن كونها أسواقاً تجارية، فقد كانت أو تحولت إلى مناسبة يتبادل فيها العرب مع الآخرين كل أشكال التعرف على أدبياتهم وأديانهم وطرائقهم الاجتماعية وأوضاعهم الاقتصادية والمعيشية في وقت واحد، كما كانت هذه الأسواق فرصة للتبادل الثقافي والاجتماعي والديني، والذي دفع العرب إلى الإحساس بضرورة إيجاد مخرج لتفتتهم والعمل على توحيد جهودهم.

لذلك نخلص إلى القول بأن العرب بوجه عام، كانوا مهيئين لإعلان هذه الدعوة وتقبلها دونما وازع، ومتأهبين للقيام بعمل يجمعهم ويوحدهم. فشاءت الظروف الذاتية والموضوعية أن يظهر محمد العربي، ليعلن هذه الدعوة التي أخذت طابعاً دينياً في البداية، ثم لتتحول فيما بعد إلى ثورة عارمة غيرت كل الأوضاع، وغيرت وجه التاريخ العربي، وأطلقت العنان لوحدة العرب بهذا الشمول، حتى شملت أوسع بقعة جغرافية على الكون في أغزر مرحلة من بناء الدولة العربية الإسلامية، والتي عرفت أوج مجدها وعزها خلال مرحلة خلافة الخلفاء الراشدين.



ظهور محمد
وتوحيد العرب

في ظل هذا الوضع الجاهلي المتأخر، وفي ظل هذا التشرذم والتشتت والترحال لسكان قبائل الجزيرة العربية، وفي ظل بروز وانتشار الدعوات الطائفية لليهود والنصارى والمجوس وغيرهم، وفي ظل التفاعل الحضاري والتجاري والاجتماعي بين سكان الجزيرة والتجار الوافدين إليها، وفي ظل الحاجة إلى حركة خارقة تجمع القبائل وتوحدهم، وفي ظل البحث عن سبيل للخروج من هذا الواقع الاجتماعي والاقتصادي والفكري الخطير، في تلك الصحراء من الجزيرة العربية بمدينة مكة، ولد صاحب الدعوة الدينية الإسلامية وصاحب الرسالة التي غيرت خارطة العرب، وتجاوزت الحدود العربية لتصل لاحقاً إلى آسيا وافريقيا وأوروبا في أعظم امبراطورية أسسها العرب والإسلام في

تاريخهم، وفي تاريخ تلك الحقبة من الزمان، والتي مازالت أصداؤها وتأثيراتها تتفاعل إلى اليوم.

إذاً، ظهر محمد بن عبد الله ، من صحراء العرب ليعلن دعوته الإسلامية، وبدء صفحة جديدة في تاريخ العرب وإطلاق العنان لحضارة جديدة قلبت كل المعايير والمقاييس، واهتزت لها شعوب الأرض وحضاراتها. وشكلت نقلة هائلة في حياة العرب من البداوة وبيوت الشعر، إلى صناعة الوحدة لقبائل متفرقة لم تعرف إلا التنافس والعداوات، وصناعة حضارة ما زالت أصداؤها مثار جدل إلى اليوم.

من هنا، لا بد لنا أولاً أن نعرف ونسأل: من هو محمد؟. إن صاحب الدعوة هو «أبو القاسم محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة»[1]. بينما يذهب المسعودي في نسبه الشريف منذ آدم فيقول؛ «هو محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن نهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدد بن ناخور بن سود بن يعرب بن يشجب بن نابت بن اسماعيل بن ابراهيم بن تارح، وهو آزر بن ناخور بن ساروخ بن ارعواء بن فالغ بن عابر بن شالخ بن إفخشذ بن سام بن نوح بن لمك بن متوشلح بن أخنوخ بن يرد بن مهلاييل بن قينان بن

(١) سالم - ص ٣٠٩.

أنوش بن شيث بن آدم»[1]. وكذلك ورد في نسخة ابن هشام في كتاب السيرة النبوية.

وقد عرف أيضاً بأنه هو محمد بن عبدالله بن عبد المطلب. وهو الذبيح الثاني المفدى بمائة من الإبل، وهو من سلالة اسماعيل وإبراهيم الخليل.[2]

وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة القرشية الزهرية.[3]

وكانت للنبي عليه السلام أسماء عديدة هي: محمد، وأحمد، والماحي الذي يمحو الله به الذنوب، والعاقب والحاشر الذي يحشر (الله) الناس.[4]

كان والده عبد الله أجمل رجال قريش. وإخوانه: الحارث والزبير وحمزة وضرار وأبو طالب ـ اسمه عبد مناف ـ وأبو لهب ـ واسمه عبد العزى ـ والمقوم ـ واسمه عبد الكعبة ـ وحجل ـ واسمه المغيرة ـ والغيداق، وهو كبير الجود ـ واسمه نوفل ـ ويقال إنه حجل. فهؤلاء جميعهم أعمامه.[5]

وعماته ست وهن: أروى، وبرة، وأميمة، وصفية، وعاتكة، وأم حكيم (وهي البيضاء). وكلهم أولاد عبد المطلب،

---

(١) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج٢ ص٢٧٢ .

(٢) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج ٢ ص ٢٠١.

(٣) ابن هشام ـ السيرة النبوية ـ القسم الأول ص ١٥٦.

(٤) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج ٢ ص ٢٧٤.

(٥) المصدر السابق ـ ص ٢٠١ (ابن كثير).

واسمه شيبة، ويقال لشيبة في رأسه[١].

وعبد المطلب هو الذي جدد حفر بئر زمزم بعدما كانت مطمورة من عهد جرهم، وطلى الكعبة بذهب ـ ومات المطلب ـ وكان يقال له القمر لحسنه.

تزوج عبد الله آمنة بنت وهب، فحين دخل بها وأفضى إليها، حملت برسول الله (ص). وكانت أم قتال، رقيقة بنت نوفل أخت ورقة بن نوفل، توسمت قبل أن يجامع آمنة، من النور بين عينيه، فودت أن يكون ذلك متصلاً بها... فعرضت نفسها عليه... ولما انتقل ذلك النور الباهر إلى آمنة... كأنه تندَّم على ما كانت عرضت عليه. فتعرض لها لتعاوده، فقالت: لا حاجة لي فيك، وتأسفت... وأنشدت الشعر الفصيح البليغ.[٢] ومنه:

عليك بآل زهرة حيث كانوا   وآمنة التي حملت غلاما
ترى المهدي حين نزا عليها   ونوراً قد تقدمه إماما[٣]

ولد النبي محمد(ص) في مكة عام الفيل، وكان بين عام الفيل وعام الفجار عشرون سنة. والفجار، حرب كانت بين قيس عيلان وبني كنانه.[٤] بينما ذكر آخرون ان مولده كان بعد وقعة

(١) المصدر السابق ـ ص ٢٠١.

(٢) المصدر السابق ـ ص ٢٠٩.

(٣) المصدر السابق ـ ص ١٩٩.

(٤) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج ٢ ص ٢٧٥.

الفيل بخمسين يوماً في ليلة العاشر من ربيع الأول[1]. بينما قال ابن هشام، يوم الإثنين الثاني من شهر ربيع الأول[2].

وكان قد توفي عبد الله، وزوجته آمنة حامل بالنبي، وتوفي بالمدينة عند أخواله بني النجار، عندما كان في تجارة هناك، وقد توفي بسبب المرض عن عمر ٢٥ سنة وقيل ٢٨ سنة[3].

بعد وفاة عبد الله، وولادة محمد، قالت أمه آمنة بنت وهب: «فلما فصل مني خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق إلى المغرب. ثم وقع إلى الأرض معتمداً على يديه، ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها ورفع رأسه إلى السماء. وقال بعضهم وقع جاثياً على ركبتيه. وخرج معه نور أضاءت له قصور الشام وأسواقها، حتى رؤيت أعناق الإبل ببصرى...»[4]. وذكر القاضي عياض: «ان قابلته أم عبد الرحمن بن عوف... حين سقط على يديها سمعت قائلاً يقول يرحمك الله، وأنه سطع منه نور رؤيت منه قصور الروم»[5].

وذكر محمد بن اسحق عن وعن عائشة قالت: «كان يهودي قد سكن مكة يتّجر بها، فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله (ص) قال في مجلس من قريش: يا معشر قريش، هل ولد فيكم

(١) ابن سعد ـ الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٠٠.
(٢) ابن هشام ـ السيرة ـ ج ١ ص ١٥٨.
(٣) سالم ـ ص ٣١٠.
(٤) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج ٢ ص ٢١٠.
(٥) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج ٢ ص ٢١٠.

الليلة مولود؟ فقال القوم والله ما نعلمه. فقال: الله أكبر، أما إذا أخطأكم فلا بأس. انظروا واحفظوا ما أقول لكم: ولد هذه الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة، بين كتفيه علامة فيها شعرات متواترات كأنهن عرف فرس. لا يرضع ليلتين، وذلك أن عفريتاً من الجن أدخل إصبعه في فمه، فمنعه من الرضاع، فتصدع القوم من مجلسهم وهم يتعجبون من قوله وحديثه. فلما صاروا إلى منازلهم، أخبر كل إنسان منهم أهله. فقالوا قد والله ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلاماً سموه محمداً. فالتقى القوم، فقالوا: هل سمعتم حديث اليهودي، وهل بلغكم مولد هذا الغلام؟ فانطلقوا حتى جاؤوا اليهودي، فأخبروه الخبر. قال: فاذهبوا معي حتى أنظر إليه. فخرجوا حتى أدخلوه على آمنة. فقالوا: أخرجي إلينا ابنك. فأخرجته وكشفوا له عن ظهره فرأى تلك الشامة، فوقع اليهودي مغشياً عليه. فلما أفاق قالوا له، مالك ويلك؟ قال: «قد ذهبت والله النبوة من بني إسرائيل. فرحتم بها يا معشر قريش، والله ليسطون بكم سطوة يخرج خبرها من المشرق والمغرب...»[1]

مما لاشك فيه أن هذه رواية غريبة تدفع إلى التساؤل كيف يمكن لليهودي أن يعرف أموراً عجيبة كهذه. ويعرف أن هناك شامة على رقبة النبي قبل ولادته؟ وكيف يطرق الحدس بابه ليلة مولده؟ ألا يمكن أن يكون هذا اليهودي نبياً يوحى إليه حتى يعرف من أمور الله هذه المعجزات؟!!

---

(١) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ص ٢١٢ ـ ٢١٣.

وفي رواية أخرى، روى الحافظ عن لسان أبي مالك بن سنان، أنه سمع يوشع اليهودي يقول: «أظل خروج نبي يقال له أحمد يخرج من الحرم... رجل ليس بالقصير ولا بالطويل، في عينيه حمرة، يلبس الشملة، ويركب الحمار، سيفه على عاتقه، وهذا البلد مهاجره...»[1]. وهذا مشهد آخر على أن اليهودي يبلغ أهل قريش صفات نبي آت، لا يعلمه أحد سوى الله. فكيف عرف هذا اليهودي هذه المواصفات والمعلومات، إلا إذا كان يوحى له، أو يعتمد على ما كان قد شاع وانتشر وبشرت به التوراة والإنجيل من مجيء مخلص للبشر؟!! وإذا اعتمد على ما بشر به التوراة والإنجيل من حدوث هذا الأمر، إنما تبقى القضية في إعطاء تفاصيل عن النبي المولود، وتحديد يوم ولادته، وبعض الملاحظات والدلائل في جسده، مما يثير الشك في مصدر استسقاء هذه المعلومات!!

وقال الحافظ أبو بكر بن سهل الخرائطي في كتاب هواتف الجان: «...لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله (ص). إرتجّ إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغاضت بحيرة ساوة، ورأى الموبذان إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً قد قطعت دجلة...»[2]

وفي موضع آخر، ذكر إبن عباس، أن سطيحاً (هو الربيع

(١) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج ٢ ص ٢١٢ ـ ٢١٣.
(٢) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ ج ٢ ص ٢١٣.

بن ربيعة بن مازن بن الأزد) قدم مكة، فتلقاه عبد شمس وعبد مناف ابنا قصي، فامتحنوه، فسألوه عما يكون آخر الزمان. فقال خذوا مني ومن إلهام الله: «. . .أنتم الآن يامعشر العرب في زمان الهرم، سواء بصائركم وبصائر العجم، ولا علم عندكم ولا فهم، وينشأ من عقبكم ذوو فهم، يطلبون انواع العلم فيكسرون الصنم، ويتبعون الردم، ويقتلون العجم ويطلبون الغنم. . .» ثم عاد وقال: «. . .والباقي الأبد، والبالغ الأمد، ليخرجن من ذا البلد، نبي مهتد، يهدي إلى الرشد، يرفض يغوث والفند، يبرأ عن عبادة الضدد، يعبد رباً انفرد، ثم يتوفاه الله بخير دار محموداً، من الأرض مفقوداً، وفي السماء مشهوداً، ثم يلي أمره الصديق إذا قضى صدق، وفي رد الحقوق لا خرق، ولا نزق (سَفَه)، ثم يلي أمره الحنيف، مجرب غطريف (السيد الشريف)، قد أضاف المضيف، وأحكم التحنيف. . . ثم ذكر عثمان ومقتله وما يكون بعد ذلك من أيام بني أمية، ثم بني العباس، وما بعد ذلك من الفتن والملاحم. . .»[1] ساقه كذلك ابن عساكر.

وروى الحافظ بن عساكر، أن النبي (ص) سئل يوماً عن سطيح فقال: «نبي ضيعة قومه»[2]. وقيل إن سطيح هذا، قضى بعد مولد رسول الله (ص) بشهر أو شية (أي أقل منه) وكانت وفاته بأطراف الشام. وقيل إنه عاش ٧٠٠ سنة (ابن ضرار الحريري) وقال غيره ٥٠٠ سنة، وقيل ٣٠٠ سنة. . والله أعلم

---

(١) ابن كثير ـ المصدر نفسه ص ٢١٥

(٢) المصدر السابق ص ٢١٦.

وذكرت الأخبار لأكثر من قلم أنه: «ذات يوم خرجت به أمه إلى المدينة، ومعها أم أيمن وله آنذاك ست سنين. فقالت أم أيمن: «. . . جاءني ذات يوم رجلان من يهود المدينة فقالا: أخرجي إلينا أحمد ننظر إليه. فنظرا إليه وقلباه، فقال أحدهما لصاحبه: هذا نبي هذه الأمة، وهذه دار هجرته، وسيكون بها من القتل والسبي أمر عظيم«[١]

وفي ولادته ذكر عن العباس بن عبد المطلب أنه قال: « . . ولد رسول الله (ص) مختوناً مسروراً»[٢].

وروى الحافظ بن عساكر قال: قال رسول الله (ص): «من كرامتي على الله، أني ولدت مختوناً، ولم ير سوأتي أحد»[٣].

وذهب كثيرون في استقصاء العديد من الروايات والأحداث للتدليل على نبوة محمد قبل ولادته. ومن دلالات نبوة محمد (ص) قبل ولادته ما جاء في الآية الكريمة: ﴿. . . **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل . .**﴾[٤] وكذلك ما بشر به عيسى كما ذكرنا سابقاً، بأن نبياً اسمه أحمد، سيأتي من بعده، مصدق لما معه وما قبله. . . إذ قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿**وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم، مصدقاً لما بين يديّ من التوراة،**

(١) المصدر السابق ـ ص ٢٢٢.
(٢) المصدر السابق ـ ص ٢١٠.
(٣) المصدر السابق ص ٢١١.
(٤) الأعراف ـ ١٥٧.

ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾[1].

وفي رواية غريبة، رواها الحاكم في مستدركه عن وعن عمر بن الخطاب قال، قال رسول الله (ص)؛ «لما اقترف آدم الخطيئة، قال: يا رب أسألك بحق محمد ألا غفرت لي. فقال الله: يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقه بعد؟. فقال: يارب لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيَّ من روحك، رفعت رأسي، فرأيت على قوائم العرش مكتوباً: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. فعلمت أنك لم تضف إلى إسمك إلا أحب الخلق إليك. فقال الله: صدقت... فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك..»[2] وفي هذه الرواية ما يثير العجب والإستغراب. إذ هل يعقل أن ذكاء آدم يفاجىء الله: وكيف لا يعرف الله أن آدم له علم بمحمد إلا من القائمة المعلقة على العرش؟ ثم كيف يتعجب الله من سؤال آدم عن محمد، وكيف لا يتوقع سؤالاً كهذا، ثم كيف لا يكون الجواب والسؤال من أمره تعالى على آدم؟ فهو خلقه، وهو يديره، وهو الذي يعلمه الأسماء كلها ويعلم مافي الصدور.

وذكر بعض الإخباريين أن عيسى عليه السلام، قام خطيباً ذات يوم في بني إسرائيل قائلاً: «إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد»... وفي الإنجيل وردت البشارة بالفارقليط، والمراد منه

---

(١) آل عمران - ٥٠.

(٢) ابن كثير - ج ٢ ص ٢٥٦.

محمد(ص). وعندما عرف القوم بأنه سيأتي نبي جديد اسمه أحمد، يكون خاتم النبيين، عمد كل واحد منهم طمعاً أن يسمى ولده محمداً، لعله ينال البركة ويكون هو النبي المبشر به!!! فيما أن اسم محمد لم يكن متداولاً إلا قبل ولادة النبي بفترة وجيزة. إذ كان لا يوجد أكثر من عشرة أشخاص اسمهم محمد.

وفي رواية عن عمر بن الخطاب أنه قال: «كنا يوماً في حي من قريش يقال لهم آل ذريح، وقد ذبحوا عجلاً لهم والجزار يعالجه، إذ سمعنا صوتاً من جوف العجل - ولا نرى شيئاً؛ قال يا أبا ذريح: أمر نجيح، صائح يصيح، بلسان فصيح، يشهد أن لا إله إلا الله»[1]. رواه البخاري.

وفي كتاب عيسى ورد في الإنجيل: «إني مرتق إلى جنات العلى، ومرسل إليكم الفارقليط (محمد) روح الحق يعلمكم كل شيء؟».

وورد في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**والتين والزيتون، وطور سينين، وهذ البلد الأمين**﴾[2]. والمراد هنا بالتين والزيتون، محلة بيت المقدس حيث كان عيسى عليه السلام. وطور سينين، هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى. أما هذا البلد الأمين، فهو البلد الذي انبعث منه محمد(ص)[3].

وفي نسبه جاء في صحيح مسلم أن رسول الله (ص) قال:

(١) المصدر السابق - ص ٢٦٦.

(٢) التين - ١- ٢- ٣.

(٣) المصدر السابق - ج ٢ ص ١٣٧ (ابن كثير).

«إن الله اصطفى من ولد ابراهيم، إسماعيل. واصطفى من بني اسماعيل بني كنانه. واصطفى من بني كنانه، قريشاً. واصطفى من قريش بني هاشم. واصطفاني من بني هاشم»[١].

وعن العباس قال: «بلغ النبي بعض ما يقوله الناس، فصعد المنبر فقال: «من أنا؟ قالوا: أنت رسول الله. قال: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم فرقتين، فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتاً، فجعلني في خيرهم بيتاً. فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً»[٢].

وهنا عرض في المفاخرة في النسب والأصول، والعودة إلى تأكيد ما كان يعتقده العرب من العصبية وصلة الدم، التي أتينا على ذكرها في المتن. في وقت ان الله خلق جميع الناس سواسية ومن أصل واحد، من آدام وحواء. ولا خير في أحد على أحد إلا بالتقوى والعلم والإيمان.

وكانت المفاخرة في نسب الرسول (ص) لا تخرج عن المفاهيم والخصائص الفكرية والمعتقدات السائدة لأهل الجزيرة العربية، فعن عائشة، رضي الله عنها قالت: قال رسول الله (ص): «قال لي جبريل: قلَّبت الأرض من مشارقها ومغاربها، فلم أجد رجلاً أفضل من محمد. وقلَّبت الأرض مشارقها

---

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٢٠٤.

(٢) المصدر السابق - ج ٢ ص ٢٠٤.

ومغاربها فلم أجد بني أب أفضل من بني هاشم»[1]. قاله الحافظ والبيهقي.

وفي رواية أخرى، أن رسول الله (ص) قال وهو على المنبر، بعد ما بلغه أن رجالاً من كندة يزعمون أنهم منه، وأنه منهم. فقال: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مض بن نزار، وما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرها، فأخرجت من بين أبوي، فلم يصبني شيء من عهر الجاهلية، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم، حتى انتهيت إلى أبي وأمي، فأنا خيركم نفساً، وخيركم أباً»[2].

وعن أبي هريرة قال، إنَّ رسول الله (ص) قال: «بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه»[3].

والخلاصة أن محمداً (ص) قد ولد، وولد الأمل معه لجميع سكان شبه الجزيرة العربية. وصار محمد (ص) حقيقة، ومولوداً جديداً ولدت معه أمة جديدة، دخلت عصراً جديداً، وقلبت الأوضاع رأساً على عقب.

---

(١) ابن كثير، المصدر السابق ـ ج ٢ ص ٢٠٥.

(٢) المصدر نفسه ـ ج ٢ ص ٢٠٤.

(٣) المصدر نفسه ـ ج ٢ ص ٢٠٤.



طفولة محمد

ولد محمد (ص) ولم يكن أبوه على قيد الحياة، حينما فتح عينيه على الدنيا. وعند ولادته، التمسوا له المراضع، وأرادت أمه أن يترعرع ويتربى على عادة أشراف مكة. فطلبت له المرضعات فأعرضن عنه، باعتباره يتيماً لا يرتجى منه شيئاً. وبعد أناة وصبر، قبلت مرضعته الأولى لعدة أيام ثويبة مولاة أبي لهب[1]. ثم عادت وأرضعته إمرأة من بني سعد بن بكر بن هوازن بن منصور يقال لها: حليمة بنت أبي ذؤيب[2]. بينما ذكر المسعودي بأن محمدًا (ص) دفع في السنة الأولى إلى مرضعته

(١) ابن هشام ـ السير ـ ج ١ ص ١٦٨.

(٢) المصدر نفسه ص ١٦٠.

حليمة بنت عبد الله بن الحارث[1]. ويقال لها حليمة السعدية، كانت قد «أعرضت عن محمد أول الأمر، وكانت على جانب من ضعف الحال.. ولما أجمع القوم على الانطلاق عن مكة، قالت حليمة لزوجها الحارث بن عبد العزَّى: والله إني لأكره أن أرجع مع صواحبي ولم آخذ رضيعاً... وأجابها زوجها: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. وأخذت حليمة محمداً وانطلقت به مع قومها إلى البادية...»[2]

ورحل محمد (ص) مع حليمة، وعاش في بني سعد إلى الخامسة من عمره[3] على عادة أهل البادية وأحوالهم. بينما ذهب آخرون إلى القول بأن محمداً (ص) أقام في الصحراء مدة سنتين من الزمان ترضعه حليمة، وتحضنه ابنتها الشَّماء[4]. وفي هذه السنة من عمره، شاءَت حليمة أن يكون فصاله (فطامه)، فذهبت به إلى أمه وعادت بصحبته إلى البادية. واللافت هنا، أنه كيف يمكن أن يبقى النبي (ص) في حضانة حليمة مدة سنتين، دون أن تراه أمه مرة واحدة. أما عن عودته إلى الصحراء بعد سنتين، فقيل لكي «يغلظ عوده وخوفاً عليه من وباء ضرب مكة»[5].
ومكث النبي (ص) مدة سنتين أخريين في البادية، يرتع مع

---

(١) المسعودي - مروج الذهب - ج ٢ ص ٢٨٠.
(٢) هيكل - حياة محمد - ص ١١٠.
(٣) سالم - ٣١٠.
(٤) هيكل - ص ١١٠.
(٥) هيكل - ص ١١٠.

الأطفال في أجواء طلقة بالحرية والهواء.

ولما بلغ النبي (ص) السنتين ونصف السنة، وقيل قبل أن يبلغ الثالثة بقليل، كان يلعب في البادية مع أخيه الطفل السعدي (ابن حليمة) خلف البيوت، فإذا برجلين يلبسان ثياباً بيضاء يتقدمان منه، فيأخذانه ويقلبانه، بما يشبه التفحص والكشف عليه، أو كأنهما يظنان به شيئاً غير عادي. وقد تناول هذه الرواية، أو هذه الحادثة عدد من الرواة والإخباريين، وجرى عليها تفسيرات عدة من الكتاب المحدثين.

وعن ابن عساكر عن وعن ثابت البناني عن أنس قال: «إن ملكين أتيا رسول الله (ص) فذهبا به إلى زمزم، فشقا بطنه فأخرجا حشوته في طشت من ذهب، فغسلاه بماء زمزم ثم لبَّسا جوفه حكمة وعلماً»[1].

بينما ذكر آخرون بأن قصة شق صدر أو بطن النبي (ص) أخبرها أخوه الطفل السعدي لأهله، عندما كان يلعب مع محمد (ص) وجرى مسرعاً يقول لأبيه وأمه: «ذلك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاه فشقا بطنه، فهما يسوطانه[2]»[3].

لم يأخذ أحد بهذه الرواية من كتب السيرة إلا القليل جداً. والمقتنع سلفاً بكل ما يراد من أخبار الماضي، والقابل بكل

(١) ابن كثير - ج ٢ ص ٢٢٠.

(٢) هيكل - ص ١١٠.

(٣) يسوطانه: أي يقلبانه.

حديث ورواية تتعلق بالرسول (ص) مهما كانت من الماضي.

ولا بد هنا من القول، بأنه من غير المعقول أن يكون طفل لم يتجاوز الثلاث سنوات، أن يكون طلق اللسان، وملماً بالحديث والرواية الجيدة في نقل الأخبار والصور والمشاهد. ثم كيف يعرف طفل في هذا العمر ويكون لديه معلومات عن تفاصيل ما يجتمع داخل الصدر والبطن من مكونات، ليشرحها لوالده وأمه، بعد أن شاهد الطفل مجريات ما جرى من تطورات بالدقة والتفصيل، ثم ليعود ويعرضها بكل هدوء لأهله؟ والأصح، أنه لمجرد أن يأخذ الرجلان أخاه محمداً (ص)، سوف يسرع مهرولاً من الخوف والرعب دونما أي تركيز لتفاصيل ومجريات الأمور.

وعلى ذلك يذهب المستشرق سير وليم هوير إلى القول بأن هذه القصة قد لا تبدو حقيقية أو مقنعة في الواقع، وبأن ما جرى له، «لا يعدو كونه نوبة عصبية أصابته»[(١)] . وكثيرون يتمسكون بهذه الحادثة للتدليل على الشأن الذي له ولنبوته المبكرة. فيما أعتقد أن الحاجة إلى دليل لأثبات شأن محمد (ص) ونبوته، وهو في عمر السنتين ونصف السنة، أمر سنده ضعيف. كما أن الأمر لا يحتاج إلى إثبات، إذ كل الأخبار والمعلومات فيما بعد، تشير إلى أن الله قد خلقه وخصَّه بالنبوة. والله هو الذي حدد ساعة ولادته ولحظة نزول الوحي، وإعلان نبوته، فلا حاجة إذاً إلى روايات للتأكيد على دلائل نبوة محمد (ص)، وخصوصاً أنه قد

---

(١) هيكل ـ ص ١١١.

حصل له الوحي وأعلن الدعوة في سن الأربعين، ثم أن الدلائل عن نبوته لم تأت أو تنتشر لحظة نزول الملاكين عليه ليشق بطنه. لأنه في هذه الحالة؛ يصبح ما جاء على لسان الراهب بحيرا، وما ذكره اليهودي لأهل قريش عن ولادة نبي يأخذ النبوة من بني إسرائيل، تصبح مقنعة أكثر من هذه الحادثة؛ وبأن استنتاجات أو بالأحرى تكهنات من هذا النوع، تصبح لغة وخطاباً من الله. وعندما تتشكل القناعة بهذه الروايات بأنها من الله، وقد سبقت حادثة شق البطن، تصبح عملية شق بطنه لا مبرر لها للتدليل على النبوة.

بينما يعتبر آخرون بأن ما جاء في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك، الذي أنقض ظهرك**﴾[1] هي بمنزله تأكيد للرواية التي حصلت للنبي (ص)، لكن عملية انشراح الصدر تختلف كثيراً عن عملية شقه. فعملية الشق هي فتحة والدخول إلى الجوف، بينما عملية الانشراح هنا، تعني تفتح القلب وانطلاق الصدر بما يختزن إلى الآفاق والتوقد والنور، وعملية الانشراح هذه، هي عملية ميل وشره للدخول في معرفة الأسرار، وإعلان للنبي (ص) كي يستعد لشيء جديد قادم سوف يتلقاه.

على أي حال، طالما أن النبوة حصلت في سن الأربعين فلا مبرر للعودة إلى هذه المسافة الطويلة من الزمن. لا داعي للعودة إلى الطفولة، خصوصاً أنه إذا كانت الحادثة صحيحة يجب

---

(١) الانشراح ـ ١ ـ ٣.

ان ينتج عنها الحكمة والعلم، حتى في مقتبل عمره. بينما كانت حياة محمد منذ الخامسة وحتى سن ٢٥ سنة، عادية يرعى الغنم والمواشي لأشراف قريش وأسيادها، ولم تحصل هناك أية أمور خارقة خلال هذه الفترة تستوجب التوقف عندها.

وذكر آخرون ومستشرقون غربيون على أن ما جرى لمحمد (ص) في طفولته وهو في عمر السنتين ونصف السنة، لم يكن سوى حالة عصبية ألمت به، وقد تكون نتيجة حالة صحية عانى منها، إذ أن حياة البادية وما يكتنفها من الفقر والقلة والظروف القاسية وسوء التغذية، جميعها تشكل ضعفاً ووهناً للجسم، ومن الطبيعي أن ينتج عنها عوارض صحية مثل الإغماء والدوخة وإرتفاع الحرارة والحمى وسواها.

بالنتيجة أن محمداً (ص) عاش في بني سعد في الصحراء حتى الخامسة من عمره، ثم عادت به حليمة إلى أمه آمنة، بعد أن تربى على عادة أهل البادية، وتعلم لغة العرب وعاداتهم، حتى قيل إن النبي كان يقول فيما بعد لأصحابه: «أنا أعربكم، أنا قرشيّ واستُرضعت في بني سعد بن بكر»[1]. والمعنى هنا أن محمدًا (ص) كان يفاخر في نَسَبه كما ذكرنا سابقاً، ويعتز بحياته في بني سعد، وفي رضاعته وكفالته لهذه القبيلة في كل مناسبة.

ومما لاشك فيه أن طفولة محمد في البادية، تركت في نفسه ذكريات حلوة وجميلة، كما تركت أثراً بالغاً لا يتخطى مغازي الطفولة، دون أي علاقة للعلم والمعرفة والثقافة. وقد

(١) هيكل - ص ١١٢.

تركت له هذه الحياة في البادية أحاسيس نحو أهلها، فكان لهم في نفسه كل محبة وتقدير، وهي عادة سائدة في مجتمعاتنا.

والخلاصة أن محمداً (ص) عاد إلى أمه. وذات يوم خرجت بإبنها لتريه وتطلعه على أخوال جده ويتعرف إليهم، وهم من بني النجار، ورافقتها أم أيمن جارية عبد الله والد الرسول (ص). ولما وصلت المدينة مرت بابنها إلى المكان الذي دفن به أبوه. ومكثت آمنة مع محمد (ص) مدة شهر بين أخواله، ثم عادت به، وأثناء الطريق شعرت آمنه بمرض خلال مرورها بالأبواء، فماتت ودفنت هناك.

وعاد محمد (ص) مع الحاضنة أم أيمن، التي حملته إلى جده عبد المطلب، حاملاً في نفسه اللوعة والألم، ومزوّداً بالحسرة والنحيب على وحدته، إذ وجد نفسه وحيداً بلا أب ولا أم. وزاد اليتم في نفسه ألماً وعذاباً، فذكره الله تعالى في الآية الكريمة: ﴿**ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى**﴾[(١)] وقد كان حينها يبلغ من العمر ست سنوات[(٢)].

عاش محمد في كنف جده عبد المطلب، وهو من أسياد قريش. فكان يؤثره على بنيه، ويشمله بالمحبة والعطف، ويدنيه ويقربه منه كثيراً، «ولا يقدم على تناول طعام، إلا إذا قدم النبي إليه»[(٣)].

---

(١) الضحى - ٦ - ٧.

(٢) سالم - ص ٣١٠.

(٣) ابن سعد ج ١ ص ١١٨ - ابن كثير - السيرة النبوية - ج ١ ص ٢٤.

لم يعمِّر عبد المطلب كثيراً، فمات في الثمانين من عمره[1] وقال آخرون في الثانية والثمانين من عمره، وقيل بين الثمانين والتسعين، فبكاه النبي وهو بعد ابن ثماني سنين خلف سريره، ودفن عبد المطلب بالحجون بمكة[2]. وحزن محمد (ص) على فقد جده عبد المطلب حزناً شديداً أثَّر في نفسه أشد الأثر، فكان دائم البكاء، حزيناً.

بعد موت جده عبد المطلب، كفله عمه أبو طالب، وكان فقير الحال، كثير العيال، وأصغر إخوته سنّاً. بينما كان الحارث أسنَّهم، والعباس أيسرهم. وبالرغم من شدة فقر أبو طالب فقد كان على فقره «أنبلهم وأكرمهم في قريش مكانة واحتراماً...»[3] وقيل إنَّ عبد المطلب أوصاه به بعد وفاته.

أحب أبو طالب ابن أخيه حباً شديداً، وكان يقدمه على أبنائه، ولا ينام إلا إلى جواره، وكلَّما خرج أبو طالب في تجارة، خرج النبي (ص) معه. والنبي (ص) بدوره بادل عمه أبا طالب الحب والعرفان، وكان لا يفارقه أبداً، وذات يوم خرج مع عمه بعد رجاء وبكاء،[4] بتجارة إلى الشام. وهما في طريقهما إلى بصرى من أرض الشام رآهما راهب نصراني من صومعته، يقال له بحيري أو بحيراء[5]، وشاهد النبي يسير مع عمه أبي طالب،

---

(١) هيكل ـ ص ١١٤.
(٢) ابن سعد ـ ج ١ ص ١١٨.
(٣) هيكل ـ ص ١١٤.
(٤) البلاذري ـ ص ٩٦.
(٥) سالم ـ ص ٣١٢ ـ وهيكل ـ ص ١١٤.

ومخايل النبوة بادية على وجهه. فطلب من أبي طالب العودة بالنبي إلى مكة، وأخذ الحذر من اليهود[١]، خوفاً على حياته، فعاد أبو طالب إلى مكة مصطحباً النبي (ص)، وحجب عنه السفر، وآثر على البقاء بمكة حفاظاً على حياته.

قال ابن إسحق: «خرج أبو طالب في ركب تاجراً إلى الشام. نزل الركب بصرى من أرض الشام، وبها راهب يقال له بحيرا في صومعة له... وصنع لهم طعاماً كثيراً... وأخذ بحيرا يلحظ محمداً (ص) لحظاً شديداً... ثم نظر إلى ظهره، فرأى خاتم النبوة بين كتفيه. فقال بحيرا الراهب لعمه أبي طالب: إرجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت يبغينه شراً»[٢].

وأزعم هنا، أن في ذلك التباساً، إذ كيف يحذره الراهب من قتل اليهود له إذا ما عرفوه. وقد ورد أكثر من رواية عن معرفة اليهود بولادته، ورؤيته، وقالوا به النبوة وهلاك عظيم، فلماذا لم يقتلوه؟!!! بينما في رواية لإبن إسحق قال: «إن زريراً وتماماً ودريسماً، هم نفر من أهل الكتاب... كانوا قد رأوا رسول الله (ص) في ذلك السفر، فأرادوه، فردهم عنه بحيرا...» وفي ذلك سند ضعيف لأنه لم يرد في كتب السيرة تكرار لمحاولات مشابهة. وإذا أرادوه في حينه، نالوا منه وقضوا عليه لوصدقوا أنه أخذ النبوة من بني إسرائيل.

---

(١) ابن هشام - ج ١ ص ١٨٠.

(٢) ابن كثير - البداية والنهاية - ج ٢ ص ٢٦٦.

بعد تحذير الراهب بحيرا لعمه أبي طالب، بقي النبي محمدٌ (ص) في مكة، فأخذ يشتغل في رعي المواشي لأهل مكة وأشرافها، وكان في الثالثة عشرة من عمره. وهناك حديث عن أبي هريرة قال، قال رسول الله (ص): «مابعث الله نبياً إلا راعي غنم» فقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: «. . . وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط»[١]. رواه البخاري.

وكان يقول أيضاً: «بعث موسى وهو راعي غنم، وبعث داوود وهو راعي غنم، وبعثت وأنا أرعى الغنم، غنم أهلي بأجياد»[٢].

أخذ النبي محمد يشتغل برعي المواشي ليكسب ويعتاش، وقيل إنه لما كان في الخامسة عشرة من عمره، شهد حرب الفجار بين بني كنانة وبين بني قيس عيلان. وسميت الفجار لأنها وقعت في الأشهر الحرم[٣]. وشهد الرسول بعض أيامها: مثل يوم شمطة، ويوم نخلة[٤].

وذكرت بعض الأخبار وكتب السيرة أن محمداً (ص) كان يجمع السهام ويردها إلى أعمامه عندما يرموهم بها، حتى قيل إنه كان يرمي في يوم شمطة بأسهم[٥]. كما ذكروا أنه شهد حلف

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٣٤.

(٢) هيكل ـ ص ١١٨.

(٣) المصدر نفسه ـ ص ١١٦.

(٤) ابن الأثير ـ ص ٣٢.

(٥) ابن سعد ـ ج ١ ص ١٢٨.

الفضول الذي كان هدفه مناصرة المظلوم على الظالم[1]. وقيل إن محمداً (ص) قال في ذلك: «ما أحب أن لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حُمْر النعم ولودعيت به لأجبت»[2].

وترعرع محمد (ص) وكبر في أرجاء مكة برعاية عمه أبي طالب يرعى الغنم، ثم صار يعمل ويتعاطى الرعي والتجارة، ولما بلغ سن العشرين، أرسله عمه أبو طالب إلى خديجة بنت خويلد من بني أسد. وهي قرشية ذات مكانة، كانت وفيرة المال والحال، وكثيرة الجاه تتعاطى التجارة والمواشي. فصار يرعى لها الغنم. ولمست منه الصدق والأمانة. فأرسلته في تجارة إلى الشام برفقة غلامها ميسرة، الذي عند عودته أخبرها عن قدرته الفائقة وشدة أمانته وصدق تعامله، وما حصل لهما خلال طريقهما من بشرى نسطور الراهب عن نبوته[3].

بقي النبي يرعى مواشي خديجة، ويجلب لها الربح الوفير، حتى بلغ سن الخامسة والعشرين من عمره، فرغبت السيدة خديجة الزواج منه.

لم يتردد عمه أبو طالب بزواج ابن أخيه من خديجة، لأن لذلك أسباباً. فكما أسلفنا، كان أبو طالب «حليف فقر كثير عيال.. لذلك رأى أن يجد لابن أخيه سبباً للرزق أوسع مما

(١) ابن كثير ـ ج ١ ص ٢٦٢.

(٢) هيكل ـ ص ١١٧.

(٣) ابن سعد ـ ص ١٣٠ والطبري ج ١ ص ١٢٨ .

يجيئه من أصحاب الغنم التي يرعى»[1].

ولما كانت خديجة قد رفضت خطبة كثيرين تقدموا إليها طمعاً بمالها، فإن وجهة نظر أبي طالب تصبح غاية مطلوبة في مجرى الأوضاع والأحوال السائدة، أليس هو القائل لمحمد (ص): ياابن أخي، أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا، وقد بلغني أن خديجة استأجرت فلاناً ببكرين، ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته. فهل لك أن أكلمها؟ قال محمد: ما أحببت: فخرج أبو طالب إليها فقال لها: هل لك يا خديجة أن تستأجري محمداً. . . . فكان جواب خديجة: «لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا، فكيف وقد سألته لحبيب قريب. . .»[2].

من سياق القول، فإن خديجة اعتبرته أكثر من قريب، بل حبيباً، مما يدل على أن علاقة الود والهوى كانت موجودة، ومتبادلة بنفس المشاعر بين محمد وخديجة.

واندفاعاً مع رغبة خديجة بالزواج منه، ومبادلة محمد لها بالحب، بعثت عمها عمرو بن أسد، واصطحب النبي عماه أبا طالب وحمزة، فزوجها عمرو إياها.

وقيل إنه كان لخديجة صديقة تدعى نفيسة بنت منية، فطلبت منها جس نبض محمد (ص) فقالت له: «ما يمنعك أن تتزوج؟ قال: ما بيدي ما أتزوج به. قالت: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال. . . ألا تجيب؟ قال: فمن هي؟

(١) هيكل ـ ص ١٢٠.

(٢) هيكل ـ ص ١٢٠ ـ ١٢١.

أجابت نفيسة: . . . خديجة. قال محمد: كيف لي بذلك. . . ولما أجابت نفيسة: عليَّ بذلك. . . سارع النبي إلى إعلان قبوله. . .»[1].

وحددت خديجة الساعة والموعد وتم الزواج، وانتقل النبي إلى بيتها ليبدأ صفحة جديدة من حياته. وهذا مخالفٌ للعادة، إذ من المعروف أن تنتقل الزوجة إلى بيت الزوج. وقد حصل ذلك، لأنه لم يكن لدى النبي بيت أو مسكن يأوي إليه، ولم يترك له أهله إرثاً، بل كان يتيماً يكفله أقاربه ويعتنون بتربيته فقط.

تزوج النبي خديجة وهو في سن الخامسة والعشرين من عمره، فيما كانت خديجة إبنة أربعين سنة[2]. وعن البيهقي قال: «لما تزوج النبي (ص) من خديجة بنت خويلد، كان عمره خمساً وعشرين سنة، وكان عمرها خمساً وثلاثين سنة».

ويذكر الدكتور محمد حسين هيكل، أنه بعد حرب الفجار، توفي والد خديجة، فزوجها عمها عمرو بن أسد، ويقال إنه لم يكن راضياً عن هذا الزواج. . . وبأن خديجة سقته خمراً حتى أخذت فيه، وحتى زوجها محمداً[3].

وبالفعل، كان الزواج لحظة تاريخية غيَّرت مجرى حياة محمد (ص). وكانت انطلاقة جديدة وضعته أمام مهمات أخرى، تبدو أنها ضخمة في أبعادها حسب ما تذكره كتب السيرة. وقد

(١) هيكل - ص ١٢٢.
(٢) سالم - ص ٣١٣.
(٣) هيكل - ص ١٢٢.

قيل الكثير عن زواج محمد من خديجة. وأثار الزواج نقمة الكثيرين أيضاً، وخصوصاً من الذين عرضوا أنفسهم عليها، وفضلت محمداً (ص) عليهم. وفضّلت راعي الغنم على جميع تجار وأثرياء وأسياد قريش. وفي ذلك تقول الرواية: «كان عمار بن ياسر، إذا سمع ما يتحدث به الناس عن تزويج رسول الله (ص) خديجة يقول: أنا أعلم الناس بتزويجه إياها، إني كنت له تِرباً، أي (صديقاً من نفس العمر)، وكنت له إلفاً وخدناً (صاحباً)... وإني خرجت مع رسول الله (ص) ذات يوم حتى إذا كنا بالحزورة أجزنا على أخت خديجة وهي جالسة على أدم تبيعها، فنادتني، فانصرفت إليها، فقالت: أما بصاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة؟ فأخبره، فقال: (بلى لعمري)... فقالت: أغدوا علينا إذا أصبحنا، فغدونا عليهم، فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسوا أبا خديجة حلة، وصفرت لحيته، وكلمت أخاها، فكلم أباه وقد سقي خمراً... فسألته ان يزوجه فزوجه خديجة. وصنعوا طعاماً فأكلنا منه، ونام أبوها ثم استيقظ صاحياً فقال: ما هذه الحلة وماهذه الصفرة وهذا الطعام؟ فقالت له ابنته (أخت خديجة)...: هذه حلة كساكها محمد بن عبد الله ختنك، وبقرة أهداها لك فذبحناها حين زوجته خديجة، فأنكر أن يكون زوّجه، وخرج يصيح حتى جاء الحجر... إلخ»[1]. ذكره الزهري وحكاه السهيلي.

وعاش النبي مع خديجة، وكان له أولاد لم يعش منهم إلا

(١) ابن كثير - ج ٢ ص ٢٣٥.

البنات. وبادلها الحب والألفة. وتعاقبت السنوات ومحمد (ص) يشارك أهل مكة في حياتهم العامة، وانتقل من الرعي إلى المشاركة الإجتماعية والحياتية والفكرية. وأنجبت له خديجة ولدين ذكرين هما: القاسم وعبد الله الملقب بالطاهر وبالطيب[1]. لم يكتب لهما الحياة، فماتا وهما طفلان في الجاهلية. ومن البنات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة. واهتم النبي فيما بعد بتزويج بناته. فزوج زينب أكبر بناته إلى أبي العاص بن الربيع بن عبد شمس، وزوج رقية وأم كلثوم إلى عتبة وعتيبة إبني عمه أبي لهب. وفاطمة تزوجت من علي بن أبي طالب بعد الإسلام.

وفي خلاصة القول، إن محمداً (ص) بعد زواجه من خديجة، انتقل إلى حياة مختلفة كلياً. فعاش محمد (ص) مع خديجة حياة هادئة مستقرة، وقد خصصه الله بهذه الحياة الكريمة، استناداً إلى ما جاء في القرآن الكريم: ﴿**ولسوف يعطيك ربك فترضى، ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى، ووجدك عائلاً فأغنى**﴾[2]. وهذا يدفعنا إلى القول بأن محمداً (ص) بعد زواجه صار غنياً وثرياً، بعد أن عانى من الفقر والحياة القاسية الكثير. وصار صاحب مال وماشية وتجارة، مما مكّنه من التلاقي مع أشراف مكة والطبقة الارستقراطية، ومعاشرتهم والدخول في «دار الندوة» التي امتنعت عليه قبل زواجه من خديجة، لأنه كان فقيراً، ولا يعيره أسياد قريش وأثرياؤُها أي اهتمام.

---

(١) هيكل ـ ص ١٢٨.

(٢) الضحى ـ ١ ـ ٨.

«استطاع النبي أن يجمع
القبائل ويجعل منهم جيشاً،
لكنه لم يستطع أن يرسم
لهم دولة ومؤسسات»

منير فارس

محمد وبدء
التحنف والوحي

إن حياة محمد (ص) الجديدة، فرضت عليه حياة جديدة وعلاقات اجتماعية ومخالطات مختلفة عن السابق، فحياته الزوجية، ومكانة خديجة في قريش، أتاحا له الاستقرار والتفكير والتأمل.

تقول أخبار العرب وكتب السيرة، بأن محمداً كان حنيفياً يصعد إلى غار في أعلى جبل حراء قرب مكة يتحنف هناك شهراً من كل سنة، وبأنه في هذا الغار جاءه الوحي ونزل عليه. وفي ذلك قال البخاري في صحيحه: «كان يخلو بغار حراء فيتحنَّث فيه»[1] وفي هذا الغار أمره الملائكة بالتبشير بالآيات المنزلة،

---

(١) يتحنَّث: يتعبد.

وهو يبلغ من العمر أربعين سنة؛ واستمر النبي ينشر دعوته سراً نحواً من ست سنوات.

فمن سن الخامسة والعشرين من عمره إلى سن الأربعين نحتسب مسافة خمسة عشر عاماً، مال خلالها محمد (ص) إلى تمتين علاقاته مع أهل مكة، ومع أعضاء «دار الندوة»، فكان يلمع سنة بعد سنة خلال تلك الفترة، وفي المرحلة من حياته التي يمكن اعتبارها مرحلة التحضير النفسي والشخصي لمشروعه القادم، وخصوصاً أن الأخبار عن هذه المرحلة، لم تكن وافية من حيث التتابع، ومن حيث النشاط الذي اهتم النبي (ص) به بالتفصيل. وفي تقديري، فإنها مرحلة غامضة نسبياً، ولم يذكر أحد من الأخباريين، ماذا فعل النبي (ص) خلال تلك الفترة بالدقة المطلوبة؛ ويمكن أن تكون مرحلة دراسة وإطلاع وتدقيق، وكذلك مرحلة مراجعة واستيزاد بالفكر والدين والمعرفة؛ وأزعم أن رجلاً مثل النبي محمد (ص) عرف فجأة الثراء والمال الكثير، لا بد أن يعيش حياة هدوء وتمعن وراحة أعصاب، وحياة تأمل وإمعان نظر في كل الأمور.

وقد عرف عن النبي (ص) أنه كان أميّاً، لا يعرف القراءَة ولا الكتابة. لكن السؤال: كيف يكون النبي أمياً، ولم يتعلم القراءَة والكتابة وهو الذي عاش منذ طفولته في كنف عمه أبي طالب، الذي رعاه بالحب والعاطفة، وخصصه كثيراً، ولم يفرق بينه وبين أبناء عمه، لا بل كان يميزه عن غيره في كثير من الأحيان، ومن بين أبناء عمه كان علي، الذي كان يعرف القراءَة،

وله كتاب «نهج البلاغة». فهل يعقل أن يتعلم علي، ويستثني أبو طالب محمداً ويحرمه من نعمة التعلم، ويحرمه القراءَة والكتابة؟. ألم يكن الأحرى أن يعامله مثل أولاده (وقد عامله بالفعل)، ويعلمه كسائر أبنائه؟ مع الإشارة والتذكير مجدداً، بأن عمه أبا طالب حباه كثيراً؟!!!.

المهم أنه منذ الخامسة والعشرين من عمره، مال محمد (ص) إلى العزلة والتأمل والتحنف في غار حراء، وهي كما هو معروف عادة مفكري قريش، «إذ كانوا ينقطعون زمناً من كل عام، يقضونه بعيداً عن الناس في خلوة يتقربون بها إلى آلهتهم بالزهد والدعاء. . . ويسمون هذا الانقطاع للعبادة، التحنف أو التحنث.»[1] فقد كان يذهب النبي (ص) طوال شهر رمضان من كل سنة، ومعه الزاد، يمعن في التأمل والتفكير والعبادة، ويغوص في هذا الكون لاكتشاف مكنون سره، وخصوصاً أنه وجد أن لا فائدة من هذه الأصنام الجامدة، ولا خير فيها. ولذلك أراد التماس الحقيقة عن طريق التحنث، فقيل إن التحنث «شرع بذاته، وقيل شرع نوح وقيل إبراهيم، وقيل موسى، وقيل عيسى. .»[2].

وقد سئل ابن الأعرابي عن التحنث فقال: «لا أعرف هذا، إنما هو يتحنف من الحنيفية، دين ابرهيم عليه السلام»[3]. وفي

(١) هيكل ـ ص ١٣٠.
(٢) هيكل ـ ص ١٣١.
(٣) ابن كثير ـ ج ٣ ص ٦.

ذلك قال ابن هشام: «العرب تقول التحنث والتحنف. يبدلون الفاء من الثاء. كما قالوا جدف وجذف، كما تقول رؤبة: لو كان أحجاري من الأجداف، (يريد الأجداث: جمع جدث وهو القبر). وقال حدثني أبو عبيدة أن العرب تقول فُمَّ في موضع ثم. قلت: ومن ذلك قول المفسرين في قوله تعالى (وفومها). إن المراد به ثومها[1].

والحنيفية كانت تياراً شائعاً ومعروفاً في ذلك الزمان. ولم تكن بدعة أو خبراً عابراً، وإنما حالة فكرية ومفهوماً رائجاً بين مختلف الأوساط، واعتنقها كثيرون واعتقدوا بها، ومارسوها في حياتهم العامة، وصار لها أتباع وأنصار. وقد جاء ذكر الحنفاء في كثير من المواضع وكتب التاريخ، وكذلك في القرآن في عدد من السور. فتقول الآية الكريمة: **﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم، ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين﴾**[2]. وكذلك الآية: **﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن، واتبع ملة ابراهيم حنيفاً﴾**[3].

هذه الآيات، وآيات أخرى، أشار إليها أكثر من كاتب، مؤكداً ارتباط النبي بجماعة الحنفاء، بوصفهم كانوا تياراً دينياً، ولهم علاقة واقعية بالإسلام، وترابط تاريخي في الاتجاه العام لحركة المجتمع الجاهلي.

---

(١) ابن كثير - ج ٣ - ص٦.

(٢) سورة الأنعام - ١٦١ .

(٣) سورة النساء - ١٢٥ .

إذاً، فإن اتصال النبي محمد بجماعة الحنفاء تصبح «حقيقة واقعة»[١] وربما كان واحداً منهم. وقد ورد ذلك في رواية ابن الأثير، فيقول: «إن النبي سئل عن زيد بن عمرو بن نفيل، وهو من أبرز الحنفاء، فقال النبي: يبعث أمة وحده، وكان يتعبد في الجاهلية ويطلب دين ابراهيم الخليل ويوحد الله ويقول: إلهي إله ابراهيم، وديني دين ابراهيم...»[٢].

وفي هذا السياق أيضاً، يقول الصادق النيهوم: «فالحنيف في لغة الكنيسة الآرامية هو [الوثني] الذي لا ينتمي إلى اليهودية أو النصرانية، ومصدرها [26M] (ح ن ف) بمعنى كفر وصبأ وارتد إلى الوثنية. وهو أيضاً مفهوم تلقائي في قاموس القرن السابع. لأن العالم لم يكن يعرف ديانة سماوية ثالثة غير هاتين الديانتين. ولم يكن بالتالي ثمة تعريف آخر لمن لا يدين بإحداهما، سوى لقب [الوثني] أو [الحنيف] الذي اشتقت منه كلمة (ح ن ف و ت) بمعنى عبادة الأوثان»[٣].

---

(١) د. حسين مروة ـ النزعات المادية ـ ج١ ص٣٣١.

(٢) ابن الأثير ـ أسد الغابة ـ ج٢ ص٢٣٦.

(٣) ابن الأثير ـ ج ٢ ص ٢٣٦.



قيل لابن المبارك:
لماذا تكتب؟ قال: لعل
الكلمة التي تنفعني لم
أكتبها بعد!!



بدء الوحي

وجاءت اللحظة التاريخية، وبدأ الوحي وقصته مع محمد (ص) في غار حراء. فكان أول نزول الوحي على محمد (ص)، في المنام، وكان عمره أربعين سنة. وكل الرؤيا كانت مثل فلق الصبح[١]. وذكر محمد بن اسحق ان رسول الله (ص): «كان يخرج إلى حراء في كل عام شهراً من السنة يتنسك فيه. وكان من نسك قريش في الجاهلية» «وحراء جبل بأعلى مكة على ثلاثة أميال منها عن يسار المار إلى منى، له تلة مشرفة على الكعبة منحنية والغار في تلك الحنية»[٢].

(١) ابن سعد - ص ١٩٤ - البلاذري - ص ١٠٥.

(٢) ابن كثير - ج ٣ ص ٥.

وحكى ابن جرير فقال: «إنه كان عمره إذ ذاك ثلاثاً وأربعين سنة». وعن الإمام أحمد: «نزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين. فكان يعلمه الكلمة والشيء، ولم ينزل القرآن. فلما مضت ثلاث سنين، قرن بنبوته جبريل، فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة. عشراً بمكة وعشراً بالمدينة. . . ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة»[1].

وبموضوع الوحي، بدأ النبي حياة جديدة كثر فيها الأنزواء والاختلاء بنفسه. فكان يذهب إلى غار حراء ويقضي فيه الليالي. وكثيراً ما كان يسمع أصواتاً دون أن يرى شيئاً[2].

وقيل إن الوحي جاءه بغتة على غير موعد، كما جاء في الآية الكريمة: **﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك. . . .﴾**[3]. وروى الحافظان والبيهقي في كتابهما دلائل النبوة، أن رسول الله قال: «إذا خلوت وحدي سمعت نداءً خلفي: يا محمد يا محمد، فأنطلق هارباً في الأرض»[4]. وذكر عن خديجة أنها قالت: «ياعتيق (أبو بكر) إذهب مع محمد إلى ورقة بن نوفل. ولما انطلق إليه، قال له لا تفعل. إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول لك ثم ائتني فأخبرني. . .»[5].

(١) ابن كثير - ج ٣ ص ٤.
(٢) سالم - ص ٣١٣.
(٣) القصص - ٨٦.
(٤) ابن كثير - ج ٣ ص ٩.
(٥) ابن كثير - ج ٣ ص ٩.

ولما حصل للنبي محمد (ص) هذا الأمر، أخبر زوجته. فانطلقت به إلى ورقة بن نوفل، وروى له النبي (ص) ما يحصل معه، والأصوات التي تأتيه. فطمأنه ورقة، وأشار عليه ان يتفحص الأصوات. وأذاع إلى خديجة يبشرها بنبوته[1]. واستمر النبي يتابع خلواته وينفرد بنفسه بعيداً عن الناس في غار حراء يتحنث فيه، كما ذكرنا على عادة أهل الحنيفة.

وواصل النبي (ص) طريقته عدة أشهر، إلى أن نزل عليه الوحي في شهر ربيع الأول، وقيل ١٧ رمضان إذ جاءَه جبريل عليه السلام ليلتين متتاليتين: السبت والأحد ثم أتاه ليلة الأثنين ومعه الرسالة في ١٧ رمضان[2]. وطلب من النبي بصوت عال قائلاً له: «إقرأ» فقال النبي: ما أنا بقارىء، وكررها ثانية وثالثة إلى ان قال له جبريل: ﴿**إقرأ باسم ربك الذي خلق...**﴾[3] فقرأها النبي (ص)، فانصرف عنه جبريل. ثم انقطع الوحي لفترة، مما خلق له حزناً شديداً وحيرة وارتباكاً، وصار يروح إلى الجبل مراراً وهو في ضياع لا يدري ماذا يفعل. وفي هذه الفترة كان يأتي إليه جبريل ويقول له: «إنك نبي، فيسكن لذلك جأشه وترجع إليه نفسه»[4]. ذكره الزهري.

وقد كان جبريل يأتي النبي (ص) في صفات متعددة على ما

---

(١) البلاذري ـ أنساب الإشراف ـ ص ١٠٦.
(٢) سعد ـ ج ١ ص ١٢٩.
(٣) العلق ـ ١.
(٤) ابن سعد ـ ج ١، ص١٩٦.

يذكره الإخباريون. «فتارة يأتي في صورة دحية بن خليفة الكلبي، وتارة في صورة أعرابي، وتارة في صورته التي خلق عليها، له ستمائة جناح، ما بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب، كما رآه على هذه الصفة مرتين: مرة منهبطاً من السماء إلى الأرض، ومرة عند سدرة المنتهى[(١)] عند جنة المأوى»[(٢)].

وعن تاريخ النزول، قال الإمام أحمد قال رسول الله (ص): «أنزلت صحف ابراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان»[(٣)].

إن الحالة التي واجهها النبي محمد مع جبريل في الغار، لم تمنعه من قلقه وحزنه، كما لم تمنع بعض قريش عندما عرفوا، من التهكم عليه والسخرية منه. وقد يستنتج من أن خوف النبي (ص) من جبريل نابع من محاولة جبريل خنقه حينما طلب منه قائلاً: إقرأ. وعندما أجاب النبي (ص): ما أنا بقارىء: أخذه جبريل فغته[(٤)] غتاً شديداً، أي كاد يخنقه. والمراد هنا، إما أن يقرأ، وإما أن يخنقه. وإذا كان وحياً فلا بد من المعاملة اللينة، وبالحسنى يجري الإيحاء له وليس بالخنق والعنف، أو بالقوة يتم الوحي و الإبلاغ، خصوصاً وأنهم يعلمون من حاله بأنه أمي لا

(١) سدرة المنتهى: أي في السماء السابقة.
(٢) ابن كثير - ج ١ ص ٥٥.
(٣) ابن كثير - ج ٣ ص ٦.
(٤) غته: خنقه.

يقرأ ولا يكتب!!!

وموجز القصة في تفاسير المؤرخين وكتاب السيرة بأنه عندما تجسد الملاك للنبي محمد (ص) وهو في غار حراء يتعبّد، قال له: «إقرأ» فقال الرسول: «ما أنا بقارىء» وضمّه الملاك إلى صدره ثلاثاً. . .

لكن موضوع القصة، وما إذا كان الرسول يعرف القراءة أم لا، أمر طرحه الصادق النيهوم بالقول: «إن كلمة «إقرأ» لا تعني أصلاً فعل القراءة. . . إنها كلمة ذات أصل كلداني مصدرها [[illegible]] (ق ر ا) وتعني: بمعنى يبلغه. وقد وردت في التراتيل الكلدانية بهذا المعنى في قولهم [[illegible]] (ق ر ا ب ش م م ر ي) أي [نادى باسم الرب]. . . فالآية لا تطلب من الرسول أن يقرأ، بل تكلفه بإعلان الدعوة. . .»[1].

ثم يضيف النيهوم: «والفكرة القائلة بأن الرسول محمداً كان [أمياً] بمعنى أنه لم يكن يعرف القراءَة، هي فكرة ولدت أساساً لتفسير قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿. . . **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي**﴾[2]. فكلمة [أمي] لا تعني [غير متعلم]. . . إنها مصطلح توراتي مشتق من كلمة [[illegible]] (ا و م ت ي) بمعنى [أُميّ] أي غير تابع لأهل الكتاب من اليهود بالذات. . . وهو معنى يتبناه القرآن بقوله تعالى ﴿. . . **وقل للذين**

---

(١) الصادق النيهوم ـ إسلام ضد الإسلام ـ ص ٢١ ـ ٢٢.

(٢) الأعراف ١٥٧.

أوتوا الكتاب والأميين﴾[1] .

لذلك، يقودنا المعنى من كل ما تقدم بأن كلمة [أمي] في لغة التوراة ليست [غير المتعلم] بل تعني [غير اليهودي] الذي استبعده الرب من الشعب المختار، واعتبره نجساً لأنه غير مختتن.

من هنا فإن كلمة «الأميين» سادت بين الأمم والشعوب، وكانت تعني [غير الكتابي] أي من ليس عندهم كتاب منزل، ولذلك يقول الله تعالى في كتابه العزيز؛ **﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾**[2] .

يستشف من هذه الآية بأن النبي محمداً (ص) كان يحسن القراءَة، وأكثر من ذلك كان يعلم الكتاب والحكمة ويحاضر بهما، ولا يستطيع ذلك إلا من عنده القدرة العلمية والكفاية والدراية في كل شيء.

نشير هنا إلى من بشر بنبي أمي صفته أنه لا يقرأ ولا يكتب، هم اليهود والنصارى الذين استندوا على ما بشر به الإنجيل والتوراة بمجيء هذا النبي، وقد جاءت الآية القرآنية لتؤكد هذا الرأي بقوله تعالى: **﴿الذين يتبعون الرسول الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾**[3] .

---

(١) آل عمران ـ ٢٠.

(٢) الجمعة ـ ٢ .

(٣) الأعراف ـ ١٥٧ .

وعزز من هذا الفهم ما ورد في نص القرآن؛ ﴿**ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل**﴾[1]. وتعني عدم الالتزام تجاه غير اليهود، وليس تجاه من لا يعرف القراءة والكتابة.

وكذلك الآية: ﴿**ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانيَّ وإن هم إلا يظنون**﴾[2].

ونذكر هنا بأن كلمة [أمي] وردت في جميع اللهجات السامية ومشتقة من [أم] بتشديد الميم ومعناها الأصل والمنبع. وإذا نسبت الصفة إلى المفرد، تصبح [أمي].

وذكر السيوطي في هذا المجال بأن النبي محمداً (ص) لو كان قارئاً وكاتباً، لشك فيه اليهود وظنوا به، وهم الذين عرفوا من نص التوراة بأن النبي المرسل «أمي لا يقرأ ولا يكتب» فيما لا يوجد نص لا في الإنجيل ولا في التوراة يذكر بأن النبي محمداً «أمي» لا يعرف القراءة والكتابة. واستند في ذلك على الآية: ﴿**وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون**﴾[3]. ومعنى كلمة كتاب هنا التوراة والإنجيل، وهنا نكران بأن الرسول لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، وليس إنكاراً بعدم معرفة النبي (ص) للقراءَة أو الكتابة.

ويبرر أبو سليمان الخطابي عملية الضغط والإصرار على محمد (ص) بتقبل الوحي بالقول: «وإنما فعل ذلك ليبلو صبره،

---

(١) آل عمران ـ ٧٥ .

(٢) البقرة: ٧٨.

(٣) العنكبوت ـ ٤٨ .

ويحسن تأديبه فيرتاض لاحتماله ما كلفه به من أعباء النبوة»[١].
ويستند في ذلك إلى الآية الكريمة بقوله تعالى: **﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾**[٢].

وعن ابن اسحق قال: «... وللنبوة اثقال ومؤونة لا يحملها ولا يستطيع بها إلا أهل القوة والعزم من الرسل». وهل هناك رسل ليس منهم عزم ولا قوة، ورسل آخرون يتمتعون بالقوة والعزم والإرادة؟. النادرة اعتقد أن الله يعلم حَجم ومدى قدرة كل رسول وكل إنسان، ولا ينزل وحي، أو يرسل من رسول إلا إذا كان عالماً به، وبقدرته على حمل الرسالة، وإلا لما اختار رسولا!!.

وتذكر كتب السيرة بأنه عندما أمر جبريل محمداً (ص) أن يقرأ بالثالثة، قال: «.. فقرأتها ثم انتهى وانصرف، وهببت من نومي... وخرجت... وإذا في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل... فما زلت واقفاً ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي... فأتيت خديجة فجلست إلى فخذها... ثم حدثتها بالذي رأيت... فقالت: أبشر ياابن العم واثبت... إني لأرجو ان تكون نبي هذه الأمة. ثم قامت وجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل فأخبرته...»[٣]. قاله ابن إسحق.

(١) المصدر السابق ـ ص ٦.

(٢) المزمل ـ ٥.

(٣) ابن كثير ـ ج ٣ ص ١١١.

يستدل من هذه الرواية ملاحظة هامة في كيفية استباق معرفة خديجة بنبوة محمد، قبل معرفة محمد نفسه بذلك، ثم كيف تعلم خديجة وتستنتج علامات نبوته من خلال ما حدثها محمد به، ويكون لها السبق في التحليل والإستنتاج، ويغيب ذلك عن بال محمد ولا يعلم به ولا يعرفه أو يثير أي دليل لديه لما يحصل له، مع أن جميع التصريحات والأحاديث تقول بأن محمداً كان رجلاً ذكياً عارفاً حاد الذهن والمعرفة. فكيف تمر عليه هذه الإشارات ولا تلفت انتباهه أو تثير دهشته وتساؤلاته المنطقية والطبيعية في مثل هذه الأمور!!. ثم أن تصل الأمور إلى درجة معرفة الناس بنبوة محمد قبل معرفته هو، فهو أمر يثير الحيرة والإشكال في تحليل النص وابتغاء الحقيقة.

وورقة بن نوفل هذا كان قساً نصرانياً، وهو أول من آمن بالنبي (ص) وصدقه، وصدق ما حصل معه في الغار، فلما توفي قال رسول الله (ص): «لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير لأنه آمن بي وصدقني»[1] يعني ورقة، وذكر الدكتور هيكل أنه لما أتته خديجة وقصت عليه ما جرى، أطرق ملياً ثم قال: «قدوس. قدوس، والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني ياخديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت»[2].

ما حصل مع النبي في الغار، كان بداية الطريق والمشوار

---

(١) ابن كثير ـ ج ٣ ص ٩.

(٢) هيكل ـ ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

الطويل. وكان عليه أن يخوض المعركة لإثبات رؤياه ونزول الوحي عليه، والذي استمر زمناً بين نزول جبريل، ثم توقفه فترة أخرى. وعاش النبي (ص) فترة من الحيرة والقلق والفزع الشديد، إلى أن حدث أنه كان يوماً سائراً، سمع صوتاً يناديه، فإذا جبريل بين الأرض والسماء، فانتاب محمد (ص) الرعب والخوف، وأصابته رجفة ركض من جرائها مسرعاً إلى المنزل طالباً من زوجته وقائلاً لها: دثروني. فنزلت عليه سورة المدثر[1]. كما في قوله تعالى: **﴿يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر﴾**[2].

ومنذ ذلك الوقت بادر النبي (ص) إلى الإجهار بدعوته إلى ترك عبادة الأوثان، وعبادة الله الواحد.

نستخلص من كل ما تقدم، أن مجرد زواج النبي محمد (ص) من السيدة خديجة، كبيرة أثرياء قريش، شكلت له فاتحة جديدة في حياته، فعرف حياة الاستقرار النفسي، والتخلص من متاعب الفقر والتحرر من مشقات الرعي والتنقل بالمواشي، وعرف صفاءً فكرياً وارتياحاً نفسياً وظلالاً من الهدوء والاستقرار، مما مكّنه من التفرغ كلياً إلى مخالطة أسياد قريش وقادتها، بعد ما كانت ممنوعة عليه في السابق ـ أي قبل زواجه ـ وفسحت له الحياة الجديدة بالتزود بشتى أنواع المعارف والمفاهيم وتشكيل القناعات.

---

(١) البلاذري ـ ص ١٠٩.

(٢) المدثر ـ ٤.

ويستدل من خلال الفترة الممتدة من سن الخامسة والعشرين (يوم زواجه) إلى سن الأربعين (يوم نزول الوحي) أي بفارق خمس عشرة سنة، أنه كان يتفرغ للمطالعة والدراسة والتزود بالمعرفة، وينفرد بنفسه فترات طويلة، وينعزل عن الناس طيلة هذه المدة من الزمن، لكي يقوم بالمراجعة والمطالعة، ويتمعن بالدرس والاستقصاء، ويراجع كل ما وصلت إليه العلوم وما نشأ من المعتقدات التي كانت سائدة في عصره.

ويذهب البعض في الاعتقاد بأن مدة خمس عشرة سنة من التحنث، كانت فترة كافية للنبي ليتزود بشتى الأفكار، والاطلاع على معظم الفلسفات والأديان، وأن يتعمق بكل معتقدات عصره، حتى توصل بعد مرور هذا الزمن إلى تشكيل هذه القناعة، وإلى انجاز رسالته التي أعلنها بعدما وضع كل تفاصيلها.

واللافت للنظر هنا، أنه بعد مرور ثلاث سنوات على التحنث والتنسك في الغار، ثم نزول الوحي، أعلن الدعوة وجاهر بها بين الناس، ولم تمض فترة طويلة من الزمن، حتى انتشرت الدعوة بسرعة خارقة وعمت أرجاء الجزيرة وبين الناس، وخصوصاً في مكة والمدينة. وخاض النبي مع أتباعه معارك عديدة دفع ثمنها غالياً حتى حقق الانتصار. إنَّ هذا الالتفاف الجماعي السريع والاحتشاد الهائل حول الدعوة والرسالة خلال تلك الفترة الوجيزة من إعلانها، يمكن مناظرتها بالحالة التي جرت تماماً مع عبد الناصر، عندما أعلن في الستينات من القرن العشرين، عن تشكيل حزب جديد، هو الاتحاد الاشتراكي

العربي. إذ لمجرد الإعلان عن تشكيل هذا الحزب، انخرط في صفوفه، وأنتمى إليه ما يفوق المليون منتسب خلال سنة واحدة!!!.

فما حصل مع الرئيس جمال عبد الناصر، كان تكراراً لما حصل في الماضي مع دعوة النبي إلى الرسالة الجديدة والدين الجديد، وهي الحالة نفسها تتكرر اليوم وتحصل بشكل انتماء جماعي وليس نوعياً. ويشبه إلى حد كبير أيضاً ما يحصل اليوم مع الدعوات والتيارات الطائفية والمذهبية. فلمجرد الإعلان عن تشكيل حزب ديني أو تيار طائفي، فأنك تجد من يستجيب لها بالمئات لا بل بالآلاف خلال فترة وجيزة جداً. وما يجدر الانتباه له والتيقن منه، بأن انتساب مثل تلك الأعداد، لا بد وأن يندس في صفوفها المغرضون والمتسللون من أصحاب النوايا الخبيثة، لعرقلة سير هذا التراكم الكمي من غير قناعة، ومن دون دراسة وتمحيص.

وبالعودة إلى موضوعنا واستنتاجاتنا، فإن هناك حلقة مفرغة في سياق تسلسل الأحداث وتطورها، لا بد من التعرض لها والتوقف عندها؛ وهي أن أبو طالب عمّ النبي (ص)، أراد تزويجه خديجة ليطمئن على مستقبل إبن أخيه، ويتخلص من الفقر والحاجة، وقد جاهر بذلك عمه أبو طالب من غير خجل، زاعماً أنه فقير الحال كثير العيال. وقبل النبي بالفكرة وتزوج خديجة. بينما كل الأحاديث النبوية وكل التصريحات والإيحاءات، وجميع الإشارات تقول باحتقار النبي للمال، وميله

إلى الزهد والابتعاد عن الناس منذ بدء حياته الزوجية الجديدة.

ويزعم البعض في سياق التحليل والاستنتاج إلى أنَّ وراء ذلك الانعزال والاختلاء سبباً اجتماعياً، أو بالأحرى شأناً داخلياً عائلياً، يشير إلى خلل في علاقته الزوجية مع خديجة، المرأة الجميلة الثرية، والمقصودة من أكبر أسياد قريش وأثريائها، والكل تقدم لها وطلب يدها، والجميع تمنى رضاها وودَّ استمالتها إليه. لكنها كانت تأبى عن الجميع. وفي النهاية رضيت بمحمد (ص) وقبلت به، وهو الأجير البسيط عندها، أو بالأحرى راعي الغنم الذي يرعى الماشية، ومقطوع الحال ضعيف السند والاتكال؛ فاختارته من بين كل الناس ودون كل الناس زوجاً لها. وكأي زوج من هذا النوع ومن هذا الوسط الاجتماعي الاقتصادي المعروف، لا بد وأن يواجه متاعب جمة، نظراً للفارق الاجتماعي والاقتصادي، وفارق العمر، ومستوى العلم والمعرفة. فهو شاب في عز شبابه ورجولته وهي امرأة كانت متزوجة وهي أكبر سناً (بفارق ١٥ سنة). ألا يعقل أن تكون العلاقة تتأثر وتضطرب فيما بينهما؟ أو أن تبرز عناصر الغيرة من المرأة العجوز على زوجها الشاب المرغوب؟

وقد يندفع البعض إلى احتمال أن تكون زوجته خديجة تسترجل عليه، أو تعايره في فقره وقلة حيلته وقصر يده يوم زواجه، أو أن تلمح له، وهي التي أنقذته من البؤس والفاقه، وصنعت منه رجلاً معروفاً معززاً مكرماً بين أسياد قريش ووجهائها، بعد أن كان راعي غنم، يجهله الناس أو يتجاهلونه،

وممنوع عليه دخول «دار الندوة». لا يكترث له أحد أو يهتم به، ولولا حضانة عمه أبو طالب له، ومكانته بين أهل قريش، لما سمع عن محمد (ص) أحد شيئاً، وإذا كان أبو طالب قد أخذه برفقته في تجارة إلى الشام، إلا لكي يعلمه طرق وأساليب التجارة وأشكالها السائدة، ويساعده في نفس الوقت على إعالة عائلته الكبيرة. ويكون قد تعلَّم النبي (ص) وتدرب على أصول التجارة، ووجد طريقاً له في الحياة.

ولذلك، وبسبب غموض المرحلة بعد زواجه من خديجة، يذهب البعض ويزعم أن هذا الزواج لم يكن موفقاً من الناحية الاجتماعية، ولا من ناحية العلاقات الداخلية بالقدر المطلوب. وربما قد شهد هذا الزواج خلافات حادة بينه وبين خديجة، وهو أمر ليس بالعسير حدوثه، فهو أمر طبيعي ومحتمل الوقوع، لما يوجد من فوارق ومن أسباب كثيرة تجعله يحدث. وقد يكون هذا النوع من العلاقة، الدافع الرئيسي وراء سبب اعتزاله وانزوائه، وكذلك انفراده بنفسه لمدة شهر متحنثاً في الغار. ثم ما كانت الفائدة من هذا الانفراد طيلة هذه المدة الطويلة من الزمن، وما كان وراء ذلك؟ إن في ذلك ما يثير الانتباه والتساؤلات. وأذا كانت نبوة محمد (ص) مقررة سلفاً من الخالق، فلماذا الابتعاد عن الناس؟ وما الضرر ان ينزل عليه الوحي في منزله وليس في الغار؟ ومن دون مقدمات للإثبات والتصديق، لأن الله لا يحتاج إلى إثبات، لأنه هو الذي يثبت. ثم هل كان التحنث في الغار هو لتبرير نزول الوحي، وإثبات النبوة؟ وهل كان النبي (ص) يحتاج

إلى مبرر لإقناع الناس بنبوته، وقد عرفتها خديجة واستنتجها ورقة بن نوفل والراهب بحيرا قبله هو!! وطالما أن النبوة آتية من الله وليست نابعة من إرادته الذاتية، فلا بد أن لا يعرفها أحد إلا النبي نفسه، طالما لم تنزل على أحد غيره!! ثم هل ان تبرير النبوة وتصديق الوحي يحتاجان إلى كل هذا الوقت من التعبّد والعزلة في الغار؟ ومن يحتاجان النبوة وتكون له، لا بد أن يكون في الغار؟ ومن يحتاج النبوة وتكون له، لا بد أن يكون بين الناس، لا أن ينعزل عنهم ويبتعد من حولهم، وما فائدة النبوة ساعتئذ اذا ابتعد عن الناس؟ فالنبوة حصلت لإصلاح الناس، والوحي نزل لإفهام الناس وليس لغير ذلك. فلا قيمة للوحي من دون الناس، لأنه يمسهم وهو لهم.

ثم إن النبوة ونزول الوحي، لا يحتاجان إلى دراسة وانزواء، حتى يبتعد عن الناس؟

إننا لا نثير قلقاً، ولا نبغي شكاً بمجريات الأحداث، ولا نقصد نفي صفة النبوة عن محمد (ص)، ولا ننوي حرمانه علاقته بالملائكة وبجبريل تحديداً؛ ولا نزعم نفي رسالته الهابطة من السماء. إنما نثير هذه الأسئلة فقط، من أجل التوقف عند بعض المحطات المبهمة والغامضة في مسيرة الأحداث المتسارعة، والتي لم يتعرض لها أحد من كتاب السيرة وإخباريي العصور الماضية.

وما يمكن قوله، أنه بعد أن كان زواج محمد (ص) من خديجة، خلاصاً من حياة الفقر والعذاب، وهدفاً يصل إليه ويعزز

من مكانته بين أسياد قريش، تحوَّل إلى رفض وهروب منه، ثم اعتزال في غار حراء، وابتعاد عن الناس وانفصال عن المجتمع، وتفرد في العيش، وانزواء مع النفس والذات. وبعد كل هذا، ألا يمكن أن تكون وراء ذلك أسباب عائلية؟ وهنا نؤكد ولا ننفي، طالما لا توجد أخبار كافية من مرحلة زواجه وحتى مرحلة نزول الوحي وإعلان الدعوة.

وإذا كان محمد (ص) على علم مسبق بنبوته، فإن عزوفه عن الاختلاط بالناس، يكون له ما يبرره. وإذا لم يكن كذلك، فإنه قد يكون وراء ذلك أسباب فلسفية ومعرفية، من أجل نهل العلم والتعمق في الدرس.

لكنه من الواضح أنه لم يكن يعلم بنبوته القادمة، وإلا لما حصل له هذا النوع من الخوف والفزع الشديدين خلال المرحلة الأولى من نزول الوحي، وكلام جبريل معه في الغار، حتى بلغ الخوف عنده آخر مرة، عندما جاء زوجته خديجة قائلاً لها: زمليني - دثريني من شدة البرد والخوف من الملائكة.

كما يلفت انتباهنا، بأن النبي (ص) قبل زواجه لم يكن يخالط أحداً، بل كان يهتم طيلة النهار برعاية الماشية ورعيها ولا توجد لديه أوقات للمشاركة، ولم يكن عنده متسع للاجتماع بأحد، أو المشاركة بحلقات أهل قريش، بينما بعد زواجه حصل له كل ذلك، وانفتح فجأة على الناس وصار يحضر دار الندوة، ويشارك في شجون وهموم قريش، نظراً للموقع الذي صار له بعد زواجه الذي وفرته له خديجة. ثم تلا هذه المرحلة مرحلة

أخرى مشابهة لبداية حياته، إذ بعد زواجه بفترة، مال إلى العزلة والابتعاد عن الناس، واللجوء منفرداً إلى غار حراء.

فالقول إن محمداً قد انقلبت حياته رأساً على عقب بقدرة قادر، وتحولت إلى معجزة مفاجئة لكل الناس بهذه السرعة، وفي سن الأربعين، بينما حدد الله النبوة لرسل آخرين في سن مبكرة؛ إن هذه الأمور لا بد وأن تأخذ جدلاً واسعاً، ونقاشاً حامياً وحاداً أحياناً، من أجل بلوغ الحقيقة وليس من أجل التسلية.

بدء الدعوة

منذ نزول الوحي على محمد (ص) ونزول سورة المدثر، بادر النبي (ص) بالدعوة إلى الإسلام، وخصوصاً المقربين إليه، والموثوقين منه. واستمر بالدعوة سراً ومتخفيّاً لمدة ثلاث سنوات[1]. وخلال هذه المدة، استجاب لدعوته نفر قليل من الناس، فكان أول المبادرين إلى تصديق نبوته، زوجته خديجة بنت خويلد. وعلّم الله النبي الصلاة فصلى وصلّت خديجة معه[2].

واختلف المفسرون وكتاب السيرة، حول من كان أول المعتنقين للإسلام. فذهب من قال: «علي بن أبي طالب، ثم

(١) ابن سعد - ج ١ ص ١٩٩.

(٢) هيكل - ص ١٣٩.

أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة القرشي ثم زيد بن حارثة مولى النبي. فيما ذهب بعضهم إلى أن المتفق عليه في دخولهم الإسلام، كان أولهم زيد بن حارثة بن شرحبيل بن كعب بن عبد العزى من الموالي، ومن الغلمان علي بن أبي طالب (وكان يومئذ ابن عشر سنين). ومن الرجال الأحرار أبو بكر الصديق»[١]. وقيل أيضاً إنَّ أول من آمن بالرسول وأسلم معه سراً من الرجال كان علي بن أبي طالب. وأول من أظهر الإسلام وأجهره أبو بكر الصديق، قاله محمد بن كعب. وذكر أن علياً كتم إيمانه خوفاً من أبيه، وهو أول من صلى مع النبي (ص). وفي ذلك، حدثنا عبد الحميد بن يحيى عن وعن بن عباس قال: بعث النبي (ص) يوم الاثنين وصلّى علي يوم الثلاثاء[٢].

واصل النبي إعلان دعوته، طالباً من قومه العودة عن الأصنام وتركها، وعبادة الله وحده لا شريك له. وشرح النبي لأبناء قومه سخف آلهتهم وعدم الجدوى منها واحتقرها، فمنهم من صدقه، ومنهم من عاداه، فالتفوا عليه وأرادوا أذيته، حتى جاء نفر منهم إلى عمه أبي طالب، فشرحوا له سلوك ابن أخيه، وبأنه سب آلهتهم وعاب عليهم دين آبائهم وأجدادهم. وطالبوه بأن يتوقف عن ذلك، أو تكون فيما بينهم صولة. «فردهم أبو طالب رداً جميلاً، ووعدهم بمخاطبة النبي في ذلك»[٣].

---

(١) سالم - ص ٣١٦.

(٢) ابن كثير - ج ٢ ص ٢٢.

(٣) ابن هشام - ج ١ ص ٢٦٥.

لم يتأثر النبي محمد (ص) بهذه الدعوات لوقف عزيمته والاستمرار بدعوته، بل واصل جهوده بعناد وتصميم غير آبه بمزاعم عبدة الأوثان من أهل قريش. وذلك نظراً لإيمان النبي القوي برسالته، وعمق قناعته بدينه الجديد، أدركت قريش ما يشكله هذا النبي من خطر عليها، وتهديد لمصالحها.

من هنا، وفي أول دعوته، واجه النبي إذاً صعوبات كثيرة، واستهزاء الكثيرين به وبدينه الجديد. حتى أن عمه أبو طالب لم يجاريه في دعوته، وقال له مرة بأنه «يريد البقاء على دين آبائه»[1]، أي على دين الوثنية وعبادة الأصنام. وكذلك فعل العباس، وحذا حذوه أبو لهب وغيرهم، وحاربوه وأذوه كثيراً إلى حين وفاته.

وبالنتيجة، فإن محمداً في النهاية استطاع أن يعلن دعوته وينشر تعاليم دينه الجديد على أهل قريش وقبائل العرب في مكة والمدينة. واشتد ساعد الداخلين في الإسلام، وأزدادوا بين صفوف الفقراء والمستضعفين والناقمين على الأوضاع.

ونستطرد هنا لنقول بأنه قد جرت عدة محاولات لجمع العرب وتوحيدهم قبل الرسالة المحمدية. إذ حاول قبل ذلك البيزنطيون، وسعوا إلى توحيد القبائل العربية في شبه الجزيرة تحت نفوذهم من أجل دعم قوتهم ضد الفرس، وكذلك فعل أبرهة الأشرم عند قدومه إلى مكة، والمحاولات التي جرت

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل ـ ج ٢ ص ٣٨.

للسيطرة على القبائل واخضاعها لسلطته، والاستفادة السياسية من توسيع حكمة على البلدان خارج اليمن[١]. وقيل إن الدوافع وراء حملة أبرهة على مكة، ومشروع سيطرته عليها، «كان يرمي من ورائه هدم الكعبة أو مهاجمة الفرس»[٢]. وزعم آخرون بأن أبرهة قد جاء مكة، «ليس للحرب وإنما قدم ليهدم البيت»[٣]. ولدى عزمه هدم الكعبة «برك الفيل بالمغمس (فلم يحرك)، ونخس بالرماح فلم ينهض، ثم بعث الله على الجيش طيراً، مع كل طير ثلاثة أحجار، فألقتها عليهم، فلم ينج منهم شفر»[٤]. وهذا الطير، هو الذي ألحق الهزيمة بجيش أبرهة، بالإضافة إلى الأمراض التي انتشرت. وقد ذكر المؤرخون في كتبهم وقالوا «بأن هذا الطير يشبه اليعسوب، فرمت على جيش أبرهة حجارة من سجيل، وهو طين خلط بحجارة خرجت من البحر.»[٥]. وهذا الطير جاء ذكره في القرآن الكريم بالأبابيل عند ذكره قصة أبرهة وأصحابه، بقوله تعالى: **﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول﴾**[٦]. وقد سمي منذ ذلك الوقت، ومنذ برك الفيل على الأرض ولم يعد

(١) المسعودي - ج ٢ ص ٣٨.
(٢) سالم - ص ٨٨.
(٣) ابن هشام - ج ١ ص ٤٧.
(٤) البلاذري - انساب الأشراف ص ٦٧.
(٥) المسعودي - ج ٢ ص ١٢٩.
(٦) الفيل - ١ - ٢.

يتحرك، بعام الفيل سنة (٥٧٠ م) وهو العام الذي ولد فيه محمد (ص).

وبالعودة إلى دعوة النبي (ص) والإجهار بدينه الجديد في مكة، انقسم الناس إلى فريقين اثنين: الأول: فقراء والثاني أغنياء.

كان الفقراء يمثلون المعدمين والمضطهدين والمظلومين من شدة الحال، ومن الرافضين لواقعهم والمحتجين على سياسة أصحاب السيطرة والجاه والنفوذ، وهؤلاء هم الذين بادروا إلى اعتناق الدعوة تحت يافطة مقاومة الظلم، ورفع الاضطهاد وقساوة العيش.

بينما الفريق الآخر من الأغنياء وأصحاب الأموال ومالكي الأرض، بادروا إلى رفض الدعوة، لأنها تهدد مصالحهم وتشكل خطراً من انتزاع السيطرة والسلطة من أيديهم، وهذا بالفعل ما جعل أسياد قريش، اعتبار الدعوة حرباً عليهم وعلى مصالحهم ومكانتهم السياسية والاقتصادية، فذهبوا إلى القول بأن ما أتى به النبي محمد هو سحر وشعوذة، واتهموه بأنه ساحر وشاعر، وحيناً آخر بأنه مجنون.

وفي هذا السياق، ذكر أنه عندما مر النبي على أبي جهل وأبي سفيان، قال أبو جهل لأبي سفيان: «أعجب أن يخرج غلام من بين شيوخ نبياً»(١). قاله البيهقي.

---

(١) ابن كثير - ج ٢ ص ٥٢.

كان النبي لا يفخر بالمال ولا يدانيه حسب زعم الرواة، وفي ذلك روي عن الإمام أحمد قال: قال رسول الله (ص): «عرض عليَّ ربي عز وجل أن يجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت لا يا رب أشبع يوماً وأجوع يوماً ـ أو نحو ذلك ـ فأذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك»[1].

ودأب النبي إلى بذل قصارى جهده لتوحيد الناس وجمع كلمتهم وشملهم على دين قويم، يدفعهم إلى التجمع ومواجهة الفرقة، ونبذ الخلافات. وبرز ذلك من الآيات التي نزلت كقوله تعالى: **﴿أقيموا الدين ولا تفرقوا﴾**[2] وكذلك الآية: **﴿ولا تنازعو فتفشلوا وتذهب ريحكم. . .﴾**[3] وأيضاً جاء في الآية الكريمة: **﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات. .﴾**[4] وكذلك الآية: **﴿واعتصموا بحبل الله ولا تفرقوا. . . ﴾**[5].

من هذا الوحي، أخذ النبي فكرة التوحيد وأظهر بُعدها الاجتماعي والسياسي في مواجهة زعماء وسادة قريش. وقد أظهر ذلك محمد (ص) في البيان ـ الوثيقة التي تبدأ: « . . . هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن

---

(١) ابن كثير ـ ج ٢ ص ٤٢.
(٢) الشورى ـ ١٤.
(٣) الأنفال ـ ٤٦.
(٤) آل عمران ـ ١٠٥.
(٥) آل عمران ـ ١٠٣.

تبعهم وجاهد معهم: إنهم أمة واحدة من دون الناس...»[1].

وهذه الدعوة من النبي محمد، تبرز أهمية العمل على توحيد الجهود والعقيدة الدينية الواحدة، وضرورة هذه الوحدة لإنقاذ المجتمع العربي الجاهلي آنذاك، من حالات التشتت والضياع والجهل، المنتشر في أرجاء الجزيرة العربية.

وما الآيات القرآنية إلا دعوة لجميع المتضررين من الزعامات، وتوحيدهم ضد قوى الظلم والسيطرة والنفوذ. وقد كان لهذه الدعوات أهمية بالغة في تحريك الوعي الطبقي في مجتمع قريش، وبروز تضامن لجميع القوى المتضررة من حكم وسلطة زعماء قريش، والتمهيد لخوض معركة عنوانها: إثبات الدعوة والانتصار لها. بينما في عمقها كانت ثورة اجتماعية وسياسية وفكرية ضد الواقع السياسي والاقتصادي القائم بكل رموزه وعناوينه ومضامينه المختلفة.

وبدأت رحلة النبي محمد، في تأسيس دين جديد يتمكن من خلاله كما ذكرنا، من جمع القبائل العربية وتوحيدها، وصعد ذات يوم إلى الصفا ونادى قومه يدعوهم إلى تصديقه، وقال لهم: **﴿إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد﴾**[2]. ودعا جميع القبائل والعشائر في قريش إلى عبادة الإله الواحد، فقال له أبو لهب: تباً، لك، سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله فيه قوله تعالى: **﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾**[3].

(١) هيكل ـ ص ٢٢٥.

(٢) سبأ ـ ٤٦.

(٣) المسد ـ ١.

واستمر النبي يدعو إلى الإسلام، وإلى الدين الجديد سراً، ويصول ويجول ليلاً ونهاراً؛ يدعو بكل جهد وأناة إلى الإسلام مدة ثلاث سنوات من مبعثه، إلى أن جهر بالدعوة عندما أمره الله تعالى بإظهار دينه[1]. فنزلت عليه الآية الكريمة: **﴿وانذر عشيرتك والأقربين﴾**[2].

لذلك، لم يتوقف النبي عن الإعلان عن دعوته، رغم ما واجهه من سخرية واستهتار كبراء قريش. واستمر بشجاعة يجاهر بتوحيد الله، وتسخيف آلهة قريش وأصنامهم، مما أثار حفيظة أسيادهم، وشعروا بالخطر الداهم، فقصدوا أبا طالب للمرة الثانية وقالوا له: «ياأبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك، فلم تنهه عنا وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين.»[3] ووعدهم أبو طالب بتسليمه لهم. وعند التحدث مع ابن أخيه، قال له النبي: «ياعم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره أو أهلك فيه ما تركته»[4].

وأخذ تسلط قريش ومشركيها يزداد على النبي وعلى أصدقائه وأتباعه، والأبرز فيهم كان أبو لهب وإمرأته أم جميل

---

(١) محمد جمال الدين مرور ـ قيام الدولة العربية الإسلامية ـ ص ٦٢.

(٢) الحجر ـ ٩٤.

(٣) سالم ـ ص ٣١٨.

(٤) سالم ـ ص ٣١٨.

أروى بنت حرب، حتى بلغ الأمر «بأبي لهب أن يطرح الأقذار النتنة والأوساخ على باب النبي، وزوجة أبي لهب تضع الشوك في طريق النبي»[١].

وأرتفعت نسبة العداوة للنبي ومناوأته لدينه وأتباعه. وأخذت تتصاعد وتيرة العداوة إلى حدود التعذيب لكل من أسلم مع النبي من القبائل والعشائر. فكان تعذيب بلال بن رباح مولى أبي بكر، ذاع صيت تعذيبه، وعمار بن ياسر؛ حتى أن أبا جهل رمى سمية أم عمار بحربة فأرداها قتيلة. فكانت أول شهيدة في الإسلام[٢].

تصاعد الضغط على النبي محمد وعلى أتباعه، واستمر النبي في صراعه ومواجهته، ويقوم بما أمره الله، ويفعل المعجزات. وقد حصل مرة، عن ابن اسحق قال: «دعا النبي الشجرة كي تأتيه فأتته، ثم قال لها إرجعي فرجعت. .»، فذهب يزيد بن ركانه إلى قومه قائلاً: «. . .ساحروا بصاحبكم أهل الأرض فوالله ما رأيت أسحر منه قط. . .». وروى أبو بكر الشافعي عن ابن عباس قال: «إن يزيد بن ركانة صارع النبي (ص) فصرعه النبي ثلاث مرات وكل مرة على مئة من الغنم. . . فالنبي عدا عن كونه راعياً وهادياً ومبشراً، كان مصارعاً تهابه الرجال. .»[٣].

---

(١) البلاذري ـ ص ١٢٢.

(٢) ابن هشام ـ ج ١ ص ٣٢٠.

(٣) ابن كثير ـ ج ٢ ص ٨٣ ـ ٨٤.

ولم يكن أمام النبي محمد (ص) بعد أن وجد نفسه منساقاً مع جماعة أيدت رسالته وقبلت بها، وهم، أبو بكر وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، إلا أن يقبل بهذا الواقع ويندفع إليه ويستغله كركيزة لانطلاقته المؤثرة، بعد تخلي أهله عنه، حتى من أقرب أقربائه من بني هاشم وبني عبد شمس وغيرهم. إذ عادوه معاداة قوية وعاملوه بقسوة، كعمه أبي لهب، وعمه العباس، وكذلك عمه أبو طالب الذي حباه ورعاه، فلم يقبل بدعوته ومات وثنياً.

وقد حصل مرة، أن جاء النبي نفر من المشركين فقالوا له: «إن كنت صادقاً فشق لنا القمر، نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قعيقعان. فقال لهم النبي (ص): إن فعلت تؤمنوا؟ قالوا: نعم. وكانت ليلة بدر فسأل الله عز وجل أن يعطيه ما سألوا، فأمسى القمر قد سلب نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قعيقعان...»[1]. وعندها نزلت الآية: **﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾**.[2] وقال آخرون في ذلك إنه سحر واصب، ولعله انشقاق في ليلة كسوفه.

واتسعت الدعوة وانتشرت بين أهل مكة، ودخل الإسلام كثيرون أمثال عمر بن الخطاب، الذي قيل إنه لم يعتنق الإسلام إلا في السنة السادسة من البعثة[3]. وزاد المعتنقون للإسلام،

---

(١) ابن كثير - ج ٢ ص ٨٣ - ٩٦.

(٢) القمر - ١.

(٣) ابن هشام - ج ١ ص ٤٣٢.

وزاد المشركون في دعوته ظلماً. كما ازداد عليه الضغط بإبراز المعجزات وإثبات دعواه. وعمه أبو طالب لم يدخل في الإسلام، إنما بقي حامياً وحاضناً لابن أخيه ومدافعاً عنه.

وبالرغم من تجنيب أبو طالب أهل قريش من التعرض لابن أخيه، فقد تفاقمت الأمور وخرجت من يد أبي طالب، أمام إصرار أبي لهب وجماعته بمقاومة النبي وطرده أو قتله.

وارتفعت وتيرة الأذى، وصبر النبي محمد والمسلمون معه على ذلك. وكانت أياماً أو مرحلة قاسية على النبي (ص). وبلغ منهم الأذى والقتل والتعذيب مبلغاً، مما دفع بالنبي (ص) بالإشارة على أتباعه كي يتفرقوا في الأرض. فسألوه أين نذهب؟ فنصحهم بالذهاب إلى بلاد الحبشة المسيحية قائلاً: «إن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه»[1]. وقد اضطر النبي إلى اتخاذ هذا القرار قسراً، ولما عرف عن ملكها من العدل ونصرة الحق. وطلب إليهم البقاء حتى يجد ما في حال الامور من إمكانية التبديل فيه. ولا بد من الإشارة هنا إلى أنه كان للنبي من وراء ذلك عدة أهداف، أوجزها الدكتور أحمد الشريف بمغزيين.

الأول: أن يتمكن من الحصول على مساعدتهم في دخول مكة.

الثاني: إفهام القرشيين بأن استمرار عدوانهم على المسلمين

(١) هيكل ـ ص ١٥٣ ـ ابن هشام ـ ج ١ ص ٣٢٢.

قد يضطرهم إلى طلب المساعدة من الخارج[1]. بينما أضاف الدكتور عبد العزيز سالم غرضاً ثالثاً قصده النبي من خلال دعوته إلى الهجرة إلى الحبشة، وهو أن الحبشة تعتبر مركزاً مسيحياً هاماً، وهي التي تصدت للحميرين وذي نواس عندما تعرض نصارى نجران للقتل، فانتهز النبي الفرصة، واختار الحبشة لكسب تأييد دعوته من شعب مؤمن بالمسيحية واجتذاب أفواج جديدة للانخراط في دين الإسلام، باعتبارهم أهل كتاب[2]، وقد يصح نجاح هذه الفكرة بدليل ما ذكره ابن هشام، بأن النجاشي نفسه كان قد آمن بالإسلام وبمحمد[3].

والغاية من هذا كله، هو أن محمداً (ص) قد عزم وأشار على أتباعه بالهجرة الأولى إلى الحبشة، لما لاقوه من بلاء واضطهاد أهل قريش. فأذن لهم بالهجرة لتلافي ما هو أسوأ. وقد اعتمد النبي في ذلك على ما لاقاه من أبناء الحبشة، وخصوصاً أهل نجران، من تأييد لدعوته ونصرته، فقد ذكر ابن هشام أن نفراً من عشرين شخصاً قدموا مكة من نصارى الحبشة، فآمنوا بالنبي وصدقوه، وقيل إنهم من أهل نجران[4]. وهم الذين نزلت فيهم الآية بقوله: **﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به مؤمنون﴾** وكذلك في الآيات: **﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود**

(١) أحمد الشريف ـ الدولة الإسلامية الأولى ص ٤٦.
(٢) سالم ـ ص ٣٢٠.
(٣) ابن هشام ـ ج ١ ص ٣٩٢.
(٤) ابن هشام ـ ج ١ ص ٣٩٢.

والذين أشركوا. ولتجدن أقربهم للذين آمنوا قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾[١].

وكان أن هاجر في الهجرة الأولى أحد عشر رجلاً وأربع نساء، تسللوا من مكة لواذاً[٢]، وأقاموا بجوار النجاشي وحمايته. فلما عرف المسلمون من أخبار الأمان والأطمئنان، واكبهم هجرة ثانية إلى الحبشة، «فانتهى عدد من هاجر من المسلمين إلى الحبشة، ثلاثة وثمانين رجلاً بخلاف الزوجات والأبناء»[٣]. وذكر آخرون بأن الرعيل الأول من المهاجرين إلى الحبشة «كانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، ركبوا سفينتين من ميناء الشعيبية. . . وخرجت قريش في أثرهم، فلم يدركوا منهم أحداً»[٤] وقيل إنه لما وصل وفد المهاجرين إلى الحبشة، ونزلوا عند النجاشي وذكروا له ما يقول الله في عيسى ابن مريم. قال لهم: «إنزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك، لأتيته حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه. . .» رواه البيهقي وابن إسحق.

ولم تتوقف قريش عن اقتفاءِ أثرهم، بل جرت محاولات أخرى لتعقبهم، فأرسلوا رسلاً إلى النجاشي تطالبه بتسليم المهاجرين، لأن «قومهم أعلى بهم عيناً»[٥]. ورفض النجاشي

---

(١) المائدة ـ ٨٢.

(٢) هيكل ـ ص ١٥٣.

(٣) ابن هشام ـ ج ١ ص ٢٠٤ وابن كثير ـ ج ٢ ص ٩.

(٤) ابن سعد ـ ج ١ ص ٢٠٤.

(٥) ابن هشام ـ ج ١ ص ٣٢٥.

الاستجابة لطلبهم، بعد أن استمع ملك الحبشة إلى جعفر بن طالب، الذي ألقى كلمة مؤثرة أبكاه فيها مع بطاركته وأساقفته. وأعجب النجاشي بهم، فرحب بالمسلمين وأمنهم في أرضه، واوعد من يتعرض لهم بسوء[١]. وكان النجاشي رد هدية قريش إلى أصحابها، ولم يقبلها، وهي عبارة عن فرس وجبة ديباج[٢]. وذكر ابن كثير، أن قريشاً طالبت رد المهاجرين من أرض الحبشة مرتين: الأولى مع عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد، والثانية مع عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة[٣].

وأقام مهاجرو مكة في أرض الحبشة بأمان وحرية، معززين مكرمين مدة من الزمن، قيل إنها ثلاثة أشهر أسلم أثناءها عمر بن الخطاب[٤]. فلجأت قريش إلى الحيلة والخداع، وحبك مشركوها مكيدة زعموا فيها أن مكة أعلنت إسلامها بالجملة، واصطلحت مع النبي (ص). فكان أن صدَّق بعضهم المؤامرة، فعاد قسم منهم متخفياً، من بينهم عثمان بن عفان وزوجته. واكتشفوا أن الأمر خدعة، وتعرض المهاجرون العائدون إلى اضطهاد وتعذيب على أيدي أهل مكة، وأذوهم أشد الإيذاء. فما كان من النبي، إلا أن سمح لهم بهجرة ثانية إلى الحبشة. ثم ما لبث أن رجع قسم من المهاجرين إلى مكة، والباقون عادوا بعد

(١) ابن هشام - ج ١ ص ٣٣٤.
(٢) ابن كثير - ج ٢ ص ١٨.
(٣) ابن كثير ج ٢ ص ٢٧.
(٤) هيكل - ص ١٦٠.

فترة إلى المدينة بعد غزوة خيبر[1]. وقيل بسبب أن الحبشة شبت فيها ثورة على النجاشي.

وتصاعدت وتيرة الاضطهاد بحق النبي (ص)، وتعرض مع أتباعه لأشد صنوف العذاب، فاضطهدوه ورموه بالحجارة، وحاصروه وقومه في الشعب بجوار مكة ثلاث سنوات، قطعت قريش عنهم خلال هذه المدة، الميرة حتى بلغهم الجهد... ومات نفر منهم[2].

وقد تساءَل بعض المؤرخين بالقول: «كيف أمَّن محمد على أصحابه هؤلاء، أن يذهبوا إلى أرض الحبشة النصرانية... ولا يخاف عليهم من فتنة وهي أشد من قريش فتنة»؟[3].

وفي المقابل يُطرح أمامنا السؤال التالي: كيف يرسل النبي أتباعه إلى الحبشة ليأمنهم، بينما بقي هو في مكة تحت رحمة هؤلاء القساة، وتحت وطأة كرههم وحقدهم عليه؟ كيف لم يتعرض أهل مكة للنبي وتركوه مدة عشر سنوات في مكة حراً طليقاً، يدير شؤون أتباعه، وينظم لهم اساليب ومشاريع إنقاذهم، والتخطيط للمستقبل؟ ولأنَّ قريشاً من كان يهددها ويهدد مصالحها، هو النبي (ص) صاحب الفكرة والدعوة، وليس أتباعه!!!

في أي حال. في العام العاشر من البعثة، قيل بأنه اشتد

---

(١) ابن سعد ـ ج ١ ص ٢٠٧.

(٢) ابن سعد ـ ج ١ ص ٢٠٩.

(٣) هيكل ـ ص ١٥٧.

أذى قريش للنبي (ص) ولأصحابه. وفي مكة فقد النبي دعامتين أساسيتين خلال هذه الفترة كانتا له، وهما: وفاة عمه أبو طالب، وزوجته خديجة. فبغياب هاتين الدعامتين، نالوا منه أشد ألوان العذاب على ما يزعم الإخباريون، وما ورد في كتب السيرة، مما اضطر النبي هذه المرة إلى خروجه من مكة إلى الطائف في ٢٧ شوال سنة ١٠ من النبوة[١] وقد كان برفقته زيد بن حارثة مولاه[٢]. والتمس النصرة من ثقيف، فامتنعوا عنه وسبوه. وذكر أن أهل الطائف اصطفوا صفين في طريقه، ورموه بالحجارة، وحاول زيد بن حارثة أن يقيه بنفسه حتى شج من رأسه شجاج[٣].

وفي رواية أن النبي (ص) عندما ذهب إلى الطائف يدعو أهلها إلى الإسلام ورفضوا دعوته، أخذ عداس (وهو رجل من أهل نينوى) طبقاً من العنب وقدمه للنبي (ص)، ولما وضع النبي يده فيه قال: «بسم الله. فقال عداس: هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد... وسأله النبي عن بلده، فقال عداس: أنا من أهل نينوى. فقال النبي محمد: أنت من قرية الرجل الصالح يونس بن متى. فعجب من معرفة النبي، وقبَّل يديه ورجليه ورأسه...»[٤].

(١) ابن هشام - ج ١ ص ٤٢١.
(٢) ابن سعد - ج ١ ص ٢١.
(٣) ابن سعد - ج ١ ص ٢١٢.
(٤) ابن كثير - ج ٢ ص ١٠٨.

بعد رحلة النبي المؤلمة إلى الطائف، قرر العودة إلى مكة[١]. دون أن يستجيب لدعوته رجل واحد. وفي مكة أخذ النبي محمد يجول بين القبائل يدعوهم إلى الله، ويسألهم أن يصدقوه، ويصدقوا رسالته السماوية، وكان من بين الذين اتصل بهم: بني كندة، فدعاهم إلى الإسلام، وبني حنيفة فأعرضوا عنه، وبني عامر بن صعصعة فأبوا عليه أيضاً[٢].

ولم يتحقق للنبي محمد (ص) ما رغب به من مناصرة القبائل، إلى أن لقيه نفر من الأوس، فصدقوه وناصروه، ورهط آخر من الخزرج من يثرب صدقوه وأسلموا على يديه.

وفي السنة الثانية عشرة من النبوة، قدم إلى موسم الحج نفر من الأوس والخزرج، وطلبوا الإجتماع بالرسول فلقوه بالعقبة، فبايعوه عندها بيعة النِّساء وهي العقبة الأولى. وفي العام الثاني سنة ثلاث عشرة للنبوة، قدم إلى مكة رهط من الأنصار، فكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين[٣]، وقابلوا النبي في الشعب عند أسفل العقبة بمنى، وخاطبهم النبي قائلاً: «أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم». وقيل إن العباس كان معهم وألقى كلمة أيد فيها النبي (ص) بقوله: «يامعشر الخزرج، إن محمداً منا حيث قد علمتم... فإن كنتم ترون أنكم وافون له... فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده...»[٤].

---

(١) ابن هشام - ج ١ ص ٤٢١.
(٢) ابن هشام - ج ١ ص ٤٢٦.
(٣) البلاذري - ج ٢ ص ١٩٧.
(٤) ابن سعد - ج ١ ص ٢٢٢.

وكانت البيعة الثانية هذه، قد عرفت ببيعة الحرب، لأن الرسول وعدهم فيها على حرب الأسود والأحمر. وانتقل النبي من مكة إلى يثرب لإخفاء أمر البيعة عن قريش، لأنه لم يكن قد أمر بالقتال بعد في ذلك الوقت.

ولما أزداد ظلم القرشيين، واضطهادهم المسلمين، حتى بلغ الأمر أن فتنوا البعض عن دينهم، ففروا إلى الحبشة والمدينة، واستمرت تلك الحال، إلى أن أذن الله له بالقتال بنزول الآية الكريمة؛ **﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾**[1]. وتبعتها آية أخرى: **﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين لله﴾**[2]. كما نزلت آيات مماثلة تدعو النبي إلى القتال في سبيل الله، كما ورد في الآية: **﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة...﴾**[3]. وبعد نزول هذه الآيات أمر النبي محمدٌ أتباعه بالهجرة إلى المدينة، واللحاق بإخوانهم الأنصار من الأوس والخزرج. فاجتمع أهل قريش في «دار الندوة» للتوقف عند رأي، أو اتخاذ موقف حاسم حيال موضوع النبي (ص).

وهنا لا بد من القول بأن قرار النبي محمد (ص)، كان فيه شيء من الحكمة في المعالجة، إذ كان يشعر بأنه مازال ضعيفاً، وليست لديه القدرة على مواجهة التحديات. فأعتمد أسلوب

---

(١) البقرة ـ ١٩٠.

(٢) البقرة ـ ١٩٢.

(٣) النساء ـ ٧٤.

الاختيار الموافق للواقع الذي يواجهه، بما يحفظ قوته الموجودة وبما يسمح لتنامي فكرته ودعوته بأقل الخسائر الممكنة. وهذا ينطبق على حديث للرسول حين قال: «سيروا على سير أضعفكم». وهي مسألة في غاية الأهمية. وكان يرمي إلى تجميع أكبر عدد ممكن من الفقراء والبؤساء والرافضين والمظلومين حوله، كبداية لإشعال نار الثورة بوجه الطغاة فيما بعد، وهذا ما حصل بالفعل. كذلك لأنه كان يعرف أن هؤلاء الضعفاء، هم الأكثرية الساحقة من الناس، وبهم يمكن قلب المعادلة، وتحويل الأمور كلها لصالحه وصالح دعوته وديانته الجديدة.

وتآمر القرشيون على النبي (ص) وحاولوا اغتياله، فعرف النبي بالأمر. فنزلت عليه الآية الكريمة تطالبه بعدم المبيت في فراشه في تلك الليلة: بقوله تعالى: ﴿**وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك**...﴾[١]. وعهد إلى ابن عمه علي بن أبي طالب أن يبيت في فراشه. وذهب النبي محمد إلى دار أبي بكر، ورحلا في طريق يثرب حتى وصلا غار ثور، فدخلاه وأمضيا فيه ثلاثة أيام، وكانت أسماء بنت أبي بكر معهما، وعرف الذين حاصروا دار النبي، بأن في الداخل علياً وليس محمداً. فخرجوا يقتفون أثره حتى انتهوا إلى باب الغار، فوجدوه قد نسج على بابه نسج العنكبوت، وبأن حمامتين باضتا على بابه ونمت شجرة لم تكن نامية. وفي ذلك يقول المستشرق در منجم: «...نسيج عنكبوت، وهوى حمامة، ونماء شجيرة،

(١) الأنفال ـ ٣٠.

هي أعاجيب ثلاث لها كل يوم في أرض الله نظائر»، فعرفوا أن النبي من غير المعقول أن يدخله فانصرفوا عن الغار. بعد ذلك رحل النبي مع رفيقه أبي بكر إلى يثرب، وكان المسلمون قد سمعوا بقدومه فخرجوا للقائه. وسار النبي على راحلته حتى توقفت ناقته في مربد للتمر لغلامين يتيمين يقال لهما سهيل وسهل. فقال الرسول: «هذا إن شاء الله المنزل»[١]. وفعلا فقد اشترى النبي فيما بعد هذا المكان من الغلامين، وبنى مكان المربد مسجده ومساكنه.

وشرع الرسول (ص) في بناء مسجد للمسلمين في مكان المربد الذي قيل إنه كان فيه قبور للمشركين ولآخرين، فأزال النبي كل ما حواه المربد، وسوَّى الأرض[٢]، وبنى المسجد على شكل مربع أساسه من الحجارة. وأقام للمسجد ظلَّة، فاستخدم جذوع النخل سواري للقبلة المسقوفة[٣]، ثم بنى بجواره بيوتاً لأزواجه كانت أبوابها شارعة فيه[٤]، ومجموعها تسعة بيوت، أضيفت كلها إلى المسجد بعد موت أزواج النبي[٥]. وقد شكل المسجد منذ ذلك الحين، بالإضافة إلى كونه مركزاً للصلاة، مركزاً للقاء المسلمين يتشاورون فيه بجميع الأمور والشؤون التي

---

(١) سالم - ص ٣٣٨.
(٢) ابن سعد ج ١ ص ٢٤٠.
(٣) السمهودي - ج ١ ص ٢٣٩.
(٤) السمهودي - وفاء الوفا - ج ١ ص٣٦٦.
(٥) ابن كثير - ج ٢ ص ٣١٤.

تتعلق بحياتهم ومصيرهم على جميع الص عد، وفي حالتي السلم والحرب.

واللافت هنا، أن المسجد قد تحول تلقائياً إلى مركز استقطاب على غرار ما كان سائداً في السابق في ما يسمى «بدار الندوة». وقد يكون استحداث النبي للمسجد، كموقع تجتمع فيه المراجع للتشاور والحوار، بديلاً عن فكرة «دار الندوة» والتي كان له معها قصة طويلة منذ شبابه وحتى يوم زواجه، إذ كانت «دار الندوة» محرمة على النبي (ص) قبل زواجه من خديجة. بينما بعد زواجه صارت «دار الندوة» مفتوحة أمام النبي (ص) ويشارك في اجتماعاتها ولقاءاتها للبحث في شتى الشؤون التي تهم أهل مكة.

واستطاع النبي محمد (ص) بعد ذلك من أن يصبح «رئيساً لأحزاب غير متجانسة»[1] كما يذكر الدكتور سالم، بعد أن وحدها وجمع كلمتها تحت راية الدين الإسلامي. فربط بين المهاجرين والأنصار برابطة المؤاخاة، وجمع بين الأوس والخزرج، وطرح شعار الجهاد فيما بعد، الذي كان له الأثر الكبير من الناحية السياسية في تكوين خصائص جديدة للدولة المدنية كما يذكر سالم أيضاً.

وموضوع الدعوة إلى الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، كان له أثر بالغ وصدى واسع وتقبل كثيف لدى جميع المسلمين، وكان لهذه الدعوة، وهذا الميل، وكذلك الانتصار لفكرة الجهاد مجموعة عوامل، كان لها الأثر الكبير في نجاح الغزوات، ونجاح

---

(١) سالم ـ ص ٣٤١.

مشروع النبي (ص) في بناء دولته الكبرى.

فكان الفقر والتخلف هو سر الشهادة، وسر الذهاب إلى الموت، نظراً لما عانى منه عرب القبائل والبادية من عوز وقلة موارد وبؤس على المستويين الاقتصادي والاجتماعي، مما جعله يندفع إلى قبول فكرة التحدي والانتقام حتى الاستشهاد، من أجل التغيير وتحسين الأوضاع. وقد اندفع لذلك، لأنه الذي يدفعه، لا يجعله يندم، وليس عنده شيء يخسره أو يفقده. ولطالما لا يملك شيئاً يخاف عليه. ولن يأسف على شيء عزيز، فأن طريق الجهاد والاستشهاد هو الدافع والحافز إلى تنشيط الفكرة واستنشاقها بمحبة ولهفة ندر أن حصلت في ذلك العصر.

وللتدليل على ذلك، فأن العرب في عصر الجاهلية كانوا يحبون الحياة كثيراً، ويقتلون ويسرقون ويسلبون من أجل البقاء. وفي عصر النبوة والإسلام، تدافع الناس بالجملة إلى الشهادة والموت في سبيل الله، والدفاع عن الدين الجديد، الذي وجدوا فيه حلمهم وخلاصهم من الفقر والحاجة والتشتت، وفرجهم من العذاب الذي يلاقوه في الدنيا. ومن ثم سرى اقتناع بفكرة أن الشهادة توصله إلى نعيم دار الآخرة وفردوسها الموعود به. وكان لهذا الوعد أثر كبير في نفوس هؤلاء العرب الذين كانوا يتوقون إلى التخلص من صعوبة الحياة والعيش، والانتقال إلى راحة النفس ومتاعها في الحياة الآخرة. وعندما انتصر الإسلام وحقق العرب الفتوحات الواسعة، وبنوا الدولة الكبرى، وغنموا من الحروب والبلدان المفتوحة كل ما تشتهيه العين، وعرفوا الرفاه

والثراء، لم تعد فكرة الشهادة لها نفس الوهج والتقدير، ومال الناس إلى النعيم والتعلق بالملذات وملاحقة الرغبات والركض خلف الشهوات. مما جعل الحياة الاجتماعية والاقتصادية تشهدان تطوراً كبيراً، وكذلك الحياة الفكرية والثقافية ومستوى الوعي، الذي لعب دوراً هاماً في مستوى الحياة عند الناس، وبالتالي، جعل تقبل فكرة الشهادة أمراً تختلف فيه نسبة المؤيدين والمتحمسين لها حسب درجة الثقافة والوعي. ذلك لأنه كلما ارتفعت نسبة الوعي في عقل الإنسان، صار المنطق أقرب إلى فهم الواقع، وتالياً هاجر وابتعد عن مسلكية الخيال والتهور.

وبالفعل فقد توثقت وحدة المسلمين في المدينة، بعد أن كانوا قبائل مختلفة فيما بينها. وشكلوا بذلك وحدة متينة تحت شعار التآخي الذي طرحه النبي (ص)، مما جعل الأقوام الأخرى تحسب لهم ألف حساب، ثم وضع وثيقة هامة سميت بالصحيفة، تضمنت تنظيماً عاماً للحياة الاجتماعية في المدينة، وتحديد العلاقات بين أهل المدينة المسلمين وبين يهودها، فاعتبرت الوثيقة بحق، دستور الدولة خصوصاً لجهة توحيد القبائل وإزالة الحدود بينهم، وجمعهم في أمة واحدة استجابة للآية الكريمة في قوله تعالى: **﴿وكنتم خير أمة أخرجت للناس...﴾**[١]. وهذا نص الوثيقة كما أورده ابن هشام نقلاً عن ابن إسحق وكما ذكره ابن كثير والمقريزي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي(ص)

---

(١) آل عمران ـ ١١٠.

بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم. إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم[١]. يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم (الاسير) [٢] بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم،يتعاقلون معاقلهم[٣] الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو جشم يتعاقلون معاقلهم الاولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الاوس على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الاولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وأن لا يتركون مفرحاً[٤] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل، وأن لا يخالف مؤمن

---

(١) ربعتهم: أي الحالة التي كانوا عليها عند ظهور الإسلام.

(٢) العاني أي الأسير.

(٣) جمع معقلة بمعنى الدية.

(٤) المفرح، أي المثقل بالدين كثير العيال.

مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[1] ظلم، أو إثم أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس، وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يُعقب بعضها بعضاً، وأن المؤمنين يبيء[2] بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله، وإن المؤمنين المتقين على أحسن هذي وأقومه، وإنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن، وأنه من اعتبط[3] مؤمناً قتلاً عن بيّنة فإنه قَوَدٌ به إلا أن يرضي وليَّ المقتول، وأن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه، وإنه لا يحلّ لمؤمن أقر بما في هذه الصفحة، وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل. وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فأن مرده إلى الله عزّ وجلّ، وإلى محمد (ص)، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما

(١) دسيعة: عطية.

(٢) يكف ويمنع.

(٣) أي قتله بدون سبب يستدعي ذلك.

داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ[1] إلا نفسه وأهل بيته، وان ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وان ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف، وإن ليهود بني الاوس مثل ما ليهود بني العوف، وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه واهل بيته، وإن جفنة بطنٍ من ثعلبة كأنفسهم، وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وإن البر دون الإثم، وان موالي ثعلبة كأنفسهم، وان بطانة[2] يهود كأنفسهم، وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد(ص)، وإنه لا ينحجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك، وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبرّ هذا[3]، وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الأثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفة، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفُها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غيرَ مُضار ولا آثم، وإنه لا تُجار حرمة إلا بإذن أهلها، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حَدث أو اشتجار يُخاف فساده، فإن مرده إلى الله عزّ وجلّ، وإلى محمد رسول الله

(١) يوتغ نفسه: يهلك نفسه.

(٢) بطانة أي خاصة، وبطانة اليهود أي ذووهم وأهل بيتهم.

(٣) أي يرضى به.

(ص)، وإن لله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره[1]، وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعُوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الدين، على كل إناس حصّتهم من جانبهم الذي قبلهم، وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسبٌ إلا على نفسه، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وإنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثِم، وإن الله جارَ لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله (ص)»[2].

بعد إبرام هذه الوثيقة ـ المعاهدة بين محمد واليهود، أخذت شعبية النبي (ص) تزداد بين أهل المدينة الذين أخذوا يلتفون حوله، مما أثار مخاوف حقيقية عند اليهود، فبدأوا يفكرون مجدداً في صلحهم بعدما أخفقوا من محاولة ضمه إلى صفوفهم[3] كي تتعزز قوتهم إزاء النصارى وتشتد في وجههم. هذه المخاوف دفعت باليهود إلى العمل لوقف امتداد نفوذ النبي

(١) أي أن الله وحزبه المؤمنين على الرضا به.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج ١ ص ٥٠١ ـ ٥٠٤، ابن كثير، ج ٢ ص ٣٢١ وما يليها ـ المقريزي، امتاع الإسماع، ص ٥٠.

(٣) هيكل ـ ص ٣٣٣.

(ص) وبدأوا بنشر الأخبار والأكاذيب، وكذلك نشطت عمليات الدس بين صفوفهم لمهاجمة النبي (ص) والترويج بأن رسالته فيها شك وأسئلة، وحاولوا اكثر من مرة إثارة الفتنة والوقيعة بين الأوس والخزرج، ودخل اليهود مع النبي (ص) في حرب جدلية طويلة حول أمور الله والدين والخلق. وقد سألوا محمداً: «إذا كان الله قد خلق الخلق، فمن خلق الله؟ وكان يجيبهم بالآية الكريمة: **﴿قل هو الله أحد﴾**[١]. وبلغ خصام الجدل إلى حد الاعتداء والاشتباك بالأيدي[٢] واشتد كره اليهود لمحمد وتفاقم، وعلم نصارى نجران بالخلاف القائم بين المسلمين واليهود، فأوفدوا ستين رجلاً للاستطلاع، وبغية تعميق الخلاف والأزمة بين الطرفين، ظناً منهم بأنهم يرتاحون من دسائس اليهود وعدوان العرب عليهم، فاجتمعت الأديان السماوية الثلاثة لأول مرة في التاريخ في مدينة يثرب. وكان هذا اللقاء ـ المؤتمر، له خلفيات سياسية وأطماع في السلطة والسيطرة. وقد رد محمد (ص) عليهم بالقول، كما جاء في قوله تعالى: **﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون لله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون﴾**[٣].

بعد هذا المؤتمر، تراجع النصارى، ولم يلاعنوه، فتركوه

---

(١) الإخلاص ـ ١.

(٢) هيكل ـ ص ٢٣٦.

(٣) آل عمران ـ ٦٤.

على دينه وذهبوا إلى دينهم. بينما كانت حرب الجدل بين محمد واليهود، أشد قسوة وإيذاء من حرب قريش على النبي (ص)، إنما يمكن القول، بأن محمداً قد نجح بالفعل في خطته ومشروعه، وأوجد أرضيَّةً صلبة للانطلاق بهدفه إلى مكة، وإشعال ثورته من هناك، لأن فيها كعبة بيت إبراهيم ومكان حجهم وحج العرب جميعاً[١].

وبالعودة إلى الوثيقة، فقد تركت أمر فض أي نزاع يحصل في الداخل، إلى الله ولرسوله، كالقول: «إنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله (ص)». والهدف من هذا النص واضح، إذ يكرس سلطة دينية عليا تسيطر على جميع الناس، وبالتالي تكريس سلطة ضمنية برئاسة النبي (ص) على الدولة الإسلامية في الناحية السياسية[٢].

لكن الأهم من ذلك كله، هو ما أعطاه النبي (ص) من حرية للديانات الأخرى بممارسة حقوقها وطقوسها وخصوصاً اليهود، شرط عدم التآمر على المسلمين، وهو شرط كان ضرورياً لتقوية دعوته وانتشار رسالته بأجواء غير معرقلة، وبالتالي تجنيب المسلمين أي صراع داخلي مع الآخرين، في الوضع الذي مازالوا في بداياته، وريثما تتعزز قاعدة المسلمين الشعبية، بما تمكنهم من خوض معارك ناجحة لثورته الفتية، ولهذا شرع الباب أمام الراغبين في دخول الدين الإسلامي.

---

(١) هيكل ـ ص ٢٤٠.

(٢) سالم ـ ص ٣٥٤.

ولأجل ذلك، لم يستخدم النبي محمد، القوة ويعلن الجهاد، إلا بعد حصول خطرين هددا فكرة بناء دولة المدينة، وهما:

- نية قريش في القضاء على المدينة

- المؤامرات التي كان يعدها اليهود في الخفاء مع اعداء الإسلام في الخارج. وفي تلك الحالة، ولمواجهة هذين الخطرين، نزلت الأية الكريمة **﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا ان يقولوا ربنا الله...﴾**[1]. ثم تتالى نزول الآيات التي شكلت مرحلة تمهيدية، شحنت خلالها النفوس وحركت عواطف المسلمين نحو هدف القتال، من أجل الدفاع عن النفس ورد العدوان المنتظر. وكانت الغاية أيضاً توحيد الجهود وجمع الكلمة ولمّ الشمل ومنع مشاريع الفتنة من النجاح، وتفويت الفرصة على اللاعبين بالنار، فنزلت الآيات الربانية بواسطة جبريل ليعلن الثورة والجهاد في سبيل الله، وتثبيت الدين الحق كما يرى المسلمون. فكانت الآيات على التوالي:

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئاً

---

(١) الحج - ٣٩ - ٤٠.

(٢) الأنفال - ٣٩.

وهوخير لكم وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم. . ﴾[1].

وكذلك الآية:

﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل. . . ﴾[2].

وتمثلت الآية التالية بدعوة أهل الكتاب جميعاً للقتال في سبيل الله، فيقول تعالى: **﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده. . . ﴾**[3].

ومن هنا، ومن بعد إعلان الصحيفة الوثيقة، وتشريع الجهاد والقتال في سبيل الله، انتقل النبي (ص) إلى مرحلة جديدة من حياة المدينة. فبدأ بتعزيز الحياة الداخلية للمسلمين، وبتمتين العلاقات الأخوية فيما بينهم من جهة، والإطلالة على أهل الكتاب من جهة أخرى، بالإضافة إلى آخرين انخرطوا في الحرب مع المسلمين ضد المشركين واليهود.

وما ميل النبى (ص) إلى استمالة يهود المدينة إليه[4]،

---

(١) البقرة ـ ٢٦.

(٢) البقرة ـ ١٩٠ ـ ١٩١.

(٣) التوبة ـ ١١١.

(٤) توماس أرنولد ـ الدعوة إلى الإسلام/ ترجمة د. حسن أبراهيم حسن ـ ٤٧.

وكذلك استرضائهم لكسبهم وتحييدهم عبر كتاب الموادعة الوارد في الصحيفة، والذي ينص على منح اليهود حرية ممارسة شعائرهم الدينية، ثم إعلان مساواتهم السياسية بالمسلمين وبغيرهم من الذين هم جزء من تكوين الأمة، إلا دلالة على حسن نية النبي محمد (ص). ولهذا، فقد بنى المسجد في المدينة، ووجه القبلة إلى بيت المقدس حيث يوجد هيكل سليمان لفترة تجاوزت الستة أشهر، ولكن اليهود لم يبادلوه بنفس النوايا الطيبة، بل لجأوا إلى المداورة والمداهنة وأخذوا يحاربونه بسلاح فتاك، هو سلاح الدس والتآمر والخداع، خصوصاً لما وجدوه من قدرة عند النبي محمد على التأليف بين القبائل وتجميعها.

وتنبه الرسول (ص) إلى ما يقوم به اليهود ويعدون ضده من خبائث ومشاعر دينية حاقدة، فتظاهروا زيفاً بالوداعة والرضا بادىء الأمر، وبعد سبعة عشر شهراً من الهجرة إلى يثرب، عاد النبي (ص) وغيَّر القبلة من الهيكل إلى الكعبة. فأثار ذلك غضب وسخط اليهود، واعتبروا هذا الموقف هو بداية حرب ضدهم، فأخذوا يبثون السموم وينشرون فتيل الشقاق والفتنة بين صفوف المسلمين، وأثاروا الخلاف القديم بين الأوس والخزرج واستغلوه أبشع استغلال، وكاد الامر يصل إلى الوقيعة فيما بينهم كما ذكرنا سابقاً، لولا تدارك الخطر في اللحظة الأخيرة وتفادي الصدام بتدخل من النبي (ص) فحسم الموقف، وأعاد اللحمة فيما بينهم، فبكوا وتعانقوا[1]. وليس ذلك فحسب، بل حاولوا الطعن

(١) ابن هشام - ج ١ ص ٥٥٦.

في شخص محمد (ص) وفي اتباعه من المسلمين، ونقضوا العهد بينهم وبينه، وحاولوا اغتياله وقتله. . فتآمروا مع عدد من الحاقدين بالعمل على قتله بصخرة يرمونها عليه[١].

واشتدت امور الخلاف ووتيرة الحقد بين الطرفين، فاشتبك المسلمون معهم في قتال عنيف، وحاصروهم عشرين يوماً[٢]. فيئس اليهود وطالبوا بعد فقدان الامل بصلح مع النبي محمد. وجرى لهم ما أرادوا شرط خروجهم من المدينة، فرحل قسم منهم إلى خيبر، وقسم آخر قصد بلاد الشام.

ولم يقبل اليهود بالهزيمة، فعمدوا إلى أسلوب الانتقام والأخذ بالثأر[٣]، فأعدوا العدة والخطط الخبيثة بتأليب الأحزاب المناهضة للإسلام في المدينة، ونجحت خطتهم، وحاصروا المسلمين من جميع الجهات[٤]، فعاد الرسول إلى المدينة، وحاصر بني قريظة (وهم يهود) وفرض عليهم الاستسلام بعد حصار دام خمساً وعشرين ليلة[٥]، وجمعهم الرسول (ص) وساقهم جماعات إلى موضع سوق المدينة على ما يذكره ابن اسحق، وحفرت لهم خنادق، ثم أمر الرسول بضرب أعناقهم ورميهم في تلك الخنادق. وقد بلغ عددهم ما بين ٦٠٠ ـ ٧٠٠

---

(١) المقريزي ـ امتاع الإسماع ـ ج ١ ص ٣٦٥.

(٢) سالم ـ ص ٣٦١.

(٣) المقريزي ـ امتاع الإسماع ـ ج ١ ص ٢١٧.

(٤) ابن حزم ـ ص ١٨٨.

(٥) ابن هشام ـ ج ٢ ص ٢٣٥.

يهودي[1]. وفشل اليهود والأحزاب في يوم الخندق.

بعد ذلك، عاد النبي (ص) فرأى من الصواب ان يعقد صلحاً مع قريش، سمي بصلح الحديبية، ليتسنى له التفرغ إلى يهود خيبر ويغزوهم. فخرج إليهم وقاتلهم وحاصرهم ما بين عشرين ليلة إلى ثلاثين ليلة[2]. واستمر بحصارهم إلى أن «طالبوا بالصلح ومقاسمتهم النصف من التمر والحب»[3]. ثم قصد وادي القرى وتيماء ودخلهما عنوة أو مصالحة. وبذلك سيطر المسلمون على أملاك خارجة عن المدينة، درَّت عليهم خيرات وعززت من قدرة المسلمين ومن تدعيم دولتهم من الناحية الاقتصادية.

وفي خطوة ثانية بارزة عزم عليها النبي محمد (ص)، وتدخل في إطار تعزيز وضعه الداخلي وتمتين أرضيته، لجأ إلى معاقبة أنفار من الأوس والخزرج دخلوا في الإسلام كرهاً وعن غير صدق في النوايا، وإنما عن نفاق ودجل، فطلب الرسول مشورة المسلمين جميعاً في موضوع الموقف منهم وما سيكون عليه مصيرهم. وتم الرأي بتطهير المدينة من المنافقين واليهود، لكي يترسخ أمن المدينة وتقوى شوكتها، وبالتالي السعي لتضييق الرقعة أمام اللاعبين بالنار، ومثيري الفتن. ولكن المعارضين للنبي محمد وللإسلام، لم ينتهوا كلياً، وإنما بقيت شوكة المناهضين قوية من يهود وأوس وخزرج، ولم يتأخروا في السعي

(١) ابن هشام - ج ١ ص ٢٤١.

(٢) البلاذري - ج ١ ص ٢٨.

(٣) البلاذري - ج١، ص ٢٥.

لإشعال نار الفتن، والتشكيك بنبوة محمد (ص) وبالإسلام داخل المدينة.

الجدير ذكره، بأن النبي محمداً، عندما هاجر إلى يثرب وبدأ بتأسيس ما يشبه دولة عربية وإسلامية هناك، كان يضع في الحسبان بأن المجموعات المناهضة له، لن تتركه بسلام، ولن تسمح له بتحقيق حلمه ومشروعه مهما كانت النتائج. ومن يومها طرح النبي محمد شعاراً في صحيفته بتحريم إجارة قريش ونصرتها، وبتحريم إجارة مال لقريش أو نفس[١]. ولهذا الغرض شن النبي (ص) عدداً كبيراً من الغزوات ضد قوافل قريش التجارية الذاهبة إلى الشام أو العائدة إلى مكة. وقد بلغ عدد السرايا ٤٧ سرية[٢]. وذكر الواقدي أيضاً، بأن أول سرايا النبي محمد، كانت سرية حمزة بن عبد المطلب في شهر رمضان، بعد سبعة أشهر من الهجرة النبوية[٣]. وبأن أول من رمى بسهم في الإسلام هو سعد بن أبي وقاص[٤]. ذكره ابن سعد وابن هشام.

تجدر الإشارة هنا، إلى أن هذه الغزوات على قوافل قريش، والتي لم يكتب لها القتال والصدام، كانت تهدف إلى إفهام قريش بأن تحسب حساب النبي محمد الذي طردته منها، وبالتالي توجيه رسالة لهم بأن الخطر يداهم مكة، وبأن النبي قادم

---

(١) سالم ـ ص ٣٧٠.
(٢) الواقدي ـ ج ١ ص٦.
(٣) الواقدي ـ ج ١ ص ٢.
(٤) الواقدي ـ ج ١ ص ١٠.

إليها بما يثير القلق والبلبلة في صفوفهم، وكذلك لضعضعة الوضع الداخلي فيها، وأضعاف قدرتها وتماسكها ضده، إذا ما حاول غزوها ودخولها. وكان وراء هذه الغزوات أيضاً، هدف آخر، هو محاولة النبي اصطياد بعض القوافل التجارية التي تسهل عليه، من أجل تقوية وضعه الاقتصادي. وفي ذلك دلالة، بأن غزوات حمزة بن عبد المطلب، وعبيدة بن الحارث وعبد الله بن جحف الأسدي، كانت لا تتجاوز بأعدادها وفي أكبرها الستين شخصاً. بينما كانت قوافل قريش التجارية يواكبها المئات، ولذلك، لم تحصل مواجهات معها، ذلك لأن الغاية لم تكن في حينها القتال، بقدر ما كانت لجمع الغنائم وتقوية الحالة الاقتصادية وتعزيز الإمكانيات.

وثبت أنه بنتيجة الغزوات والاعتداءات على عير قريش وقوافلها التجارية من جانب سرايا النبي وأنصاره، بمثابة إعلان حرب على قريش. فاعتبرت قريش بأن الفرصة حانت لمحاربة الرسول (ص) وإثارة الناس، وتأليب الرأي العام بين أهل قريش والعرب ضد النبي محمد وأتباعه. ونشروا الأخبار على الملأ بأن النبي محمداً يعتدي على قريش، ويسفك الدماء ويصادر الأموال، ويأسر الرجال، ويصطاد القوافل، وينتهك الحرمات، فأثار ذلك هياج قريش، وأهل المدينة كانوا يفورون فور المرجل[1]. واستغل اليهود الوضع القائم ودخلوا على الخط، فزادوا من تحريضهم بنشر الشائعات والأخبار الكاذبة، وإطلاق

(١) الواقدي - ج ١ ص ١٦.

الأراجيف من هنا وهناك، مما أثار لغطاً واسعاً وبلبلة شديدة، وكادت تشتعل نار فتنة كبيرة، إلى ان كانت غزوة نخلة، وهي أكبر غزوات المسلمين التي غنم فيها المسلمون غنائم كثيرة في الشهر الحرام. وجرى في ذلك اتهامات وإدانات وقعت على كاهل المسلمين، حتى نزلت الآية على النبي محمد بقوله تعالى؛ ﴿**ويسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به...**﴾[1]. ومن بعد نزول هذه الآية، حرَّم النبي الغزو في الشهر الحرام، وسمح للمشركين الدخول في الإسلام خلال أربعة أشهر، وإلا سيحاربهم بعدها على ما ذكره الزهري.

إن في موقف النبي محمد هذا، تجاهلاً واضحاً لما ورد في نص الصحيفة السابق، وهذا يدل على أن الوضع اختلف عما كان عليه قبل تحقيق انتصاره، وإن إجبار الآخرين على الدخول في الإسلام عنوة، وإلا سوف يحاربهم، فهو لا يخرج عن كونه انتساباً للإسلام تحت الضغط من غير قناعة ولا رضى. وحتى لو دخل هؤلاء في الإسلام، فإنهم سوف يعملون في الخفاء، عندما تحين الفرصة للانقضاض على الدين الذي كرهوه، ولم يدخلوا فيه إلا كرهاً.

ونستنتج كذلك من عدد عمليات الغزو والسرايا التي شنها وجندها النبي محمد ضد اليهود وضد قوافل قريش التجارية وباعتماده هذا الاسلوب الغزواتي، كان في سبيل تحقيق المكاسب المادية ومصادرة ما يمكن مصادرته من الغنائم تدعيماً

---

(١) البقرة ـ ٢١٧

وتعزيزاً لقدرته وإمكانياته على المواجهة اللاحقة، ولأنه وبدون هذه الإمكانيات، لا يمكن للنبي محمد خوض أية معارك ناجحة لتحقيق طموحه. أليس هو القائل في إكبار الجهاد «من مات ولم يغزُ فقد مات ميتة جاهلية..». وقد اعتمد الرسول على قتل الأسرى والمخالفين للإسلام بغية إذلالهم وتحقيرهم وقطع دابرهم. وهو ما ورد في الآية: **﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾**[1]. لذلك، فالنبي محمد كان بحاجة ماسة لمن يحملون السيف في البداية، وليس لمن يحملون الفكر، خدمة لأغراضه السياسية والاقتصادية، ولتقوية قدراته الداخلية بين الناس. ذلك لأن ما يحتاجه في حينه، ليس أصحاب الفكر والعقائد، وإنما كانت الحاجة إلى من يحملون السيف ويقومون بمهمة الغزو والمصادرة. ولهذا لم نسمع مرة واحدة من حضر إلى النبي محمد من الأديان الأخرى، وأعلن إسلامه اقتناعاً بالرسالة بعد دراسة وتعمق، سوى ما خلا بعض الأفراد القلائل جداً استجابة لحاله سائدة ليس إلا.

لذلك، لم يكن الانتساب إلى الدين الجديد في البداية نابعاً من وعي عميق واقتناع صلب، ولم يحصل بعد فهم مضمونه ومراميه. وإنما كان تعبيراً عن ميل يدل على حالة رفض الواقع والتخلص منه. وإلا ما معنى ما جرى مع النبي محمد (ص) عندما كان قائماً يصلي بعشرات المسلمين في المسجد، فحضرت عير فأحدثت جلبة في السوق بالضرب على الطبول إعلاناً بوصول

---

(١) الجمعة ـ ١١.

القافلة، فما كان من المصلين إلا إن تركوا الصلاة وهرعوا لمشاهدة القافلة التجارية، تاركين النبي ومعه إثنا عشر رجلاً من المصلين فقط. وقد شقَّ على النبي (ص) هذا الأمر، وهذا المستوى من الاستهتار، الذي إن دل على شيء، فإنه يدل على تدني درجة الوعي بالدين الجديد، وجهل كنهه ومحتواه. ونتيجة هذه الحادثة نزلت على النبي (ص) الأية الكريمة؛ **﴿وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو والتجارة والله خير الرازقين﴾**[1].

كما نشير إلى أن ما جاء في القرآن ونزل من آيات على النبي محمد، كانت فوق وعي هؤلاء الناس، ولا يمكن لهم التدقيق والتمييز بين رسالة وأخرى. كما لا تسمح لهم مستوياتهم العلمية والفكرية والثقافية وكذلك المعرفية على استيعاب وتحليل ما جاء وورد في القرآن من نصوص وآيات في غاية الدقة والبلاغة، ومن إبداع فني رائع.

ولم يكن مرد هذا الالتفاف حول النبي محمد، إلا حاجة الناس إلى التخلص من الوضع السائد، وتغيير الواقع الذي كان ضاغطاً عليهم، فوجدوا في النبي وفي رسالته تنفيساً للاحتقان الموجود. ثم إن الميل إلى القتال والانخراط في سرايا الغزو والهجمات، والانتساب إلى جيش المسلمين بهذه السرعة وهذه الأعداد الهائلة، ما كان ليحصل بهذه الصورة، لولا أن هذه الغزوات لم تكن لتدر عليهم عائدات كبيرة من المغانم

(١) الجمعة: ١١.

والمكاسب خلال الحرب، وعادة الغزو أيضاً، هي في نفس الوقت عادة عرب الصحراء والجزيرة؛ ولم تتغير عليهم العادة، لأنها كانت مهنتهم وصنعتهم بهدف الكسب والربح والمصادرة، لكن الذي اختلف هنا، هو عدد المنفذين لعمليات الغزو؛ ففي السابق كانت محصورة بالقبيلة والعشيرة، بينما غزوات النبي محمد كانت وشكلت موقفاً عاماً لتحقيق وحدة عامة، وتأسيس امبراطورية أقوى من الأمبراطوريات السائدة من الروم والفرس، وكذلك لقطع الطريق أمام الديانتين الأخريين اليهودية والمسيحية المتنازعتين في حينه، من تحقيق أهدافهما في الجزيرة العربية.

وبالعودة إلى سياق موضوعنا، فقد تتالت الغزوات وتصاعدت الهجمات، واندفع النبي محمد والمسلمون الى موقف حرج، عندما خرجوا بعدد قليل ليواجهوا خروج اهل قريش، لا بل مكة كلها في مواجهته، ولم يجد مفراً من المجابهة نظراً لدقة الموقف، وتوقف مصير الدولة الإسلامية ومشروع النبي وحلمه على المحك. وبعد دراسة وأخذ ورد، اختار النبي ومعه المسلمون من المهاجرين والأنصار خوض المعركة مهما كانت النتائج، خصوصاً بعدما صارت الحرب أمراً محتوماً وواقعة لا بد منها بعد مطالعات ومكاشفات عديدة.

وبدأت الحرب أولاً بفارس ضد فارس، إلى أن اشتعلت وحمي الوطيس وأخذ الثأر. ولما شعر النبي محمد بحجم المأزق والورطة في دخوله هذه المعركة، ذكروا أنه نادى ربه، فنزل عليه جبريل رسول الابلاغ من السماء، وأبلغه بالآية الكريمة: ﴿إذ

تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني مُمدُّكم بألف من الملائكة مردفين﴾[1]. بعد نزول الآية، استعاد النبي محمد أنفاسه وارتفعت معنوياته، فقام خطيباً في جموع الألوية المحتشدة وحثهم على القتال بالقول:

«. . . أما بعد، فإني أحثكم على ما حثكم الله عليه، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه، فإن الله عظيم شأنه، يأمر بالحق، ويحب الصدق، ويعطي على الخير أهله. . . وإن الصبر في مواطن اليأس. . . وتدركون به النجاة في الآخرة، فيكم نبي الله يحذركم ويأمركم، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله عز وجل على شيء من أمركم يمقتكم عليه، فأن الله يقول: **﴿لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم﴾**[2]. انظروا إلى الذي أمركم به كتابه وأراكم من آياته، وأعزكم بعد ذلة. . . . فإن وعده حق، وقوله صدق، وعقابه شديد. . . . إليه ألجأنا ظهورنا، وبه اعتصمنا، وعليه توكلنا، وإليه المصير، يغفر الله لي وللمسلمين»[3].

وذكرت كتب السيرة، بأنه بعد هذا الخطاب، هاج المسلمون وأندادهم، فتواجهوا، واختلطوا حابلاً بنابل، وبدأت المعركة بالفعل في ١٧ رمضان بمناوشات صغيرة، حتى اندفع رجل أو فارس يقال له الاسود بن عبد الاسد المخزومي من بين صفوف أهل مكة، وكان شرساً سيء الخلق، فقال: «أعاهد الله

---

(١) الأنفال ـ ١٠.

(٢) غافر ـ ١٠.

(٣) الواقدي ـ ج ١ ص ٥٩.

لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه»[1]، فخرج إليه فارس شجاع، هو حمزة بن عبد المطلب، وبارزه فضربه بسيفه، فقطع قدمه ثم عاوده بضربة فأجهز عليه[2].

بعد هذه المبارزة الحامية، ارتعبت قريش، فحاولت رفع المعنويات باعتماد عنصر المباغتة وشن الهجوم المفاجىء، بغية إثارة الخوف والرعب عند المسلمين. وتقارب الخصمان أو الجيشان، وتسايف الفريقان سجالاً قاسياً، كان بنتيجته هزيمة قريش وأهل مكة، وأخذوا بالفرار من ساحة القتال، بعد سقوط ما يزيد على ٧٠ رجلاً، بينهم أبو جهل[3] وكانت هذه الموقعة، هي موقعة بدر.

وعاد النبي والمسلمون من المعركة منتصرين، بعد أن غنموا الكثير من الأنفال وأسروا الرجال. وكان من نتائج موقعة بدر أيضاً، أن ارتفعت مكانة النبي محمد في المدينة، وعلت كلمته. والتف حوله الكثيرون ودخلوا في الإسلام. كما بالمقابل يئست نفوس المعارضين، وضعفت شوكتهم بعد هذه الهزيمة النكراء. واكتسب المسلمون في بدر خبرة وتجربة غنية، أعطتهم دفعاً جديداً وقوة نظرة، وثقة إلى المستقبل، والتطلع إلى التوسع والتمدد.

وبعد بدر، لم تتوقف قريش عن الاستعداد، ولم تقبل

---

(١) الواقدي ـ ج ١ ص ٦٨.

(٢) الواقدي ـ ج ١ ص ٦٨.

(٣) ابن حزم ـ ص ١٤٧.

بالهزيمة. فأخذت تعد العدة، وتنظم نفسها للانتقام والثأر، وذلك بعد مرور عام على هزيمتهم في موقعة بدر، وكانت بعدها معركة أحد، التي جندت لها قريش جيشاً كثيفاً قوامه ثلاثة آلاف فارس[١]. بينما خرجت جموع المسلمين من المدينة حاملة الدفوف تحريضاً للرجال على القتال. والتقى الطرفان في واد قرب جبل أحد وتواجه الجيشان، واستبسل المسلمون بالدفاع، وقاتلوا قتالاً شديداً. فظنوا أن قريشاً قد انهزمت، فتراكضوا لجمع الغنائم، وانهمكوا بالمكاسب من الفيء والأنفال، تاركين الخدعة تفعل فعلها بهم وتؤكد مرة أخرى، على أن المسلمين غلّبوا المكسب والنفع على الهدف والغاية فعاد أهل قريش، وباغتوا المسلمين وانقضوا عليهم، وهم لاهون بالأرباح، وقيل إن النبي محمداً جرح في هذه المعركة، وكسرت إحدى أسنانه الأربع العليا والسفلى، وسقط عليه أحجار كثيرة[٢]. وكانت النتيجة القاسية، أن انهمك المسلمون بجمع الغنائم بعد ظنهم بالنصر، ففاجأهم جيش قريش، وباغتهم وكادوا يقتلون النبي محمداً لولا نفر عددهم سبعة دافعوا عنه حتى الموت، ودافع عنه طلحة وأم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية، وجرحت أيضاً، وسقط من المسلمين في هذه المعركة ٧٤ رجلاً من بينهم حمزة بن عبد المطلب، الذي انتقمت منه هند بنت عتبة، فأرسلت إليه وحشي عبد ابن الحارث بن عامر بن نوفل، بعد أن وعدته بمكافأة،

(١) الواقدي ج ١ ص ٢٠٣.

(٢) سالم ـ ص ٣٨٦.

فعاجله برمح أصابه وشق بطنه وأخرج كبده وجاء به إلى هند، فمضغته ثم لفظته، ثم مضت إلى جثته، فقطعت أذنيه وجدعت أنفه[١].

إنهزم المسلمون بلحظة طيش وغرور، وعادوا إلى المدينة ومعهم النبي محمد يحمل جراحه. وكان أول خطوة قام بها، بطرد بني النضير من اليهود الذين غدروا به في هذه الموقعة. وبدأ الرسول (ص) في التحضير للانتقام من قريش نظير ما فعلت. وقرر اعطاءهم درساً لن ينسوه. فأعد العدة، وزحف إلى الشام في العام الخامس للهجرة، فأقام الرسول خندقاً في الجانب الشمالي للمدينة، وأحاطت الأحباش ومن تبعها، بالمسلمين من كل ناحية، وحاصروا المدينة، وطال الحصار، وسيطر عليهم اليأس. وفي ليلة تعرضت الأحزاب من يهود وقريش وأحباش وأتباعهم، لعاصفة شديدة، فرضت عليهم العودة والرجوع إلى حيث أتوا. وقد سمي ذلك اليوم، يوم الأحزاب. وفيه نزلت سورة الأحزاب.

وبعد الخندق، غزا النبي غزوتين إحداهما «غزوة بني لحيان وغزوة بني المصطلق»[٢] فهزم قريشاً وحلفاءهم في العام السادس للهجرة. وفي نفس العام قصد النبي مكة معتمراً، وجرى خلاف في مسألة دخول النبي محمد، إلى أن توصل الفريقان إلى صلح الحديبية على الشروط التالية:

١ ـ ان ينصرف الرسول عامه ذلك، على أن يقبل في العام

---

(١) الواقدي ـ ج ١ ص ٢٨٦.

(٢) عبد العزيز سالم ـ تاريخ الدولة العربية ـ ص ٣٨٩.

التالي مع أصحابه بلا سلاح حاشا السيوف في القرب فقط، فيقيم بها ثلاثة أيام.

٢ ـ ان يتصل الصلح بين المسلمين وكفار قريش عشرة اعوام يتداخل فيها الناس ويأمن بعضهم بعضاً.

٣ ـ من أراد ان يدخل في حلف محمد من القبائل دخل، ومن أراد أن يدخل في حلف قريش دخل.

٤ ـ من جاء من الكفار إلى المسلمين مسلماً رد إلى الكفار. ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتداً، لم يرد إلى المسلمين[1].

احتج المسلمون على الشرط الأخير من الصلح. لكن الرسول أقنعهم بأن الصلح يعتبر نصراً لهم وفتحاً مبيناً.

وبعد إجراء هذا الصلح مع قريش، توجه النبي محمد إلى خطة أخرى، باعتماد سياسة خارجية، تهدف إلى التوسع ونشر الدعوة الإسلامية في الجزيرة العربية كلها، فبدأ بإرسال الرسائل إلى الملوك يدعوهم إلى الدخول في الإسلام. فبعث في يوم واحد ستة رسل في السنة السابعة للهجرة، إلى الملوك التالية أسماؤهم:

١ ـ النجاشي ملك الحبشة رسوله عمر بن أمية الضمري.

٢ ـ هرقل قيصر الروم: رسوله دحية بن خليفة الكلبي.

٣ ـ كسرى ملك الفرس: رسوله عبد الله بن حذاقة السهمي.

---

(١) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ج ١ ص ٤١ ـ ابن سعد ـ ج ٢ ص ٩٧.

٤ ـ المقوقس نائب هرقل: رسوله حاطب بن أبي بلتقة اللخمي.

٥ ـ الحارث بن أبي شمر الغساني: رسوله شجاع بن وهب الأسدي.

٦ ـ هوذة بن علي الحنفي أمير اليمامة: رسوله سليط بن عمرو العمري[١].

وذكر الطبري نص الكتاب الذي أرسله النبي محمد (ص) إلى هرقل، فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم! من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل قيصر الروم. السلام على من اتبع الهدى، أما بعد، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وان تتولى فإن إثم الأكارين (الأديسين) عليك»[٢].

وكتب إلى المقوقس: «بسم الله الرحمن الرحيم! من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى! أما بعد، فإني ادعوك بدعاية الاسلام فأسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين»[٣].

وكتب إلى النجاشي: «بسم الله الرحمن الرحيم! من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة. سلام أنت فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد ان عيسى بن مريم، روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول

---

(١) ابن سعد ـ الطبقات ـ ج ١ ص ٢٥٨ ـ ٢٦٢.

(٢) الطبري. ج ٣، ص ٨٧.

(٣) القلقشندي. ج ٦، ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧.

الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم و نفخه. وإني ادعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وإن تتبعني وتؤمن بالذي جاءَني فإني رسول الله. وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً ونفراً معه من المسلمين. فإذا جاءَك فأقرهم ودع التجبر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله. فقد بلَّغت ونصحت فاقبلوا نصحي، والسلام على من اتبع الهدى»[1].

وكتب إلى كسرى أبرويز ملك الفرس: «من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس: سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وأدعوك بدعاية الله عز وجل، فإني رسول الله إلى الناس كافة ولأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، وأسلم تسلم، فإن توليت فإن إثم المجوس عليك»[2].

بالإضافة إلى هؤلاء الرسل، كان النبي قد أرسل رسلاً آخرين إلى قبائل العرب ومشايخهم في الجزيرة، يدعوهم إلى الإسلام. وقد شكلت هذه الرسائل مرحلة جديدة، ونقطة تحول هامة في السياسة المحمدية خارج المدينة. ونجح بها، ومهد الطريق أمامه لتوحيد سائر أنحاء بلاد العرب في عام الوفود[3].

نستنتج من ذلك بأن مرحلة التمهيد لبدء نشر الدعوة الإسلامية في المجتمع العربي الصحراوي علي يد النبي محمد

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٧٨ . ٣٧٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٨٠.

(٣) سالم ـ ص ٣٩٤.

(ص). لم تتعد إبلاغ الإعلان عن دين جديد، يكون بديلاً للأديان السماوية الأخرى من يهودية ومسيحية، وكذلك بديلاً للمعتقدات الدينية الأخرى من وثنية ومجوسية وغيرها. ولم يكن عند محمد (ص) أي تصور واضح وجلي حول بناء الدولة العربية الكبرى، وحول الأسس والقوانين والأنظمة التي تحكم هذه الدولة، وتحكم مسارها في المراحل المقبلة.

ولذلك، لم يسع النبي محمد (ص) إلى تأسيس مجموعة نظريات لطريقة الحكم ولمفهوم السلطة، واستنباط الطرائق والأساليب المؤدية لبلوغها. فكان جل همّ محمد (ص) الإبلاغ عن دعوة دينية جديدة، ونظرية سماوية لرسالة نهائية وتامة لجميع البشر، تكون خلاصاً لهم من المظالم التي لحقت بهم جراء إساءة رموز الإديان الأخرى لدعوة الله ورسالته. واستفاد محمد (ص) في تعزيز دعوته، واطلاق تشريعاته وتعاليمه على الناس، من وجود الخلاف النظري الحاد الذي كان سائداً في حينه بين اليهود والمسيحية حول أمور عديدة منها: التوحيد، والحكم الإلهي، والموت والحياة، والدنيا والآخرة، وسواها من الأمور.

أي أن النبي محمداً (ص) كان يخوض صراع قناعات نظرية مثالية، وليس صراعاً حول كيفية بناء الدولة القوية التي لها مؤسسات عصرية منفتحة، ولها قوانين وأنظمة تحكمها على قاعدة الحرية والمعتقد.

لذلك، فإن الجدل الذي كان سائداً بالدرجة الأولى، هو حول إثبات النظرية الدينية الصحيحة، وتصديق نبوة محمد،

وبأنها جاءت أو هبطت من السماء عليه بواسطة الملائكة، وبأنها حسب اعتقاده، هي الحقيقة الوحيدة، والديانة الصحيحة النازلة من السماء، بما يدحض الرسالات الأخرى ويتهمها بالانحراف وتجاوز الشرع ومخالفة الخالق، وتخطي حدود الله، وإشاعة التفرقة واللاأخلاقية، وطغيان الظلم وانتهاك الحرمات والحقوق والالتباس في الممارسات التي تخطت حدود المعقول. وبالتالي، فإن معركة النبي محمد (ص) كانت في جوهرها، إثبات صدق نبوته أولاً، ومن ثم نشر دعوته الدينية وتعاليمها الجديدة والإبلاغ عنها ثانياً، وبأنها آخر الرسالات السماوية، وبأن محمداً هو آخر الانبياء والمرسلين، وما على الرسول إلا البلاغ.

ولكن الظروف والأحوال كانت تتجه حسب الواقع وتطور الحياة، وتفرض على النبي محمد (ص) توجهات جديدة في كل مرحلة، وهذا واضح بعدما تحقق للنبي السيطرة على كل الجزيرة، إذ أخذه التفكير بتوسيع الدولة، على قاعدة نشر الدين وتقوية الاقتصاد، وهو ما حصل له بالفعل، والذي سنتحدث عنه لاحقاً إذ انتقل النبي محمد (ص) من مرحلة نشر الدعوة وإثبات النبوة، إلى مرحلة بناء الدولة وتوسيع حدودها.



«إن الله يقيم الدولة العادلة
وإن كانت كافرة، ولا يقيم
الظالمة وإن كانت مسلمة،
وإن الدنيا تدوم مع العدل
والـكـفـر، ولا تـدوم مـع
الظلم والإسلام».

ابن تيمية



بداية الفتوحات
وبناء الدولة

لم يكن حلم النبي (ص) بناء دولة صغيرة ومحصورة في المدينة بعدما نظفها من اليهود والمعادين لرسالته ومشروعه، بل كان يحلم بدولة واسعة الإرجاء في كل الجزيرة العربية، وحتى أبعد من ذلك أيضاً؛ وهو تفكير منطقي في لغة المشاريع وبناء الدولة الكبرى، وهو أمر طبيعي أيضاً، عندما يتحقق انتصار ما، يبدأ التفكير بزيادة القوة وتوسيع الانتشار، فيكبر الحلم بقدر ما تتعاظم القدرة والإمكانية على تحقيق ذلك.

من هنا، ومنذ أن حقق النبي (ص) عدة انتصارات ناجحة على قريش، بدأ يخطط لأوسع من مكة والمدينة، لتصل أحلامه إلى الجزيرة العربية كلها، وتتخطاها إلى خارجها. واستمر بالعمل

لتحقيق هذا الهدف بتنظيم الغزوات وإعداد الحملة تلو الأخرى. فكان أن أعد جيشاً ضخماً قوامه ثلاثة آلاف فارس، توجه به إلى منطقة مؤته، للانتقام لرسوله الحارث بن عمير الأزدي، الذي قتله شرحبيل بن عمرو الغساني أمير مؤته. وقبل انطلاق الحملة ألقى النبي (ص) بأمراء وقادة جيشه الوصية التالية:

[. . . أغزوا باسم الله في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، لا تغدروا ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليداً. وإذا لقيت أعداءك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث، فأتيهن ما أجابوك إليها، فاقبل منهم واكفف عنهم، ثم أدعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين إن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، ويجري عليهم حكم الله، ولا يكون لهم في الفيء ولا في الغنيمة شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإن أبوا، فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن فعلوا فأقبل منهم واكفف عنهم. . . . وستجدون رجالاً في الصوامع معتزلين للناس، فلا تتعرضوا لهم. . . . لاتقتلن امرأة ولا صغيراً ضرعاً ولا كبيراً فانياً، ولا تغرقن نخلاً، ولا تقلعن شجراً، ولا تهدموا بيتاً. . . .][1].

وسار جيش المسلمين إلى المعركة، ولما كان سيره إلى بلاد الشام، بلغ النبي محمد بأن هرقل ملك الروم، قد نزل أرض

---

(١) ابن سعد ـ امتاع الأسماع ـ ج ١ ص ٣٤٦.

البلقاء في مائة ألف من الروم ومثلها من نصارى الشام. فتوقف المسلمون عند سماع هذا الخبر، ينتظرون مشورة النبي عليهم، إما بالعودة وإما بمتابعة ما قدَّره الله، ويبدو أن قرار المواجهة كان راجحاً. ولهذا قام عبد الله بن رواحة، وخطب في الجموع قائلاً: «.... ياقوم.... إنطلقوا فهي إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة»[1]. وما إن انتهى من إلقاء كلمته الحماسية، حتى هاجت الجموع وطالبت بالحرب والمنازلة، وارتفعت حرارة الحماسة عندهم إلى طلب الموت والاستشهاد. وتواجه الفريقان ولم ينجح المسلمون في صد الهجوم الغساني والرومي لعددهم وعدتهم. وعاد جيش المسلمين إلى المدينة حاملاً أذيال الهزيمة، بعد أن خسروا كثيراً من الرجال. وقيل إن أهل المدينة لاموهم وعابوهم على هروبهم وفرارهم من أرض المعركة، فأجابهم النبي (ص) «بل هم الكرار إن شاء الله»[2].

نستفيد من هذه الواقعة لنقول بأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتفوق وينتصر جيش عدده ثلاثة آلاف رجل، على جيش الروم والعرب المتنصرة الذي قوامه مائة ألف فارس. فلا المنطق يجاري هذا القول، ولا الواقع يلامس هذه المقارنة من قريب أو بعيد. وإن مواجهة مئة ألف فارس بثلاثة آلاف رجل من المسلمين لا يتحقق فيه الانتصار بواسطة التشجيع والحماسة مهما كانت على مستوى من رفع الهمم والمعنويات. وقد يكون عدد

(١) ابن حزم ـ ص ٢٢١.

(٢) ابن كثير ـ ج ٤ ص ٢٥٣.

جيش الروم مبالغاً فيه كثيراً. ثم أن النبي محمداً في حالة كهذه، يكون قد ارتكب خطأً فادحاً في اتخاذ قرار المواجهة إذا كان يعلم فعلاً، أن عدد جيش الروم هو بهذه الجحافل. وقد تكون خسارة المسلمين نابعة من الخشية والرهبة من جيش الروم، لأنها المرة الأولى التي يخوض فيها المسلمون حرباً خارج منطقتهم وخارج المدينة. وإمكانيات جيش الروم تفوق بكثير إمكانيات جيش المسلمين، القادمين من منطقة فقيرة مواردها قليلة، إلا ما خلا بعض الغنائم التي كسبوها من الغزوات، فدفعهم موضوع الاعتداد بالنفس وبالقدرة إلى حد الوقوع في خطأ الحسابات وتقدير قوة الخصم، فكانت هزيمتهم درساً قاسياً وامتحاناً صعباً استفادوا منه في المراحل اللاحقة.

وأزعم أن النبي (ص) والمسلمين قد استفادوا من هذه المعركة الكبيرة في مؤته، واكتسبوا خبرة جديدة في الاحتكاكات الخارجية. فسعى الجميع إلى رفع المعنويات، وإلى حث القبائل العربية المنتشرة في الجزيرة إلى الحماسة والدخول في جيش الإسلام، لمواجهة الخطر الآتي من الخارج هذه المرة، وهو ما استفاد منه المسلمون، لأن هذه المعركة كانت عامل تجميع للعرب حول المسلمين، لأن عدوهم هذه المرة جاء من خارج الجزيرة ومن خارج المدينة.

في المقابل، إنتهز أهل قريش فرصة هزيمة المسلمين في مؤته، واعتبروها بداية لهزائم مماثلة، فأخذوا يعدون العدة، ويكيدون المكائد، فنقضوا صلح الحديبية، في محاولة لإعادة

الأمور إلى ما كانت عليه قبل إبرام هذا الصلح. وبما يعني عودة للإمساك بسلطتهم المفقودة، ولحكمهم الذي تزعزع وضعف وسقط بوجود النبي (ص).

ومن الطبيعي بعد هزيمة المسلمين في معركة مؤته، أن يبدأ تفكير النبي (ص) بتعزيز وضعه الداخلي، وتقويه انتشاره وتحصين مواقعه. ففكر في فتح مكة تمهيداً للتفرغ للثأر من الخارج لاحقاً، فأعد لذلك جيشاً كثيفاً من أهل المدينة والقبائل لم تعرفه منطقة الحجاز من قبل، قوامه عشرة آلاف فارس[١]. وزحف جيش المسلمين باتجاه مكة، ولم تحصل إلا مناوشات صغيرة سقط خلالها ثلاثة عشر رجلاً من المشركين، وقيل ثلاثة وعشرون، بينما قتل من المسلمين ثلاثة رجال.[٢].

وبعد عمليات أخذ ورد، دخل المسلمون مكة، وعفا الرسول (ص) عن عامة قريش لحاجته إليهم في معاركه الخارجية، فقال لهم: «أقول كما قال أخي يوسف عليه السلام؛ لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»[٣].

وبدخول جيش المسلمين مكة، يكون قد سقط معقل الوثنية وبدأ عهد جديد، هو عهد الإسلام وعهد الدولة الإسلامية؛ واعتبر فتح مكة بحق، المرحلة الاولى، والمقدمة الضرورية لبناء وتوحيد الأمة العربية. وبالفعل، لم يمض عام

---

(١) ابن حزم ـ ص ٢٢٧.

(٢) البلاذري ـ فتوح البلدان ـ ج ١ ص ٤٤.

(٣) ابن هشام ـ ج٢ ص٤١٣ .

واحد على فتح مكة حتى كان سلطانهم يمتد ويتوسع إلى جميع بلاد العرب، وذلك في العام العاشر للهجرة.

بعد مكة تحول النبي (ص) إلى الطائف ففتحها، ثم قام بعدة غزوات منها غزوة حنين، وتبوك التي بفتحها حقق النبي توحيد الجزيرة العربية كلها، والتي سنتحدث عنها سياقاً.

ولكي يتحقق للنبي محمد ما أراد في حلمه الواسع، قرر غزو الروم، وتصفية الحساب والانتقام. ولما عزم على قتالهم في غزوة تبوك، قال وهو في جهازه للجدين قيس أُحد بني سلمة: «ياجد هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟ فقال: . . . فوالله لقد عرف قومي أنه ما رجل بأشد عجباً بالنساء مني، وأني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر، أن لا أصبر. فأعرض عنه رسول الله (ص) وقال: قد أذنت لك. . .»[1].

إنها رواية عجيبة. وكأن النبي يدعوه إلى منازلة جيش من النساء!! أوليس غريباً أن تقرأ مثل هذه الرواية، ولا يثيرك أي تساؤل؟! وخصوصاً عندما نزل النبي محمد عند رغبة الجد، فارس النساء وزير الصبايا الجميلات، ويعفيه من المشاركة في المعركة، وهو ليس عنده صبر أو احتمال على رؤية النساء. فهو رجل يهوى النساء ويغوي الجميلات ولا يطيق على نفسه صبراً إذا ما رأى إحداهن!! وهل هي دعوة إلى سهرة سمر، أو حفلة راقصة فيها طرب وغناء!! إنما يدعوه إلى ساحة القتال حيث الرجولة والرجال وعرض العضلات والكر والفر، وليس إلى

---

(١) ابن كثير - ج ٤ ص ٥.

عرض الجمال وسحر النساء. والمفارقة هنا كيف يطاوعه النبي محمد ويجاريه في رغبته ويسمح له بعدم الذهاب، لا لشيء، بل لكي لا يفتضح أمره مع النساء. أم أنه عذر أقبح من ذنب في إيجاد مخرج للفرار من المعركة وعدم المشاركة في الغزو؟! وكيف يبقى في بلده وسط النساء كلهن وهو لا يحتمل رؤيتهن في وقت أن جميع الرجال ذاهبون في الغزو ولم يبق إلا من لا طاقة له ولا قدرة عنده على القتال. وكيف يكون عند هذا الرجل قدرة على النساء، ولا يوجد عنده قدرة على المشاركة في الحرب..؟! فللحرب وقت وزمن، وللنساء لهن وقت وزمن. وظروف الحرب لا تسمح بالانشغال بالنساء!!

والغاية أن الرسول (ص) عزم في رجب من العام التاسع للهجرة على غزو المناطق الشامية الواقعة على تخوم الحجاز، عندما بلغه أن صاحب تبوك يحتشد بجموع كبيرة من الروم ومتنصرة العرب»[١]. واصل النبي زحفه نحو تبوك. ولم يلق بها كيداً، وصالحه أهلها على الجزية، واشترط عليهم «أن يقروا من يمر بهم من المسلمين»[٢]. ودخل تبوك صلحاً، وحضرته وفود وهو هناك من أهل أذرخ والجرباء ورضخ اليهود وصالحوه على دفع الجزية.

لذلك بعد فتح مكة والفراغ من غزوة تبوك، أخذت القبائل العربية الباقية تأتي وفوداً من كل حدب وصوب، تعلن الولاء

---

(١) البلاذري - فتوح البلدان ج ١ ص ٧١ - ابن هشام - ج ١ ص ٥١٦.

(٢) ابن هشام - ج ١ ص ٥٢٦ - البلاذري - ج ١ ص ٧١.

للنبي وللإسلام. فسمي ذلك العام، عام الوفود. سنة تسع للهجرة. وقد حصل ذلك في ظل هذا المد الإسلامي والفتوحات، فعرفت العرب أن لا طاقة لهم على محاربة الرسول (ص)، فدخلوا في دين محمد أفواجاً، فنزلت عليه الآية بقوله تعالى: ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً....**﴾[1]. وبذلك بدأت الناس تدخل في الإسلام وتنخرط في جيش محمد إنجرافاً مع التيار السائد والموجة القائمة على أساس أن الأمر لا مفر منه ولا حياد عنه، كون هذا التيار هو الغالب والمسيطر. وطبيعة الناس تواكب الريح وتجاري المنتصر. فدخل في ظل الإسلام وتحت رايته المقتنع وغير المقتنع، ودخل من يريد حماية نفسه وظهره، ومن يريد التلطي والتجسس، فكان الداخلون في الإسلام في هذه المرحلة بالذات، أي زمن الفتح، قد دخلوا وجاؤوا من مشارب مختلفة وديانات وقناعات ومعتقدات متناقضة. كلها اجتمعت تحت لواء الدين الإسلامي، مسايرة، أو مشاركة في قطف الثمار، أو تحت وطأة الضغط والخوف.

ففي رواية عن البخاري في قصة ثمامة بن أنال، وكان أُسر في الحرب وربطوه بسارية من سواري المسجد. فجاءه النبي وقال: «ما عندك ياثمامة؟ قال: عندي خير يامحمد، إن تقتلني تقتل ذا دم...»[2] ولما قدم ثمامة مكة قال لهم: «... والله لا

(١) النصر ـ ١ ـ ٢.

(٢) ابن كثير ـ ج ٥، ص ٣٩.

تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي (ص) . . .»[1] .
وهنا يظهر جلياً أسلوب الضغط وحجب الحنطة عن الناس، كي تدخل في دين الإسلام، أو يحل قتالها. ولم يكن في حينه مجال لخيارات أخرى عند الناس. فالدين الجديد، دين الإسلام، ينطلق بسرعة وتتوسع حدود سيطرته، ولا يوجد في وجهه أية قوة أخرى، مما جعل الناس لا تجد إلا هذا المنفس الوحيد لبقائها على قيد الحياة.

ويقال إن مسيلمة بن حبيب، ويكنَّى أبا ثمامة، ويقال له رحمان اليمامه، وكان عمره يوم قتل مائة وخمسين سنة، ويعرف أبواباً من النيرجات، فكان يدخل البيضة إلى القارورة، وهو أول من فعل ذلك. «كان يقص جناح الطير ثم يصله، ويدَّعي أن ظبية تأتيه من الجبل فيحلب منها. . .»[2] وكان يقول في مضاهاة القرآن: «لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشا. . . . وأحل الخمر والزنا، ووضع عنهم الصلاة. . . إلخ»[3] .

وقد كان مسيلمة بن حبيب هذا كتب إلى رسول الله (ص) مرة يقول: «من مسيلمة ألى محمد رسول الله (ص)، سلام عليك، أما بعد، فإني قد أشركت في الأمر معك، فإن لنا نصف الأمر ولقريش نصف الأمر. ولكن قريشاً قوم لا يعتدون. . .»[4] ومسيلمة هذا قيل

(١) ابن كثير - ج ٥ ص ٣٩.
(٢) ابن كثير - ج ٥ ص ٤٠.
(٣) ابن كثير - ج ٥ ص ٤١.
(٤) ابن كثير - ج ٥ - ص ٤١.

عنه مسيلمة الكذاب، وقد قتله زيد بن الخطاب يوم اليمامة في أيام أبو بكر الصديق.

والخلاصة، أن النبي محمداً تعاطى مع الداخلين في الإسلام على قاعدة تدفيعهم الجزية، لتعزيز وضعه الاقتصادي وتمتين أسس دولته الفتية. فكان اليهود والنصارى يدفعون الجزية ويقدمونها وهم صاغرون. بينما الآخرون إذا لم يتوبوا فقد أحل الله قتالهم.

وقد كان بالفعل، العام التاسع للهجرة، عام الوفود، وعام الانتشار الواسع للإسلام بين جميع البلدان العربية، لما شهدته من تواتر الوفود العربية من كل حدب وصوب تعلن إسلامها وطاعتها. وبذلك فتحت صفحة جديدة أخرى في تاريخ وتأسيس الدولة العربية الإسلامية الكبرى.

ولما حان موعد الحج في نهاية العام التاسع للهجرة أصدر النبي بياناً شهيراً، دعي بيان براءَة، والتي تضمنتها سورة في القرآن الكريم، هي سورة التوبة. وطلب إلى علي بن أبي طالب قراءَته أمام الحجاج. ومضمون هذا البيان، هو دعوة الناس التي لم تدخل في الإسلام بعد، بالدخول إلى الإسلام، ونبذ جميع العهود والاتفاقات التي أبرمها النبي في السابق. وإلغاء جميع العقود. ومن لم يدخل في الإسلام، وجب محاربتهم. وأعطى لذلك مهلة أربعة أشهر لإشهار الإسلام. أو يعتبروا خارجين على الدولة الإسلامية. ويقول سبحانه في سورة التوبة: **﴿براءَة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين، فسيحوا في الأرض**

أربعة أشهر وأعلموا أنكم غير معجزي الله، والله مخزي الكافرين، وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله، فإن تبتم فهو خير لكم، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله، وبشروا الذين كفروا بعذاب أليم. . . ﴾[1].

بعد عام الوفود، كانت كل الجزيرة العربية دولة إسلامية واحدة، تهابها الدول المجاورة، وتخاف منها وتحسب حسابها، وسيطر المسلمون على جميع المناطق، وبدأ التفكير في توسيع الدولة خارج الجزيرة، الذي سنأتي على ذكره في مرحلة الخلفاء الراشدين.

وفي ذي القعدة من العام العاشر، حج النبي محمد حجة الوداع. التي شارك فيها أكثر من مائة ألف حاج من العرب[2]. وعند انتهاء مناسك الحج، خطب النبي في المسلمين في عرفات خطبته الأخيرة، وعاد إلى المدينة في ١٤ من ذي الحجة سنة ١١ للهجرة.

وأمام هذا المشهد الكبير من الحجاج الذي امتلأت به ساحة الحرم، ألقى خطبته الأخيرة، التي تضمنت نصحاً وإرشاداً وهداية وأحاديث كثيرة عن التآخي والتضامن والوحدة. إلى آخر جملة قالها «. . . اللهم هل بلغت؟ أجاب الناس من كل صوب: نعم. فقال: اللّهم: أشهد»[3].

---

(١) التوبة ـ ١ ـ ٣.

(٢) المقريزي ـ امتاع الأسماع ـ ج ١ ص ٥١٢.

(٣) هيكل ـ ص ٤٩١.

ولما انتهى من خطبته، عاد إلى المدينة، فمرض هناك وهو في بيت ميمونة أم المؤمنين. فطلب أن يذهبوا به إلى بيت عائشة، وطال مرضه أثني عشر يوماً، وقيل أربعة عشر يوماً ثم قبض يوم الإثنين، لإثنتي عشر من ربيع الأول، بعد أن حقق رسالته وجمع العرب ووحدهم على دين الإسلام. وتلا على الناس قبل وفاته قوله تعالى: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا.﴾**[1].

(١) المائدة - ٥.

موت النبي (ص) ودقة الموقف

لم يصدق أحد أن النبي (ص) قد مات. وبموته حصل اكتئاب جماعي، وذهل كل الناس، وقالوا بأن موت النبي محمد كذبة كبيرة لا تصدق ولا يقبلها العقل ولا المنطق، وشعر الناس بأن هناك شيئاً، أفقدهم صوابهم، وعطل تفكيرهم، وجعلهم في حيرة كبرى، وبأنه خبر ثقيل ناؤوا تحت وقعه.

ولكن صاحب الدعوة الإسلامية، والدين الجديد، وبعد مرور اثنين وعشرين عاماً من قيامه بإعلان الدعوة والتبشير بها، مات عام ٦٣٢م. وهو كان قد ولد عام ٥٧٠م. فقبض عن اثنين وستين عاماً.

وهناك خلاف حول تحديد عمر النبي محمد (ص). فيذكر الإخباريون، بأن النبي قبض عن ثلاث وستين، وفي وجه آخر

عن خمس وستين سنة. (عن ابن عباس). وعن ابن هشام قال: قبض وهو ابن خمس وستين سنة. بينما أورد المسعودي بقوله: إنه في سنة ٥٤ق .هـ كانت هجرته إلى المدينة، وفي سنة ١١ هـ توفي، فيكون عمر النبي ٦٥ سنة.

لن نختلف حول عمر النبي يوم وفاته، إنما ما يعنينا أن موته قد شكّل بركاناً عارماً وانفجاراً هائلاً ودوياً صاعقاً على عقول الناس ومسامعهم، وشكل أيضاً صدمة عنيفة وقاسية، وهزة رهيبة فاقت تصور الناس وتخطت مستوى معارفهم ومداركهم، لمدى ما تعلقوا بالنبي محمد واستبشروا به، وهو الذي أنقذهم من الجاهلية، فتمسكوا به وعشقوه جداً، حتى لتصوروا أنه جاء من عند الله إلى الأبد. لذا، لم يصدقوا خبر الوفاة، خوفاً من فقدانه، وخوفاً من العودة والرجوع إلى أيام الظلم والعبودية والاستخدام المذل، وتوجسوا الخوف من الكلفة الباهظة بالعودة إلى معتقدات الجاهلية بالوثنية وعبادة الأصنام.

إنما محمد قد مات بالفعل، وبالفعل قد مات. لكنه أمر صعب التصديق على الذين التفوا حوله وآزروه. فالناس قد نسوا أن محمداً بشر مثل سائر البشر، وتكوينه لا يختلف عنهم بقوله تعالى: **﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾**[1]. فلا يوجد أحد مؤبد إلا الخالق حسب معتقداتهم، ورغم أنه لم يصدق الناس الخبر للوهلة الأولى، ورفضوا النبأ، لأن محمداً في نظرهم لا يمكن أن يموت، وهو الوحيد الذي يخاطبه الله ويوحي إليه، وينزل عليه

---

(١) الكهف ـ ١١٠.

الملائكة. لذلك، فلا بد أن لا يموت لكي لا تنقطع هذه الصلة وهذه الجسور مع الخالق، من أجل الاستمرار في تغيير الأوضاع، وإنقاذ الناس من التخلف والجهل.

إذاً، بمنظورهم، لا يمكن لمحمد أن يموت تحت هذه القناعة. وإذا مات، فيعتقدون بموته موتهم جميعاً، وموت الحياة أيضاً، ودفن الآمال. خصوصاً، وهو الذي دون غيره من البشر، اختاره الله ليكون نبي هذه الأمة ورسولها. فلابد أن لا يموت. وقد نسوا كما ذكرنا، بأن محمداً بشر كسائر البشر، يؤدي رسالته ويرحل كما رحل من سبقه من الأنبياء والرسل، وتبقى الناس ويبقى الكون في سير لا ينتهي.

خطف موت النبي عقول الناس، حتى أقرب الناس إليه، وممن كانوا حوله. حتى أن الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب، مال مع الناس في البداية وصدق معهم وتأثر بالمفاجأة - الصاعقة على العقول، وبحجم تأثيرها على النفوس. فقام من شدة فرطه من الحزن، خطيباً بالناس وهم يبكون، فقال: «لا أسمعن أحداً يقول إن محمداً قد مات، ولكنه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى بن عمران، فلبث عن قومه أربعين ليلة. . . . والله إني لأرجو أن يقطع أيدي رجال وأرجلهم، يزعمون أنه مات. . . »[١].

ولما احتدم الحزن وشلت العقول، وانفرطت القلوب من هول

(١) الطبري ج ٣ ص ١٩٧ - ١٩٩ وكذلك ابن سعد - الطبقات - مجلد ٢ ص ٢٦٦.

الفاجعة وشدة البكاء والصراخ. جاء أبو بكر، الخليفة الراشدي الأول، وكان عمر بن الخطاب مازال يخطب بالناس. فقال له أبو بكر: «. . . أسكت، فسكت. فصعد المنبر وقال: . . . . أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات. ومن كان منكم يعبد الله، فإن الله حي لا يموت. . . »[1] ثم تلا الآية الكريمة: **﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم. . . ﴾**[2].

بعد هذه الجرأة التي واجه فيها أبو بكر الناس في عز اكتئابها، تقبل الناس الأمر رغماً عنهم، وكأنهم يكذبون أنفسهم بخسارة النبي ورحيله عنهم. وأخذ تصديق الخبر وقتاً حتى تعوَّد الناس واعتادوا على عدم رؤيته تدريجياً. وكاد تصديق الخبر وعدمه يثير فتنة كبرى بين الناس، وكادت تحصل حروب ومنازعات أهلية وداخلية، جرى وأدها بسرعة وتلافي مفاعيلها. ذلك لأن حصولها في حينه يطيح بكل ما أنجزه النبي في حياته، ويشرع الأبواب للمتربصين بوحدة الدولة العربية شراً وكان أن بقيت هذه الصراعات وتفجرها إلى حين بدء التفكير بخلافة النبي (ص).

(١) المصدر السابق.

(٢) آل عمران ـ ١٤٤.

فصل موجز من
سيرة الرسول (ص)

لم يكن محمد بن عبد الله إلا رجلاً ولد وعاش في الجزيرة العربية. شرب من مائها، وأكل من خيراتها، وترعرع بين ناسها، وشبَّ على مشاكلها، وتعرف على قضاياها ومعاناتها. فحمل هموم أرضه وهموم أهلها وسكانها، حتى جاءَه الوحي ونزلت عليه النبوة. فتحول إلى منقذ لهذه الأمة من جهلها، وفتحت له أبواب المجد كي يصنع حضارة وتاريخاً جديدين، لشعب كان منسياً وغافلاً لا يكترث بالدنيا، ولا يهتم للحضارات والأديان، ولا يعرف عن الفلسفة وجدل الفكر، إلا ما تيسر وصوله إلى عدد قليل جداً من بعض الرجال عبر التجارة الآتية من خارج مناطق الجزيرة العربية.

وقد أوردنا بعضاً من مراحل حياة النبي وتعاطيه مع واقعه

من طفولته حتى وفاته. إنما لا بد من إلقاء بعض الضوء على بعض من سيرته وتعامله مع الناس والمجتمع، خصوصاً وأن نبياً مثله استطاع تحويل الجزيرة العربية المهملة، إلى دولة كبرى موحدة، ذاع صيتها كل الارجاء، وانتشرت أخبارها في كل الأصقاع في ذلك الزمن، وفي تلك الحقبة الهامة من التاريخ.

وقد ذكرت كتب السيرة والإخباريون المقدامى والكتاب المحدثون كثيراً من سيرته وحياته. واختلفوا كثيراً في تفسير بعض الحوادث، وقالوا الكثير في شخصيته ومواقفه.

فكل الأخبار تشير إلى أن النبي (ص) كان أمياً، لا يعرف القراءة ولا الكتابة. وتساءلت في الكثير من المواضع، وكيف يكون النبي أمياً، ويختاره الله من دون البشر كلهم لحمل رسالة بهذا الحجم. فهي تحتاج إلى مفكر عظيم ونابغة نادر، كي يقوم بهذه الدعوة وهذه الرسالة الكبرى على مستوى الجزيرة والعالم كله. وقد قيل أيضاً، كيف يكون النبي محمد أمياً، وهو الذي عاش وترعرع في بيت عمه أبي طالب، وكان ابن عمه عليّ صاحب فكر وإبداع وله كتاب «نهج البلاغة» الذي ما زال يذكره الإخباريون حتى عصرنا هذا.

وهناك تساؤل آخر، ماذا كان يفعل النبي في غار حراء، ويمكث شهراً معزولاً عن البشر، يتحنث ويتنسك مدة خمسة عشر يوماً، منذ زواجه من خديجة، وحتى نزول الوحي عليه في سن الاربعين؟ في وقت أنه كان لا يعلم بأنه سيصبح نبي هذه الأمة، ويوحى إليه. وكان من المعروف، ومن عادة أهل

الحنيفة، أنهم يذهبون إلى الغار للتعبد. ألم يكن يفعل ما كانوا يفعلونه، ويحذو حذوهم؟. ألم يكن يجلس وينعزل من أجل الدرس والاطلاع ومعرفة كنه الأسرار؟

إننا نوافق على أن القرآن وصف بالدقة وبلاغة المعنى، وبالمستوى الرفيع في توارد الأفكار وتناسق الآيات. لكن اللافت هنا، ما كتب عن النبي في أحاديثه، وما تضمنته من بلاغة كبيرة، ومدارك واسعة واطلاع وافر. فيقول المسعودي: «إن القرآن كان كتاب خبر لا كتاب بحث ونظر...»[1].

ويروى عن الرسول قوله: «لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن، فمن كتب شيئاً فليمحه».

إذا صح أن هذا الحديث جاء على لسان الرسول، فإن عدة آلاف من الأحاديث المنسوبة إليه، وبهذا العدد والحجم اللافت للنظر، يقودنا إلى الاستنتاج بأن الرسول لم يعترف إلا بما جاء في القرآن. وتكون الأحاديث في هذه الحالة، متفرقات جمعت رغم بلاغتها من محتويات المجتمع والبيئة. وبالرغم من أنها على مستوى كبير من العلم والدراية. فلماذا يطالب الرسول بعدم كتابتها، لا بل محوها إذا كتبت. وأحاديث كثيرة لا يمكن أن يخجل بها، بل يمكن أن يفاخر بها، فلماذا الطلب إذاً بمحوها، إلا إذا كان يتوخى إلصاق تهمة الأمي به بالفعل لا بالاسم والدعاية وهوأمر لا يقترب من الصحة ويجافيها. وسواء كانت الأحاديث مسندة أم من غير سند، فلا بد من عدم التقليل من

(١) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج ٢ ص ٢٩٩.

أهميتها وأهمية فلسفتها القيمة.

سوف نسرد هنا بعضاً من الأحاديث النبوية، والتي تنم عن مدارك واسعة، ومعارف جمة، تعكس طاقته وقدرته المتفوقة على أهل عصره. من هذه الأحاديث:

قوله عند عرضه على القبائل بمكة، وما جرى بينه وبين دغفل من الكلام في النسب: «البلاء مُوكل بالمنطق». ثم إخباره عن الحرب بقوله: «الحرب خدعة» ولم تكن سائدة هذه العبارة في عصره.

وكذلك قوله: الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف. رأس الحكمة معرفة الله. لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. لا يجني على المرء إلا يده. الشديد من غلب نفسه. ساقي القوم آخرهم شرباً. قيدوا العلم بالكتابة. خير المال عين ساهرة لعين نائمة. المسلم مرآة المسلم. المرء كثير بأخيه. ترك الشر صدقة. فضل العلم خير من فضل العبادة. الغنى غنى النفس. الأعمال بالنيات، أي داء أدوأ من البخل. السعيد من وُعِظ بغيره. عفو الملوك بقاء للملك. إرحم من في الأرض يرحمك من في السماء. المرء مع من أحب. المكر والخديعة في النار. المستشار مؤتمن. من قتل دون ماله فهو شهيد. الدال على الخير كفاعله. الندم توبة، كل معروف صدقة. لا يشكر الله من لا يشكر الناس. السفر قطعة من عذاب.

وقوله للأنصار: إنكم لتقلون عند الطمع وتكثرون عند الفزع. وقال أيضاً: الناس معادن كمعادن الذهب. تمام التحية

المصافحة. أمنك من أعتبك، ما نقص مال من صدقة. التائب من الذنب كمن لا ذنب له. الشاهد يرى ما لا يرى الغائب. أعطوا الأجير أجرته قبل ان يجف عرقه. الجنة تحت ظلال السيوف. اتقوا النار ولو بشق تمرة. أعروا النساء يلزمن الحجاب. الكلمة الطيبة صدقة. لا خير لك في صحبة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه. الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر. ما أملق تاجر صدق. خير الأمور أوسطها. الإيمان الصبر والسماحة أفضلكم معرفة. ما هلك امرؤ عرف قدره. شر العمى عمى القلب. الكذب مجانب للإيمان. ما كثر وكفى خير مما كثر وألهى. قلة الحياء كفر. أقيلوا عثرات الكرام. كادت الفاقة أن تكون كفراً. لم يبق من الدنيا إلا بلاء وفتنة. في كل عام ترذلون. زر غبّاً تزدد حباً. ليس منا من غشنا.

وروى عنه أبو مسعود البدري قوله: لا يبقَ على وجه الأرض بعد مائة أحد إلا مات[1].

هذه مقتطفات موجزة ممَّا قاله النبي خلال حياته وتعامله مع الناس، من أجل هدايتهم ورفع مستوى وعيهم. كما ذكر النسَّابون إلى أن من كان أكثرهم حديثاً عن الرسول، هو أبو هريرة (٥٣٧٤ حديثاً). وكان لعائشة (٢٢١٠ أحاديث) ولعبد الله بن عمر وأنس بن مالك ما يقارب حديث عائشة، ولجابر بن عبد الله، وعبد الله بن العباس أكثر من (١٥٠٠ حديث). ولعمر بن

(١) المسعودي ـ مروج الذهب ـ ج ٢ ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

الخطاب حوالي (٥٣٧ حديثاً)[١]. أي ما يقارب نحو خمسة عشر ألف حديث منسوب إلى النبي على ألسنة من كانوا أقرب الناس أليه. كما ورد في كتاب «المسند» لأحمد بن حنبل نحواً من ثلاثين ألف حديثٍ.

وهناك كثير من الروايات عن النبي محمد رسول الله (ص) نقلها كثيرون من الإخباريين. فذكروا أنه عندما بعث رسول الله أبا بكر الصديق أميراً على الحج سنة تسع للهجرة، ونزول سورة البراءَة. فقيل لرسول الله (ص): لو بعثت بها أبا بكر. فقال النبي: «لا يؤدي عليَّ ألا رجل من أهل بيتي..»[٢]. ولما أدرك علي بن أبي طالب أبا بكر، قال له أبو بكر: «أمير أو مأمور؟ فقال علي: بل مأمور..». وهنا تتجلى العائلية والحسب والنسب في التمثيل. وليس الأكفاء ومن هم أعلم ديناً وإسلاماً. لأن الظاهر من سياق الحديث، لا يؤدي إلا إلى هذا الاستنتاج. وقد كانت هذه الرواية كما غيرها مجال خلاف وتأويل بين الكثيرين فيما بعد، حول أحقية الخلافة.

وذكر، أنه عندما أتت ابنه حاتم طي، وتحدثت إلى رسول الله (ص) عن مكارم الأخلاق ومزايا والدها. قال لها رسول الله: «يا جارية هذه صفة المؤمنين حقاً، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه، خلُّوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، والله يحب

---

(١) أحمد أمين ـ فجر الإسلام ـ ص٢١٨ دار الكتاب العربي - بيروت - ١٩٩٥.

(٢) ابن كثير ـ ج ٥ ص ٢٩.

مكارم الأخلاق»[١]. ثم تابع النبي بالقول: «والذي نفسي بيده لا يدخل أحد الجنة إلا بحسن خلق»[٢].

وزعم الواقدي أن رسول الله (ص) بعث علياً بن أبي طالب في ربيع الآخر من سنة تسع للهجرة إلى بلاد طيء، فجاء معه بسبايا فيهم أخت عدي بن حاتم، وجاء معه بسيفين كانا في بيت الصنم، يقال لأحدهما الرسوب والآخر المخذم. كان الحارث ابن أبي اسحق قد نذرهما لذلك الصنم[٣].

قال الإمام أحمد عن وكيع عن الأعمش عن أبي ظبيان عن معاذ أنه لما رجع من دعوة أهل اليمن إلى الإسلام قبل حجة الوداع قال: يا رسول الله رأيت باليمن يسجد بعضهم لبعض، أفلا نسجد لك؟ قال: «لو كنت آمر بشراً أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»[٤].

وفي موضع آخر قال رسول الله (ص) في مقالته الأولى: «ياأيها الناس، من أحسَّ من نفسه شيئاً فليقم أدعو الله له. فقام إليه رجل فقال: يارسول الله إني لمنافق وأني لكذوب وأني لشؤوم. فقال عمر بن الخطاب: ويحك أيها الرجل، لقد سترك الله لو سترت على نفسك. فقال رسول الله (ص): مَهْ يا ابن الخطاب، فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة»[٥]. رواه البخاري.

---

(١) ابن كثير - ج ٥ ص ٥٣.
(٢) ابن كثير - ج٥ ص٥٣.
(٣) ابن كثير - ج ٥ ص ٥٣.
(٤) ابن كثير - ج ٥ ص ٧٩.
(٥) ابن كثير - ج ٥ ص ١٧٦.

وعن الإمام أحمد قال: دعا رسول الله بلالاً للصلاة، فقال: «مروا من يصلي بالناس. فخرج عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب، فإذا عمر في الناس، وكان أبو بكر غائباً، فقلت: قم ياعمر فصلِّ بالناس قال: فقام، فلما كبَّر عمر سمع رسول الله (ص) صوته، وكان عمر رجلاً مجهراً. فقال رسول الله، فأين أبو بكر، يأبى الله ذلك والمسلمون.»[1]. وقال ابن زمعة: لما سمع النبي صوت عمر، خرج وأطلع رأسه من حجرته، ثم قال: «لا، لا، لا يصلي للناس إلا ابن أبي قحافة. يقول ذلك مغضباً»[2].

وفي تخصيص أهل بيته، وقبل وفاته، سئل رسول الله (ص) مجموعة من الأسئلة. فأجاب عنها على التوالي:

- فمن يغسلك يا رسول الله؟ قال: رجال أهل بيتي الأدنى.
- ففيم نكفنك يارسول الله؟ قال: في ثيابي هذه إن شئتم، أو في يمنية أو بياض مُصرّ.
- فمن يصلي عليك يارسول لله؟ فبكى وبكينا... ثم قال: يصلي عليَّ خليلاي وجليساي جبريل ومكائيل ثم إسرفيل ثم ملك الموت مع جنود من الملائكة. وليبدأ بالصلاة عليَّ رجال أهل بيتي ثم نساؤهم...
- فمن يدخلك قبرك يارسول الله؟ قال: رجال أهل بيتي

(١) ابن كثير - ج ٥ ص ١٧٦.

(٢) ابن كثير - ج ٥ ص ١٧٦.

الأدنى. . . إلخ[1]. وقال رسول الله (ص) أيضاً: «ما قبض الله نبياً إلا دفن حيث قبض»[2]. رواه الواقدي.

وقال مسلم بن الحجاج في صحيحه عن النبي (ص) أنه قال: «إن الله إذا أراد رحمة أمة من عباده، قبض نبيها قبلها فجعله لها فرطاً وسلفاً يشهد لها. وإذا أراد هلكة أمة عذبها ونبيها حي، فأهلكها وهو ينظر إليها، فأقر عينه بهلكها حين كذبوه وعصوا أمره. . .»[3].

وفي رواية عن الأمام أحمد قال رسول الله (ص): «من أفضل أيامكم يوم الجمعة. فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليَّ». . . قالوا: يارسول الله كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ـ يعني قد بليت ـ قال: «إن الله قد حرم على الأرض أن نأكل أجساد الأنبياء عليهم السلام. .»[4].

كان النبي محباً للزواج شغوفاً بالنساء، ويريد من ذلك إكثار النسل وإشباع شبقه الجنسي، وإلا لماذا كل هذه النساء اللواتي تزوجهن!!

وفي مكان آخر روى الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي، قال: تزوج رسول الله (ص) بخمس عشرة امرأة، دخل منهن بثلاث

---

(١) ابن كثير ـ ج ٥ ص ١٩٢ ـ ١٩٣.
(٢) ابن كثير ـ ج ٥ ص ٢٠٣.
(٣) ابن كثير ـ ج ٥ ص ٢٠٩.
(٤) ابن كثير ـ ج ٥ ص ٢٠٩.

عشرة واجتمع عنده إحدى عشرة، ومات تسع هن:

١ ـ عائشة بنت أبي بكرالصديق.

٢ ـ حفصة بنت عمر بن الخطاب.

٣ ـ أم حبيبة، رملة بنت أبي سفيان.

٤ ـ زينب بنت جحش الأسديه.

٥ ـ أم سلمة، هند بنت أبي أمية المخزومية.

٦ ـ ميمونة بنت الحارث الهلالية.

٧ ـ سودة بنت زمعة العامرية.

٨ ـ جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار المصطلقية.

٩ ـ صفية بنت حُييًّ بن أخطب النضرية الإسرائيلية الهارونية.

إضافة إلى هؤلاء النساء، فقد كانت له سريتان هما:

ـ مارية بنت شمعون القبطية المصرية

ـ وريحانه بنت شمعون القرظية[١].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أول امرأة تزوجها رسول الله (ص) هي خديجة بنت خويلد.

فيما يذكر أن أبا عبيدة معمر بن المثنى قال: «تزوج رسول الله (ص) ثماني عشرة امرأة..»[٢].

وقال يونس بن بكير عن أبي يحيى عن جميل بن زيد

(١) ابن كثير ـ ج ٥ ص ٢٢٢.

(٢) ابن كثير ـ ج ٥ ص ٢٢٦.

الطائي عن سهل بن زيد الأنصاري ، قال: تزوج رسول الله (ص) امرأة من بني غفار، فدخل بها، فأمرها فنزعت ثوبها. فرأى بها بياضاً من برص عند ثدييها، فأغاظ رسول الله وقال: «خذي ثوبك. . . ولما أصبح قال لها: إلحقي بأهلك. . »[١].

وعن ابن عباس قال: أقبلت ليلى بنت الحطيم إلى رسول الله. . . وضربت منكبه، وقالت: أنا بنت مطعم الطير ومباري الريح، أنا ليلى بنت الحطيم جئتك لأعرض عليك نفسي، تزوجني؟ فقال: «قد فعلت. فرجعت إلى قومها فقالت: قد تزوجت النبي. فقالوا: بئس ما صنعت، أنت امرأة غيرى ورسول الله صاحب نساء تغارين عليه. . »[٢].

هنا، يبدو أن كثيرين من نساء العرب كن يرغبن في الزواج من النبي (ص) وتعرضن أنفسهن عليه، ظناً منهن أنه بهذا الزواج يحصلن على النسب الرفيع وشرف الانتماء والسلالة. فتزاحمت كثيرات مطلقات وفتيات أخريات إلى المسارعة بطلب الزواج والانتساب إلى رفعة المقام. فتزوج النبي محمد جراء ذلك بالفتيات الصغيرات وبالنساء الكبيرات في السن. فجاء عن ابن عباس قال: إن ضباعة بنت عامر بن قرط، كانت تحت عبد الله بن جدعان فطلقها، فتزوجها بعده هشام بن المغيرة، فولدت له سلمة. وكانت امرأة ضخمة، جميلة لها شعر غزير يجلل جسمها. فخطبها رسول الله (ص) من ابنها سلمة، فقال حتى أستأمرها؟ فاستأذنها فقالت:

(١) ابن كثير - ج ٥ ص ٢٢٨.

(٢) ابن كثير - ج ٥ ص ٢٢٩.

«يا بني، أفي رسول الله تستأذن؟ فرجع ابنها فسكت ولم يرد جواباً، وكأنه رأى أنها طعنت في السن، وسكت النبي (ص) عنها..»[1].

تستوقفنا هنا، مسألة زواج النبي (ص) المتعددة من عدد كبير من النساء، وقد أثار هذا الموضوع جدلاً واسعاً بين أوساط المستشرقين وقالوا كلاماً كثيراً عن شبق النبي الجنسي، وما دار حوله من زيجات مختلفة الأعمار والمواضع. والذي لا يعقل هو أن يتزوج النبي محمد من فتاة يقال إنها كانت صغيرة السن جداً، لا تتجاوز التسع سنوات وقيل سبع سنوات. فقد جاء عن عائشة انها قالت: «تزوجني رسول الله (ص) وأنا بنت ست سنين، وأُدخلت عليه وأنا بنت تسع سنين، وكنت ألعب على المرجوحة وفي جمة، فأتيت وأنا ألعب عليها، فأُخذت فهيئت ثم أُدخلت عليه»[2]. وكيف يطلب الزواج من امرأة مسنة كأم سلمة. ثم زواجه من زينب بنت جحش والتي أثارت لغطاً وتفسيرات كثيرة عند العديد من الكتاب، لا مجال لحصرها الآن. فيما يبرر هذا الزواج، ويقول عنه محمد حسين هيكل بالقول: «بأن العظماء لا يخضعون لقانون»[3].

وهنا نجد من الضرورة عرض الرواية في زواج النبي من زينب بنت جحش، للتوضيح وليس للتقريع، فيقال:

«مرَّ النبي ببيت زيد (مولاه) وهو غائب فاستقبلته زينب،

(١) ابن كثير - ج ٥ ص ٢٢٩.
(٢) هيكل - حياة محمد - ص ٣١٦.
(٣) هيكل - ص ٣١٥.

وكانت في ثياب تبدي محاسنها، فوقع منها في قلبه شيء لجمالها، فقال: سبحان مقلب القلوب، ثم كرر هذه العبارة ساعة انصرافه. فسمعتها زينب ورأت في عينيه وهج الحب. . . وأبلغت زيداً ما سمعت، فذهب من فوره إلى النبي (ص) يذكر له استعداده لتسريحها، فقال له: أمسك عليك زوجك واتق الله. لكن زينب لم تعد تحسن من بعد عشرته فطلقها. . . إذ ذاك تزوجها النبي وأطفأ لاذع حبه ومتوهج غرامه. . .»[1] ونزلت الآية الكريمة: **﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ماالله مبدية وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه، فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً كان أمر الله مفعولاً﴾**[2].

وقد تحدث المستشرقون متسائلين عن هذا الزواج: أي نبي هذا؟ وكيف يبيح لنفسه ما يحرمه على غيره، وكيف لا يخضع للقانون الذي يقول إن الله أنزله عليه، وكيف يخضع لسلطان الحب، ليصل الامر به إلى تطليق زينب من مولاه ثم يتزوجها؟[3] هذا ماقاله المستشرقون كما ورد في كتاب هيكل. وفي باب آخر ذكروا أنه «حين فتح باب بيت زيد، لعب الهواء بأستار غرفة زينب، وكانت ممددة على فراشها في ثياب نومها،

(١) أمير مهنا الخيامي ـ زوجات النبي ـ ص ١٨.

(٢) الأحزاب ـ ٣٧.

(٣) هيكل ـ ص ٣١٦.

فعصف منظرها بقلب هذا الرجل الشديد الولع بالمرأة ومفاتنها، فكتم ما في نفسه. . . . وصور بعضهم بأن زينب ساعة رآها النبي، كانت نصف عارية أو تكاد. . .»[1].

واللافت للنظر هنا، أنه منذ توفيت زوجته الأولى خديجة، لم يعرف النبي الزواج مرة ثانية إلا «حين تخطى الخمسين من العمر»[2]. وقيل بأنه لم ينجب من جميع النسوة اللواتي تزوجهن، بالرغم من رغبة النبي الشديدة بإنجاب ولد، مثله مثل أي رجل يتمنى أن يرثه ولد، فكيف وهو أب لجميع المسلمين؟ فقد كان يتمنى أن يكون له ولد يأتي من بعده، وكانت هذه في نفسه، باعتباره إنساناً دون أن تمنع عنه نبوته هذه الرغبة. حصل له ذلك في وقت أن النبي كان قد تزوج بعد خديجة تسع نساء. فمنهن الطاعنة في السن، ومنهن الفتيات في مقتبل العمر، ومنهن لم تتجاوز الثلاثين، فكيف لم ينجب منهن ولا ولداً!! وهو أمر يثير العجب، وخصوصاً أنه أنجب من زوجته الأولى خديجة عدة إناث وذكراً لم يكتب له الحياة كما سبق وذكرنا.

واحتدم التساؤل في موضوع زواج النبي (ص) من الكثيرات من النساء إلى حدود، أن كثيرات كنَّ يأتين ويعرضن أنفسهن عليه، وذكر أن هذا الأمر حصل مع مارية القبطية «لما واقعها في بيت حفصة وكانت غائبة، فجاءت وشق عليها كون ذلك في بيتها وعلى فراشها. . .»[3] وبسببها شعر النبي بالذنب

---

(١) هيكل - ص ٣٢٦.

(٢) هيكل - ص ٣١٨.

(٣) تفسير الجلالين - ص ٧٥١.

وقال لزوجته حفصة: حرام عليَّ. فنزلت الآية الكريمة عليه في سورة التحريم بقوله تعالى: **﴿يا أيها النبي. لِمَ تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم﴾**[١]. «ومارية هذه، كان قد أهداها المقوقس إلى النبي في مرتبة السراري مع أختها سيرين، وجعل سيرين لحسان بن ثابت..»[٢]. وقد ولدت له مارية ولداً أسماه إبراهيم. وكان مولده سبباً أثار غيرة زوجات النبي. حتى أنه قيل «إن النبي (ص) حمل إبنه إبراهيم بين يديه إلى عائشة وهو فياض بالبشر. ودعاها لترى مابين إبراهيم وبينه من عظيم الشبه. فنظرت عائشة إلى الطفل وقالت: إنها لا ترى بينهما شبهاً..»[٣] قالت ذلك بسبب الغيرة الشديدة من مارية، وهو أمر طبيعي أن يحدث مثل ذلك. حتى أن بعض نسائه كن يتواطأن عليه لإثارة الغيرة من إحداهن. وهو ما حصل مع حفصة وعائشة عندما دخل النبي على مارية، وانتظرت حفصة طويلاً، مما أثار غيرتها. وقد أثارت حفصة وعائشة ضجة، تريدان بذلك الاقتصاص لنفسيهما من ميل النبي نحو مارية أكثر من غيرها، لأنها أنجبت له إبراهيم.

وللتدليل على ذلك، وما بلغ من المشاكل بين أزواج النبي، نذكر أنه حين «أوفدن إليه يوماً زينب بنت جحش، وهو عند عائشة تصارحه بأنه لا يعدل بين نسائه... ألم يجعل لكل

---

(١) التحريم ـ ١ .

(٢) هيكل ـ ص ٤٤٣.

(٣) هيكل ـ ص ٤٤٤.

امرأة يوماً وليلة: . . . ثم رأت سودة انصراف النبي عنها وعدم بشاشته لها. . . وبلغت منازعات أمهات المؤمنين حدَّ همَّ النبي معه أن يطلق بعضهن لولا . . . وانقطع النبي عن نسائه شهراً. . . وقد سرى الهمس بين المسلمين أن النبي مطلق أزواجه. . »[١] وقد فعل ذلك النبي (ص) بدوافع تأديب أزواجه وإعادتهن إلى رشدهن. وهذا ما حصل بعد نزول سورة التحريم، وعرض القصة كلها، إذ جرى إبلاغ النبي بأنه معصوم عن الخطأ، ومحلل له أن يفعل ما يشاء. وبأن توبة نسائه وعودتهن **﴿مسلمات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا﴾**[٢].

وما تهديد النبي بطلاق أزواجه ومعاقبتهن، إلا دليلاً واضحاً على أنه مر عليه فترة لم يستطع أن يعدل بها حسب ما ورد على لسان أزواجه. فخاف من أن تتعقد الأمور وتفلت من يديه، ويصبح ألعوبة على ألسنة الناس. فلجأ إلى هذه المعاقبة والتصرف لردعهن. وساعده في ذلك نزول الآية التي أعطته وضوحاً وثقة من الله، وبأن ما يفعله لا يغضب الخالق ولا يخالف العقائد الإيمانية وما هم عليه الأنبياء من مرتبة مقربة من الله.

وخلاصة القول، إن حياة النبي وسلوكه الشخصي بين الناس، لم يخل من الحالات الإجرائية التي تحصل مع أي كان، وبأن النبي قد أمضى في حياته الزوجية، ظروفاً غير مستقرة،

---

(١) هيكل ـ ص ٤٤٩ ـ ٤٥٠.

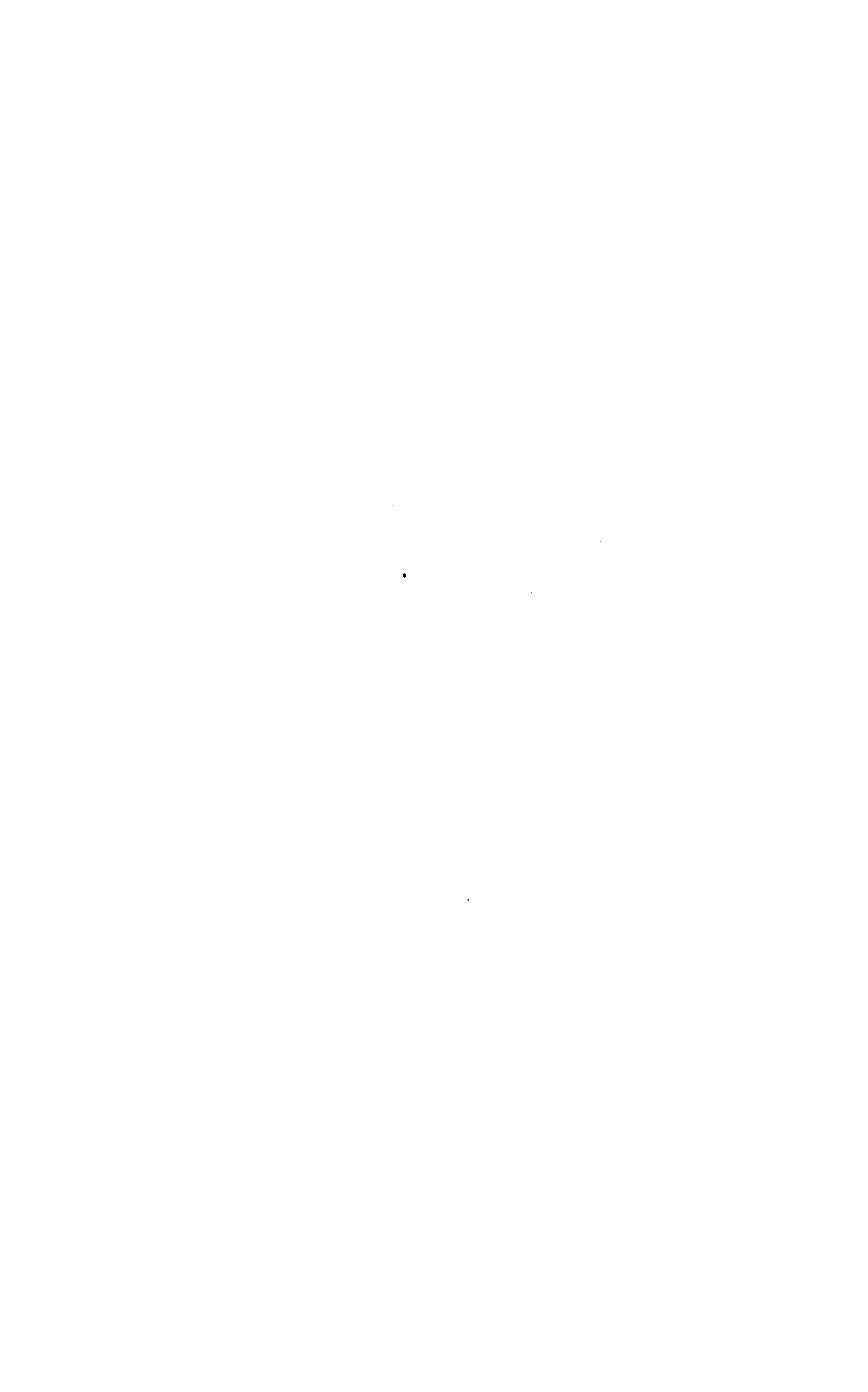
(٢) التحريم ـ ٥.

وواجه متاعب كثيرة.

وفي النهاية، إن النبي قد مات، و خلف وراءه إرثاً ضخماً، كان عبئاً على الوارثين، لم يستطيعوا من بعده أن يحافظوا على ما حققه من إنجازات الوحدة وتجميع العرب. بل ظهرت مرحلة جديدة بعد وفاته مباشرة، كانت غنية بالخصومة والخلافات.



القسم الثاني



الخلاف
على الاستخلاف

الخلافة، بداية، تعني إدارة امور الدولة الإسلامية بشكل عام، ورعاية أمور الناس في الدين والدنيا نيابة عن النبي (ص). وقد سمي خليفة لكونه خلف النبي (ص) في أمته، فهو إذن بمنزلة الرسول في ولاية الأمة الإسلامية. وبيده الحل والربط وزمام الأمور كلها. وبيده إدارة البلاد والهيمنة على الوظائف والأموال. وبيده وضع الخطط للدولة إن على مستوى الدين أو على مستوى الدنيا، اعتماداً على حقه في المسؤولية الشاملة «لاشتمال منصب الخلافة على الدين والدنيا»[1].

ونظراً لأهمية هذا المنصب وحكمه المطلق، فما إن مات

(1) ابن خلدون ـ المقدمة ص ـ ٢٠٧.

النبي (ص) ودفن في المدينة، حتى ظهرت مسألة الاستخلاف. وجرى بها خلاف يطول ذكره وشرحه. إنما مشكلة الخلافة انتصبت أمام أعين الناس كحقيقة لا مفر منها، لأنهم وجدوا أنفسهم بحاجة إلى من يرعى الأمور ويديرشؤون المسلمين بعد موت النبي. فمن هو القادر على حمل هذه القيادة، والإمساك بالامانة؟.

نعم، لا يمكن لإمبراطورية بهذا الحجم، أن تبقى بلا رأس أو حاكم أو سلطان. فلا بد أن يكون هناك رئيس يرعى شؤونها ويدير أمورها. ولا يعقل أن تبقى الدولة من دون خليفة للنبي (ص) سواءً أكان عادلاً أم جائراً. وفي ذلك رأي ابن تيمية قائلاً: «ستون سنة من إمام جائر، أصلح من ليلة بلا سلطان»[1].

وما إن مات النبي (ص)، حتى عاد الماضي يحفر في نفوس المتربصين والنازعين إلى شهوة السلطة والحكم، وعاد الماضي يستيقظ في نفوس المنتقمين والفاقدين لدورهم بحضور النبي (ص). وبدأ صراع خفي يدور في النفوس قبل أن يشيع جثمانه ويستقر في مثواه الأخير.

وبالرغم من أن النبي محمداً (ص) لم يحدد أو يصرح علناً وبوضوح، الشخص الذي سيخلفه بعد وفاته، ولم يحدد الطريقة التي ستؤدي إلى وصول خليفة من بعده، فإنه قد قال في أكثر من مناسبة، أحاديث تعطي أهمية كبرى للرأس والقائد، وضرورة وجود هذا الرأس في حياة الأمة. فمن قوله: «إذا خرج ثلاثة في

---

(١) ابن تيمية ـ السياسة الشرعية ـ ص١٦٢ .

سفر فليؤمروا أحدهم». وروى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمر أن النبي (ص) قال: «لايحل لثلاثة أن يكونوا بفلاة من الأرض إلا أَمَّروا عليهم أحدهم». ويوافق على قول الرسول، ماقاله فيما بعد عبد القادر الأسفراييني في كتابه «الفرق بين الفرق» فقال: «إن الإمامة فرض واجب على الأمة».

قال أبو بكر البزار[1] في مسنده، قالوا: يا رسول الله ألا تستخلف علينا؟ قال: «إني إن استخلف عليكم فتعصون خليفتي ينزل عليكم العذاب»[2] أخرجه الحاكم في المستدرك وأبو اليقظان.

إن مسألة الاستخلاف إذاً، لم تكن واضحة كل الوضوح، بل طغى عليها الغموض واللبس، ولم تأت الأحاديث المنقولة وكل الأسانيد برأي صريح يؤكد أو يحسم موضوع الاستخلاف، وحصره بسند لأحد الخلفاء. إنما بقيت كل الاستنتاجات حول الاستخلاف، محصورة في روايات منقولة عن ابن وأبي وأبو إلى آخر السبحة من روايات النقل المنقولة والاستنساخ واحداً تلو الآخر.

وقد كانت جميع هذه الروايات، مستوحاة من بعض القصص، والمحطات الشعبية التي كان يلتقي فيها الرسول مع أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم. فجاءَت الأحاديث كلها تشير إلى استنتاجات وتحليلات من هنا وهناك، لتأكيد الزعم بأحقية

---

(١) هو أحمد بن عمرو بن عبد الخالق.

(٢) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص١٩ .

مما باعد بين أهل البيت وأمراء القبائل التي كانت موحدة بشخص الرسول، فانفرطت الوحدة وانهارت بين القبائل، وتفككت الدولة وتشرذمت الناس، وتفجرت الصراعات بموت ووفاة الرسول (ص). وتركت قضية الاستخلاف في مهب الريح، وعرضة للأخذ والرد والقال والقيل، حابلة بمشيئة القضاء والقدر.

من هنا، يمكن أن نستنتج مما سبق، بأن موضوع الاستخلاف بقي معقداً، ومن دون حل، حتى على لسان الرسول (ص) حسب ما تقدم وذكرنا. وبما ان النبي محمداً (ص) يعرف أنه هو آخر المرسلين، وهو من انتهت فيه النبوة والارسال وتوقف الوحي. وجب ان يكون هناك نص أو تشريع ديني يحسم الجدل حول هذه المسألة، وينهي كل اللغط الذي نشأ بسببها. وإلا فإن الأمر يجرنا إلى القول بأن احتمال الانزال والايحاء، وإرسال المرسلين ما زال مستمراً، أو قل سيستمر حتى إنهاء الجدل الذي حصل حول الاستخلاف.

وعليه، فإن استخلاف أربعة خلفاء بالطريقة التي تمت، تؤكد عمق الأزمة حول قيادة المسلمين. والخلفاء الراشدون الأربعة هم: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب. بينما ذهب آخرون إلى إسناد مصادر وأحاديث عن اثني عشر خليفة كلهم من آل قريش. من هذه الأحاديث ما قاله البزار: «لا يزال أمر أمتي قائماً حتى يمضي اثنا عشر خليفة كلهم من قريش»[1] وكذلك حديث آخر عن أحمد

(١) السيوطي - تاريخ الخلفاء ص٢٣ .

والبزار بسند حسن عن ابن مسعود أنه سئل: كم يملك هذه الأمة من خليفة؟ فقال: «إثنا عشر كعدَّة نقباء من بني إسرائيل»[1].

ولعل شرح القاضي عياض هو الأقرب، حين قال: «كلهم يجتمع عليه الناس». وهذا يعني أن تجتمع الأمة على الخليفة والانقياد له، لا أن يجتمع الخليفة على الأمة، كما حصل في التنصيب الفردي. وهو ما سمي فيما بعد، بالبيعة.

والبيعة لم تكن نتيجة اجتماع جميع الناس، وليست صادرة عنهم، بل كان يقررها حسب ما سمي أهل البيت ومن هم الأقوى نفوذاً من زعماء قريش وأسيادها. وهو ما حصل بالفعل مع أبي بكر وعمر وعثمان وعلي. وبلغ الأمر بمفهوم البيعة، بالانتقال إلى مفهوم الاستئثار والتحكم، والانفراد والتفرد بالتسمية المطلقة للحاكم أو للخليفة لحكمه وعن طريق نفسه.

والذي حصل بعد البيعة والخلافة، أي منذ عهد معاوية وما بعده، اختلفت الناس في التسميات والبيعات وصفات الحكم والحكام بين خليفة وملك وأمير وسلطان. فانقسم الناس جراء ذلك، وانتشر الفساد وطغى التسلط والاستئثار والاستفراد بكل مقدرات الحكم المطلقة رغماً عن الناس وعن إرادتهم. وفي هذا المآل، يقترب حديث للبزار عن رسول الله ﷺ قال: «إن أول دينكم بدأ نبوة ورحمة، ثم يكون خلافة ورحمة، ثم يكون ملكاً وجبرية»[2].

---

(١) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص٢٣ .

(٢) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص٢٣ .

إن كل ما تقدم من أحاديث واستنتاجات، والتي ليس لها سند واضح حول الاستخلاف. أدت إلى انفراط العقد، والتسابق على الخلافات، وإطلاق التسميات والألقاب العشوائية. فصار كلهم يتسمى بالخليفة أو الملك أو بغيره، مما أنذر بالفتن والقلاقل، وانفجار الصراعات البشعة بين أهل البيت وغيرهم، مما فسره البعض بتداني قيام الساعة في حينه، «من خروج الدجال وما بعده»[1].

لذلك، نستنتج، أن سند البيعة بالخلافة كان ضعيفاً وغير قوي. بضعف الأحاديث المسندة وغير المسندة، وعدم وضوح الحصرية، والأحكام التشريعية من مختلف مصادرها. وطالما النبي محمد ﷺ لم يستخلف أحداً، فإن مسألة الخلافة بقيت غير واضحة، وظلت محط نزاع وشرور وتجاذب علة السلطة من جميع الفئات والقبائل. وخصوصاً الصراع الحاد الذي احتدم بين آل قريش من جهة، وبني أمية من جهة أخرى، حول أحقية الخلافة والحكم.

ومن باب آخر، ذكر البزار في حديث له قال: قال رسول الله ﷺ للعباس: **«فيكم النبوة والمملكة»**[2] يقصد آل قريش. وهذا الحديث يتفق مع ما قاله الطبراني[3] قال رسول الله ﷺ: **«رأيت بني مروان يتعاورون على منبري فسرني ذلك»**[4].

---

(١) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص٢٥ .

(٢) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ص٢٧ .

(٣) هو سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الشامي.

(٤) المصدر السابق ـ ص٢٧ .

واللافت في مسألة الاستخلاف هنا، حدة الصراع على الخلافة، والتنافس الشديد بين الأشراف والمقربين وزعماء القبائل. وبروز التقارب من النبي محمد ﷺ لهذا الزعيم أو ذاك، بما هو محاولة لتشريع الحكم والاستخلاف، وتغطية ذلك بأحاديث وردت على لسان النبي محمد ﷺ ليس لها من الوضوح والغاية ما يبررها، أو يؤكد بأحقية هذا على ذاك، إلى آخر ما في هذا المسلسل من أحاديث وروايات يطول الحديث عنها، ولم تكن الغاية منها إلا تبرير إسناد الحكم أو إلصاق الخلافة واحتكارها من جميع الطامعين والمتنافسين على الحكم ليس إلا.

وظهرت على السطح مجموعات كثيرة وعدة فرق تنادي بأحقيتها، وتحاول نيل الخلافة وتعتبرها من إرثها: فكان فريق المهاجرين (المكيين) وفريق الأنصار (أهل المدينة). وصار كل فريق يسعى إلى أن تكون السلطة من حقه والقيادة من نصيبه. وبذلك يمكن القول بأنه فور موت النبي (ص)، ظهرت رواسب الخلافات القديمة المطمورة تحت الرماد إلى الظهور بين مكة والمدينة.

وما ان وارى جثمان النبي (ص) الثرى، حتى دب الخلاف واستعرت نار النزاع على خلافته، تحت عدة ذرائع وأسباب، ليس أقلها، دوافع سياسية واقتصاديه واجتماعية. فعقد الأنصار اجتماعاً في «سقيفة بني ساعدة» وأعلنوا الخلافة لسعد بن عبادة الخزرج الأنصاري. في حين كان علي بن أبي طالب قد بادر إلى دعوة أحد الأنصار، وهو أوس بن خولي، كي يشارك في النزول مع

الآخرين إلى قبر النبي. وفهم من ذلك معنى كلمة «النصيب» التي نادى بها منادي الأنصار بالمهاجرين قائلاً؛ «أجعلوا لنا في رسول الله نصيباً في وفاته كما كان لنا في حياته».

وفي موضوع نشوب هذا النزاع المبكر على الخلافة، قال محمد بن أسحق: «لما توفي رسول الله (ص) إرتدت العرب، واشرأبت اليهودية والنصرانية، ونجم النفاق، وصار المسلمون كالغنم المطيرة في الليلة الشاتية لفقد نبيهم... وإن أكثر أهل مكة لما توفي رسول الله (ص) همّوا بالرجوع عن الإسلام وأرادوا ذلك...»[١].

أستطرد هنا لأقول بأن ما حصل مع النبي محمد (ص)، حين وفاته بعدم استخلاف أحد، لم يحصل هذا مع النبي موسى بعد وفاته، إذ استخلف الله يشوع بن نون من بعده. فجاء في التوراة: وكان بعد وفاة موسى، عبد الرب، أن الرب كلم يشوع بن نون، مساعد موسى، قائلاً: «إن موسى عبدي قد مات، فقم الآن واعبر الاردن هذا، أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لبني إسرائيل... كما كنت مع موسى أكون معك، لا أهملك ولا أتركك»[٢].

والمهم، لما عرف أبو بكر وعمر بن الخطاب بأمر اجتماع «سقيفة بني ساعدة»، هرعا مسرعين إلى المكان. وخطب أبو بكر قائلاً: «يامعشر الأنصار، منا رسول الله فنحن أحق بمقامه».

---

(١) ابن كثير - ج ٥ ص ٢١٢.

(٢) سفر يشوع ١/١ - ٢ - ٥.

فأجابه الأنصار: منا أمير ومنكم أمير. فقال أبو بكر: «منا الأمراء ومنكم الوزراء». وكادت الأمور تتحول إلى فتنة كبيرة بعد الجدل الحامي والحاد بين الفريقين. فجاء أبو عبيدة بن الجراح وحسم الصراع، عندما تقدم إلى أبي بكر وبايعه بالخلافة. فكان أبو بكر أول خليفة بعد النبي من بين الخلفاء الأربعة. والذين أطلق عليهم المسلمون «الخلفاء الراشدين» وهم على التوالي: أبو بكر الصديق من بني تميم، وعمر بن الخطاب من بني عدي، وعثمان بن عفان من بني أمية، ثم علي بن ابي طالب من بني هاشم، وكلهم من المهاجرين.

ويبدو من سياق التطورات أن هذا الحلف الثلاثي المكون من إبي بكر وعمر بن الخطاب وإبي عبيدة بن الجراح، قد شكل ضربة قوية للهاشميين بإقصائهم عن لعب دور في الحياة السياسية خلال حياة النبي وبعدها. فصار هؤلاء الثلاثة «موضع حسد الصحابة الآخرين»(١). ونجح أبو بكر باستبعاد علي عن الزعامة وخلافة المسلمين، بعد أن شغله الخوف كثيراً من تفضيل عليّ بن أبي طالب عليه، وخصوصاً بعدما أمره النبي (ص) - لعلي - بقراءَة سورة (التوبة) على المشركين في السنة العاشرة للهجرة (٦٣١م)، والتي شكلت لأبي بكر اضطراباً وقلقاً من تقدم عليّ عليه. فبادره أبو بكر قائلاً؛ هل تأتي أميراً أم مأموراً؟ فأجابه عليّ بل مأموراً. فاطمأن أبو بكر، وتم تكليفه ليصلي بالناس في السنة التي مرض فيها النبي وسبقت وفاته. وإمامة الناس كانت تعني شيئاً كبيراً

---

(١) هنري لامانس - الثلاثية - ص ١٢١.

وهاماً لدى المسلمين. وقد علق لامانس على ذلك قوله: بأن أبا بكر أقدر سياسي وهو الذي أطلق شعار: «لا يجوز أن تجتمع الخلافة والنبوة في بيت واحد»[1]. كما ضمن الخلافة لعمر بن الخطاب فيما بعد.

لكن الصراع لم ينته عند خلافة أبي بكر، إذ بقيت رواسب النوايا والنوازع بشأن الخلافة قائمةً تحت الرماد، فاعتبر بنو هاشم أنهم كانوا ضحية خطة مدبرة لإبعادهم عن الخلافة. وهم لم يشاركوا في اجتماع «سقيفة بني ساعدة». مما جعل علياً يعارض خلافة أبي بكر ويتخلف عن تأييدها. «فبعث إلى عتبة بن أبي لهب ينهاه عن مبايعته»[2] حتى أن أبا سفيان لم يبايع أبا بكر وقال: «أرضيتم يا عبد مناف أن يلي هذا الأمر غيركم»[3].

نستطرد هنا، لنتوقف عند معنى الخلافة ونظامها. فيقول الماوردي؛ «الخلافة هي نيابة عن صاحب الشرع محمد (ص) في حفظ الدين وسياسة الدنيا»[4].

والخليفة بالمعنى العام، هو الذي يصير رئيساً دينياً وسياسياً بعد رسول الله (ص). وهو أيضاً يجمع بين سلطتين: دينية ودنيوية. بينما يقول ابن خلدون في موضوع الخلافة بأنها: «حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية

---

(١) هنري لامانس ـ الثلاثية ص ـ ١١٥ ـ ١١٦.
(٢) اليعقوبي ـ تاريخه ـ النجف ـ ١٩٥٨ ج ٢ ص ١٠٣.
(٣) الطبري ـ ج ٣ ص ٢٠٢.
(٤) الماوردي ـ الأحكام السلطانية ـ ص ٢.

والدنيوية. . . . وخلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به. . .»[1].

والخلافة نظام فرضته ظروف الحياة بعد موت النبي (ص)، الذي لم يستخلف من بعده أحداً. أولم يذكر نصاً لأحد يحدد معنى الخلافة وحصرها. بل كل ما ذكر أن الأمر ترك شورى بين المسلمين.

وبالعودة إلى ما فرضه اجتماع «سقيفة بني ساعدة» بخلافة أبي بكر، إضطر علي بن أبي طالب إلى القبول قسراً، وأن يتعاطى مع الواقع ومجريات الأمور تماشياً مع الدوافع الكامنة وراءه. وبعدما شعر بأن الأمر قد خرج من يده، جارى وتقرب من أبي بكر وتعاون معه. ثم أخذ الصراع يأخذ شكله الديني، بمعزل عن الدوافع السياسية والاجتماعية القائمة وراء ذلك في الجوهر. فعلي يعتبر أن الخلافة من حقه وهو «حق إلهي»، كونه يعتبر نفسه أعلم الناس وأفضلهم، وهو أيضاً من سلالة بني هاشم التي هي سلالة النبي وأهله. وهذا «الحق الإلهي» اعتمده الشيعة لاحقاً، وصار من أصول العقيدة عندهم.

واحتدم النزاع على الخلافة، وأخذ الجدل مداه في استخدام الأحاديث واستنسابها في أحقية كل طرف بالخلافة. وأخذ كل فريق يستنبع أقوالاً منسوبة وحوادث لها دلالات وإشارات تدلى بحق هذا الفريق بالخلافة، وبالتالي إبطالها وبطلانها على الفريق الآخر.

---

(١) ابن خلدون ـ المقدمة ـ ص ٣٣٨.

وبذلك، اشتعلت القلوب الملآنة، والأصوات التي كانت خافتة أيام النبي (ص) وأخذت الأمور اتجاهاً خطراً ينذر بانقسامات مستقبلية، ما لبثت أن ظهرت سريعاً على السطح، حتى طاولت كيفية أداء الصلاة والشكل الذي تكون فيه عند أدائها. وفي ذلك قالت أم سلمة بنت أبي أمية زوج النبي (ص): «كان الناس في عهد رسول الله (ص)، أذا قام المصلي يصلي، لم يعدُ بصر أحدهم موضع قدميه. فتوفي رسول الله وكان أبو بكر، فكان الناس إذا قام أحدهم يصلي لم يَعْدُ بصر أحدهم موضع جبينه. فتوفي أبو بكر، وكان عمر. فكان الناس إذا قام أحدهم يصلي لم يعد بصر أحدهم موضع القبلة. فتوفي عمر وكان عثمان، وكانت الفتنة، فتلفت الناس يميناً وشمالاً»[1]. وهنا يبدو حصر الفتنة والقاء مسؤوليتها على عثمان وخلافة عثمان، فيما الصحيح أن الفتنة كانت موجودة ومطمورة لكنها انفجرت وأخذت أوسع مداها إبان خلافة عثمان.

لا يمكن أن ننكر هنا، طبيعة هذا العربي البدوي، الذي انخرط في دين الإسلام الجديد، من تكوينه الخلقي المتردد الفالت. يحدوه النزوع إلى التقلب وعدم الاستقرار. فقد ذكر أبو بكر بن أبي شيبه عن جرير بن عبد الله الجبلي، أن رجلاً من أهل اليمن يقال له ذا عمرو قال له: «يا جرير إن لك عليَّ كرامة، وإني مخبرك خبراً. إنكم معشر العرب لن تزالوا بخير ما كنتم إذا هلك أمير تآمرتم في آخر. وإذا كانت بالسيف كنتم ملوكاً

(١) ابن كثير - ج ٥ ص ٢٠٨.

تغضبون غضب الملك، وترضون رضى الملك»[1]. رواه الإمام أحمد والبخاري. وفي رواية أخرى عن خطر الفتن، أخرج أبو عبيد في الغريب عن أبي بكر قال: «طوبى لمن مات في النأنأة»[2] أي في أول الإسلام قبل تحرك الفتن.

نستفيد من هذه الروايات لنعود إلى موضوع الخلاف على الخلافة. والأوضاع التي آلت إليها الجزيرة العربية بعد موت النبي (ص) واستخلاف أبي بكر، خليفة على المسلمين. بطريقة لم يكن فيها للمسلمين أي دور.

فقد أخذ الخليفة أبو بكر ومناصروه إلى تبرير خلافته، وشرعيتها، استناداً إلى عدة أقوال وأحاديث وروايات تمسكوا بها في الدفاع عن انتقال الخلافة إليهم. وقد اعتمد هؤلاء على عدة أمور في مبايعة أبي بكر. فقيل مرة على أساس السبق إلى الإسلام، ثم على أساس تفويض من رسول الله (ص) ودعوته أبا بكر ليصلي بالناس عندما اشتد مرضه، وتالياً على أساس اعتبارات أخرى كالقول إن أبا بكر كان ثاني اثنين في الغار.

في مقابل ذلك، لا يوجد في الإسلام نص صريح وواضح ومحدد في مسألة الاستخلاف، وكذلك في موضوع الشورى، وفي مسألة أنظمة الحكم وأشكالها، كي يتبعوه دون غيره، وكي يحسموا الجدل حول هذه المواضيع، بالرغم من أن هناك نصاً في القرآن يأتي على ذكر الشورى. كقوله تعالى: ﴿. . . **وأمرهم**

(١) ابن كثير - ج ٥ ص ٢١١.

(٢) السيوطي - ص ١٠٨.

﴿شورى بينهم﴾[1]. وهو ما يعتبره بعض المحدثين، بأن التفسير لمسألة الشورى الواردة في القرآن، لا ترد في سياق التشريع، وإنما من خلال وصف «أخلاقية» المؤمنين و «سلوكيتهم»، وهو بالتالي مبدأ «إستحساني»، وليس بمبدأ تشريعي ينص عليه القرآن. وإنما يرجع إلى نوع من «الشورى الفوقية» محصورة بعدة أشخاص لا يتجاوزون أصابع اليد، (اعتمده الخليفة عمر بن الخطاب). ولذلك اعتبر «أن مبدأ الشورى هو مبدأ عام ومطلق غير محدد»[2]. ويضيف على ذلك أحد علماء المسلمين بالقول: «الإسلام لم يحدد طريقة تحقيق الشورى»[3]. ونفس الوصف ينطبق على الاستخلاف.

فالاستخلاف تم التداول معه في البداية كمبدأ إستحساني. فرأى عمر بن الخطاب بأن أبا بكر هو الأنسب، فمدَّ يده وبايعه أمام الجميع، وقطع بذلك الجدل والحوار، بينما حدد ابن خلدون شروط الخلافة بخمسة، وهي: «العلم والعدالة، والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء، والنسب القرشي»[4]. فيما اشترط الماوردي في النسب، «أن يكون من قريش لورود النص فيه، وانعقاد الإجماع عليه»[5]. وفي ذلك قال الطبري أستناداً إلى عدد

(١) الشورى - ٣٨.
(٢) حسين مروة - النزعات المادية - ج ١ ص ٣٩٨.
(٣) مصطفى الزرقا - الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة - ص ١٤٧.
(٤) ابن خلدون - المقدمة - ص ٣٤٢.
(٥) الماوردي - الأحكام السلطانية - ص ٤.

من الأحاديث النبوية التي توجز كلها: «إن الأئمة من قريش والخلافة فيهم»[1] . لكن كل الذين اختلفوا على أمر الخلافة، لم يراعوا ما قاله النبي (ص) وجاء على لسانه من حديث بقوله: «إن كنتم تريدون رحمتي، فارحموا خلقي»[2] . أخرجه أبو الشيخ وابن حيان والديلمي. ونرى في هذا الحديث غموضاً كبيراً، لعدم تحديده مسألة الخلافة وتركها للظروف. في وقت أن المسلمين تعودوا من النبي (ص) النصح والوحي والنبوءَة في هدايتهم وحثهم على اعتناق الإسلام. فكيف يتخلى عنهم ولا يرشدهم إلى صواب اختيار الخليفة؟! وقد كان النبي محمد (ص) أيضاً تنزل عليه الملائكة في الأوقات الصعبة وتبلغه كلام الله وما يجب عمله. فلماذا لم تسقط الملائكة هذه المرة، وفي ظروف دقيقة وصعبة، وفي لحظة تاريخية ومصيرية، يتوقف عليها مسار المسلمين العام في المراحل المقبلة:

فالخليفة إذن، هو إمام الأمة ومرشدها وحامل أمانتها، نيابة عن النبي (ص) ويتوقف مستقبلها على نسبة عدله أو ظلمه. وقد حدد الماوردي مهام الخليفة بعشرة أشياء هي:

١ ـ حفظ الدين على أصوله المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة. . .

٢ ـ تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، وقطع الخصام بين المتنازعين. . .

---

(١) الطبري ـ ج ٣ ص ١٩٩.

(٢) الماوردي ـ الأحكام السلطانية ـ ص ١٤.

٣ ـ حماية البيضة والذب عن الحريم. . .
٤ ـ إقامة الحدود. . .
٥ ـ تحصين الثغور. . .
٦ ـ جهاد من عاند الإسلام بعد دعوة. . .
٧ ـ جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع. . .
٨ ـ تقدير العطايا وما يستحق في بيت المال. . .
٩ ـ استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء في ما فوضه إليهم من أعمال. . .
١٠ ـ أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال. . .[١].

وكانت طاعة الخليفة واجبة على جميع المسلمين أستناداً إلى ما جاء في النص القرآني، وملزمة شرعاً بقوله تعالى: **﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم. . .﴾**[٢]. والخليفة يبقى خليفة مدى الحياة، طالما لا توجب عزله إلا أمور ثلاثة هي:

١ ـ كفر بعد إيمان.
٢ ـ الجرح في عدالته.
٣ ـ نقص في الحواس والأعضاء، بما يمنعه من القيام بمهام الخلافة[٣].

---

(١) الماوردي ـ الأحكام السلطانية ـ ص ١٤.
(٢) النساء ـ ٥٩.
(٣) الماوردي ـ الأحكام السلطانية ـ ص ١٧ .

من هنا، كان لا بد للخليفة ان يتمتع بكل هذه الأمور التي ذكرناها، إضافة إلى أمور ثلاثة زادها الأسفراييني ورأى أنه يجب أن تتوافر في الخليفة أو الإمام وهي: العلم والعدالة والسياسة.

والعدل هنا مبدأ عام قام عليه الإسلام في الأساس، وارتكز ذلك على قوله تعالى: ﴿... **وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل...**﴾[1]. بينما فسّر آخرون العدل هنا على أنه يعني «الحكام بين الناس»[2].

بينما اعتبر آخرون نمط الخلافة نكبة على المسلمين و«ينبوع شر وفساد»[3]. وتعرضوا «إلى مرحلة حكم النبي (ص) وقالوا بأن عصره كان «خلوّاً من مظاهر الحكم وأغراض الدولة. فلم يكن هناك ترتيب حكومي، ولم يكن ثمة ولاة ولا قضاة ولا ديوان...»[4]. ووافق على ذلك الدكتور طه حسين حينما اعتبر بأن القرآن لم ينظم أمور السياسة تنظيماً مجملاً... وإنما أمر بالعدل والإحسان ورسم حدوداً عامة للمسلمين... ولم يستخلف النبي (ص) أحداً من المسلمين ولا من اصحابه بعهد مكتوب.... ولم يدع إلى إنشاء حكومة اسلامية مهما كان نوعها. بينما نذكر بأن اليونانيين عرفوا أنواعاً من الحكومات قبل ولادة الرسول (ص) وطوروها، منها: الحكم الاستبدادي،

---

(١) النساء ـ ٥٨.

(٢) تفسير ابن كثير ـ ص ٩٦.

(٣) علي عبد الرازق ـ الإسلام واصول الحكم ـ ص ١٠٢.

(٤) المصدر السابق ـ ص ٧٣.

والحكم الأرستقراطي، والحكم الديمقراطي.

ولذلك كانت الخلافة ممارسة شخصية للحكم ومطلقة في كل شيء من دون مشورة أو شورى. وفي ذلك ذكر الدكتور طه حسين: «إن أبا بكر لم يبايع بالخلافة عن مشورة من المسلمين، إنما كانت بيعته فلتة وقى الله المسلمين شرها كما قال عمر»[١].

على أي حال، كانت الخلافة لأبي بكر، واعتمدوا في تبريرها على روايات عديدة، كقولهم بأن رسول الله (ص) قال عند مرضه: «لو كنت متخذاً من العباد خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً...»[٢]. كما قيل بأن رسول الله (ص) «فوض أبا بكر دون غيره في الصلاة بالمسلمين»[٣]. وكان ذلك أيضاً رأي ورغبة عمر بن الخطاب. لكن هذا الرأي لم يلق استحسان المهاجرين وقبولهم، فهب واحد من الأنصار يقترح أميراً من كل فريق. فرد عليه عمر بن الخطاب بالقول: «بأن السيفين لا يمكن أن يجتمعا في غمد واحد»[٤].

وفي حديث آخر في الخلاف على الخلافة، أخرج أبو بكر الشافعي في الغيلانيات، وابن عساكر عن حفصة زوج النبي (ص) أنها قالت لرسول الله: «إذا أنت مرضت قدمت أبا بكر؟ قال: لست أنا أقدمه، ولكن الله يقدمه. ويستنتج من هذا الحديث أن

(١) طه حسين ـ علي وبنوه ـ ص ٣١.
(٢) ابن هشام ـ ج ٤ ص ٢٩٩.
(٣) السيوطي ـ ص ٥٨.
(٤) سالم ـ ص ٤٢٩.

خلافة أبي بكر لا تحتاج إلى جدال أو بيعة أو شورى. ذلك لأن خلافته مقدمة من الله، وكلام الله لا مرد له، حسب حديث الرسول مع زوجته حفصة.

وأخرج الخطيب بسند عن ابن عباس عن النبي (ص) قال: «هبط عليّ جبريل عليه السلام، وعليه طنفسة وهو متخلل بها فقلت له: ياجبريل ما هذا؟ قال: إن الله تعالى أمر الملائكة أن تتخلل في السماء كتخلل أبي بكر في الأرض»[١].

ومن معاينة هذا الحديث، يتبين أمر غريب في مسألة اقتداء الملائكة بأبي بكر، مؤتمرين بأمر الله. كيف ذلك، والله يدير كل شيء على الأرض وما تحويه! وإن ما وافق عليه الله وأمر الملائكة باقتدائه بعد حصوله على الأرض، ما يلفت النظر! ومتى كان الله ينتظر مايقرره الناس على الأرض كي يوافق عليه أو لا يوافق؟!! في وقت أن ما يقرره الله في السماء، يتقبله الناس على الأرض وينفذونه.

نعود للقول بأن الأمر تم في النهاية واستقر على خلافة أبي بكر، بعد لقاء عام وجمع غفير للمسلمين في المدينة. وفي هذا اللقاء خطب عمر بن الخطاب قائلاً: «... وإن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله (ص) ثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه»[٢]. فبايعوه جميعاً. ثم قام أبو بكر وألقى في الناس خطاباً، فقال: «... أما بعد، أيها الناس، فإني قد وليت عليكم

---

(١) السيوطي - ص ٥٣.

(٢) ابن هشام - ج ٤ ص ٣١١.

ولست بخيركم، فإن أحسنت أعينوني، وإن أسأت فقوموني . . . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم . . .»[1].

ومبايعة أبي بكر بالخلافة، لقيت لغطاً كثيراً واعتراضات أكثر، نظراً لاعتبارها فرضاً لا اختياراً. وصارت البيعة من خلال هذا الفهم «هي ان يظهر الناس الرضا بالخليفة والخضوع له. فهي ليست كما يتوهم البعض، إنتخاباً أو تفويضاً أو توكيلاً بالخلافة، وإنما هي الموافقة على الأمر الواقع والتسليم به. والبيعة فرض كفاية في الفقه الإسلامي، إذا قام بها قوم سقطت عن الآخرين. وليس الناس ملزمين بمراسم البيعة مادامت فرض كفاية، ولكنهم ملزمون بالطاعة والقبول بالخليفة أو الحاكم»[2].

ولقيت هذه المبايعة معارضة علّي وأنصاره من الهاشمية، واستقدم علّي إلى أبي بكر، وطلب إليه المبايعة، فرفض بزعم أن الخلافة اغتصبت منه، مستنداً بذلك إلى ما قاله النبي للأنصار، بأن الخلافة محصورة في عشيرة رسول الله (ص) وقال: «أنا أحق بهذا الأمر منكم لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي، أخذتم هذا الحق من الأنصار، واحتججتم عليهم بالقرابة من النبي (ص). وتأخذوه من أهل البيت غصباً. . . نحن أولى برسول الله حياً وميتاً فانصفونا إن كنتم تؤمنون. وإلا فبؤوا بالظلم وأنتم

---

(١) ابن كثير - ج ٥ ص ٢٤٨.

(٢) منير العجلاني - عبقرية الإسلام في أصول الحكم ص - ١٠٧.

تعلمون»[1].

لكن علياً بن أبي طالب عاد وبايع أبا بكر بعد وفاة فاطمة، وبعضهم قال بعد مرور ٧٥ ليلة على وفاة الرسول[2]. وقيل أربعين يوماً[3]. بينما أجمع معظم المؤرخين على ستة أشهر[4].

وقد اعتمد الشيعة فيما بعد، على حقهم بالخلافة، على السند التاريخي الذي سمي في حينه بـ «حديث الغدير». وقصة هذا الحديث تقول بأنه: حين خرج النبي (ص) من مكة عائداً إلى المدينة بعد الحج الأخير، وسمي «حجة الوداع» أوحي إليه في الطريق بصوت يقول: «يا أيها النبي، بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته»... فأمر النبي أصحابه، فاجتمعوا في مكان عند غدير يسمى «غدير خم» ثم دعا إليه علياً بن أبي طالب، فوقف إلى يمينه، ثم خطب ـ أي النبي ـ فقال: «لقد دعيت إلى ربي، وإني مجيب. وإني مغادركم من هذه الدنيا، وإني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي». ثم أخذ بيد علي ورفعها بحيث يراها الجميع وقال: «يا أيها الناس، ألست أولى منكم بأنفسكم؟! قالوا: بلى. فقال: من كنت مولاه فهذا علي مولاه. اللّهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، وأخذل من خذله، وأَدر الحق حيثما

(١) الطبري ـ ج ٣ ص ٢٠٢.

(٢) ابن قتيبة ـ الإمام والسياسي ـ ص ١٧.

(٣) اليعقوبي ـ ج ٢ ص ١٢٦.

(٤) ابن كثير ـ ج ٥ ص ٢٨٥.

دار. . .»[١].

وعظم الأمر بين أبي بكر والحركة التي أخذت تعمل ضده، وسميت بحركة الردة. وقد اتخذت هذه الحركة قناعاً سياسياً كانت تستهدف الإستقلال عن سلطان المدينة والتخلص منه، فاعتبروا «الزكاة نوعاً من الأتاوة»[٢]. وهذه يؤديها المغلوب إلى الغالب بالقوة، وأخذوا بالمطالبة بإعفائهم من الجزية. ولهذه المطالبة مدلولها الاقتصادي والسياسي، إذ كان الناس يشمئزون من دفع الضرائب وسوء الأوضاع العامة، ومن التمييز بين الحاكمين والمحكومين.

ولم يسمح الخليفة الراشدي الأول لحركة الردة أن تتوسع وتنتشر، لما تشكله من خطر على الدولة الإسلامية وعلى وحدة المسلمين. وعزم على محاربتهم وقتالهم. ويكون بذلك يمنع الاعتراض والرأي الآخر، المخالف لحكمه وسلطانه. وصمم على قتالهم، وزحف أبو بكر بنفسه في جمع من المسلمين فنزل بالأبرق[٣]، وقاتل المرتدّين. ثم عاد إلى المدينة، وجهز البعوث وعقد الألوية لأحد عشر أميراً وهم:

- خالد بن الوليد.
- عكرمة بن أبي جهل.
- المهاجر بن أبي أمية.

---

(١) ابن تيمية ـ منها ج السنة ـ ج ٤ ص ٨.

(٢) الطبري ج ٣ ص ٢٣١.

(٣) ياقوت ـ معجم البلدان مجلد ١ ص ٦٨.

- خالد بن سعيد بن العاصي.
- عمرو بن العاص.
- حذيفة بن محصن الغلفاني.
- عرفجة بن هرثمة.
- شرحبيل بن حسنة.
- طريفة بن حاجز.
- سويد بن مقرن.
- العلاء بن الحضرمي[1].

والتقى جيش المسلمين بجيوش الردة، فانتصروا حيناً وهزموا حيناً آخر، إلى أن انتهت المعارك كلها بقمع حركة الردة والقضاء عليها.

وقد كانت حركة الردة بحق، أخطر وأعظم ثورة هددت الدولة الإسلامية العربية الفتية، وقد كان في إمكانهم، لو استطاعوا تنظيم أمورهم وتوحيد صفوفهم، أن يقضوا على النظام الجديد[2]، حسب رأي الدكتور عبد العزيز سالم. في وقت أن حركة الردة حملت شعارات وتوجهات نظرية لم يكن يعرفها النظام الإسلامي بعد، كالجهاد في سبيل الله، والشعور بالقومية العربية وغيرها.

وبالفعل، لقد كشفت حروب الردة عن واقع تاريخي

(١) البلاذري - ج ١ ص ١١٩.
(٢) سالم - ٤٥٠.

جديد، أعطى صورة كاشفة عن واقع الحكم الإسلامي والدولة الإسلامية. وكانت لم تكن لتحصل حروب الردة، لو لم يكن الوضع الشعبي آنذاك، يئن من ضغط الضرائب وقساوة الأتاوات. وهذه الظاهرة، هي بجوهرها تمرد وخروج عن الطاعة لأشكال النظام السياسي السائد باسم الإسلام أو بغيره. وهي أيضاً - أي حرب الردة - هي تعبير دقيق عن حركات احتجاج سياسية مناهضة، وكذلك هي عصيان مدني وتمرد على الأوضاع، ورفض للواقع. إذا لم نقل إنها ثورات بالفعل «مضادة» لمناهضة الفوارق الاجتماعية. وعدم الاستفادة من نظام الضرائب المفروضة في حينه. وهي أيضاً لم تكن لتحصل إلا بعد موت النبي (ص)، كتعبير دقيق عن الارتداد إلى الوراء، ونبش كل ما يتعلق بردود الفعل من العوامل الاجتماعية والاقتصادية الدفينة السابقة، وتفجيرها في حاضرها كحالة رفض، وكتعبير عن عدم الموافقة على ما جرى ويجري من استئثار لمقدرات البلاد والسيطرة على العباد بالقوة.

ولذلك، يمكن أن نستخلص من «عام الوفود» الذي شهدته مكة من مختلف الأرجاء والمناطق، والتي أتت لتعبر عن تأييدها وتضامنها مع دولة الرسول، بتقديم الطاعة، وإعلان الاعتراف بالإسلام، كنظام جديد على حياتهم، والذي اعتقدوا بتأييدهم وانتسابهم لهذا الدين الجديد، أنه سوف ينقذهم من أصحاب الإمتيازات والنفوذ. بينما اكتشفوا فيما بعد حقيقة الأمر، وبأن هذا العام - أي عام الوفود - لم يكن إلا حالة استسلام بالجملة

والمفرق، وإذعاناً لسياسة الأمر الواقع، وللقوة المسيطرة.

إن هذه الأعداد الهائلة التي انخرطت في الإسلام وانطوت تحت لوائه كما ذكرنا سابقاً، وخلال فترة وجيزة جداً، جعلت كثيراً من الناس تدخل في الإسلام وتعتنق الدين الجديد، وفي نفوسها غايات كثيرة، أو دخلوا لدفع الأذى عن أنفسهم، وكثيرون دخلوا للإستفادة منه والتلون بلون المرحلة، كونه أمراً واقعاً. وآخرون دخلوا من أجل الدس والتخطيط لحبك الحيل، للإيقاع والتأثير بمعنويات الناس، وتصوير الإسلام بأنه دين التفرقة والنزعات والخصومة على السلطة والنفوذ والمال. وهو ليس أقل ولا أكثر من ذلك، والحوادث والشواهد على ذلك كثيرة، من مثل القادة البارزين في الإسلام، وهم من أصول يهودية أو نصرانية أو غير ذلك، مثل عبد الله بن سبأ وغيره.

ولأجل هذه الغايات، ظهر بعد موت النبي (ص) أدعياء كثر وأشخاص كثيرون، أدعوا النبوّة، في محاولة للتأثير والتقليل من أهمية نبوة محمد، واعتبارها شكلاً مرحلياً محتملاً حدوثه تحت أي ظرف. ويمكن فسح المجال لأي كان أن يدَّعي النبوّة، أسوة بالنبي محمد، وذلك بغرض تشويه صورته والتأثير على رسالته ودينه الجديد. ونذكر على سبيل المثال لا الحصر، مسيلمة الكذاب في اليمامة، وامرأة من قبيلة بني تغلب تدعى سجاح، وآخرين لا مجال لحصرهم.

ونوجز بأن وفاة النبي محمد (ص) خلقت مشكلة كبيرة بين المسلمين حول من سيكون الخليفة من بعده... وهو سؤال كبير

نشأ بين المسلمين، ونشب لأجل ذلك خلاف كبير، وظهرت من جرائه ثلاث فرق لكل منها أهدافها وغاياتها. فكانت الفرقة الأولى من الأنصار وعلى رأسهم سعد بن عبادة الخزرجي، والفرقة الثانية كانت من المهاجرين، يتزعمها أبو بكر الصديق، أما الفرقة الثالثة فكانت تتشكل من الهاشمية ومن حولهم، ويتزعمهم علي بن أبي طالب. لكن في النهاية استقر الرأي على اختيار أبي بكر خليفة لرسول الله (ص) على المسلمين، بعد نزاع ترك آثاره فيما بعد على الدولة الإسلامية ومستقبلها.

إنجازات
الخليفة ابو بكر

منذ اليوم الأول لخلافته، عزم أبو بكر على توحيد كلمة المسلمين، ونهج نهج النبي الراحل في إعلاء شأن المسلمين ورفعتهم. وكان «يترسم خطاه ويسلك السبيل التي سلكها في سبيل نشر الإسلام وتوحيد أمة العرب. .»[1] وكان أبو بكر كما عرف عنه، ضحّى بكل أمواله في سبيل الدعوة الإسلامية، ونشر الدين الجديد، حتى قيل إنَّ رسول الله «كان يقضي في مال أبي بكر كما يقضي في مال نفسه»[2].

واستطاع أبو بكر من تجاوز الخلافات، وتجاوز الفتنة، ومال إلى تحقيق انتصارات للعرب وتوسيع حدود الدولة

(١) سالم ـ ص ٤٤١.

(٢) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ـ ص ٣٦.

الإسلامية والقضاء على الأخطار الخارجية التي تهددها وتحيط بها من عدة جهات، فجند لأجل ذلك عدة غزوات وخاض عدة حروب ضد حركة الردة، فطهر الداخل لكي ينطلق إلى الخارج، ثم توجه إلى مواجهة البيزنطيين بقيادة عمرو بن العاص، والتقى معهم في وقعة أجنادين جنوبي فلسطين، وانتهت المعركة بهزيمة منكرة للبيزنطيين. وأثارت هذه الهزيمة غيظ هرقل أمبراطور الدولة البيزنطية، فقام بنفسه بحملة كبرى بلغ تعدادها حسب ما ذكره المؤرخون حوالي مائتين وأربعين الفاً وقيل مائتي ألف[١]. وقال آخرون لم يتجاوز عدد جيش الروم المائة ألف. بينما كان عدد جيش المسلمين لا يتجاوز الستة وأربعين ألفاً[٢]. وكان قائد جيش المسلمين خالد بن الوليد. والتقى الفريقان في سهل شمالي اليرموك، وخطب خالد بن الوليد بالمسلمين قائلاً: «إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتبعية على تساند وانتشار، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغي، وإن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترونه أنه الرأي من واليكم محبته...»[٣]. ولما سأله المسلمون عن خطته ورأيه قال: «... لقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم... إن تأمير بعضكم لا

---

(١) البلاذري - ص ١٦٠.

(٢) الطبري - ج ٤ ص ٣٢.

(٣) ابن الأثير - ج ٢ ص ٤١١.

ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله (ص). هلموا، قد تهيأوا. . . إن رددناهم اليوم إلى خندقهم، لم نزل نردهم، وإن هزمونا لم نفلح بعدها»[١].

وهجم جيش الروم بحملة قوية كان الهدف منها عنصر المباغتة. فصرخ عكرمة بن هشام ونادى قومه قائلاً: «من يبايع على الموت» فبايعه ٤٠٠ من الرجال حسب رأي الطبري. وبادروا إلى هجوم مضاد ضد البيزنطيين، ودارت المعركة حامية، وانتهت بنصر المسلمين بعدما خسر البيزنطيون ما يزيد على مائة وعشرين ألفاً[٢]. بينما خسر المسلمون ما يقارب الثلاثة آلاف فارس. وتعليقاً على هزيمة جيش البيزنطيين قال هرقل: «عليك يا سورية السلام! ونعم البلد هذا للعدو»[٣].

تجدر الإشارة إلى أنه في عز نشوب المعركة والتحام الجيشين الإسلامي والبيزنطي، أبلغ رسول بوفاة الخليفة أبي بكر، وذلك في النصف من جمادى الآخر سنة ١٣هـ، وخلافة عمر. كما جرى إبلاغ خالد بن الوليد نبأ عزله عن الإمارة وتولية أبي عبيدة. وأخفى خالد الخبر، لكي لا يثير لغطاً وبلبلة بين صفوف المسلمين.

وعن معركة اليرموك، ذكر الإخباريون أنها وقعت يوم الإثنين لخمس مضين من رجب سنة خمس عشرة للهجرة، وقيل

---

(١) الطبري - ج ٤ ص ٣٣.

(٢) الطبري - ج ٤ ص ٣٤.

(٣) البلاذري - خ ١ ص ١٦٢.

إنها كانت سنة ثلاث عشرة، وهي السنة التي توفي فيها الصديق (أبو بكر) خلال معركة اليرموك في ٨ جمادى الآخر سنة ١٣ هـ. وقيل إن أبا بكر مكث محموماً ١٥ يوماً وتوفي في مساء ٢١ جمادى الآخر سنة ١٣ هـ ٢٢ أغسطس سنة ٦٣٤م. وكانت مدة ولايته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال[1].

وفي أخبار معركة اليرموك، ذكر أنه حصلت خلافات شديدة على الإمارة والقيادة والزعامة. وكاد المسلمون يتشتتون لولا المحاولات التي بذلها خالد بن الوليد، وخطبته الشهيرة بينهم يدعوهم فيها إلى الوحدة ورص الصفوف. وعن سيف بن عمر قال: «وجد خالد الجيوش متفرقة فجيش أبي عبيدة وعمرو بن العاص ناحية، وجيش يزيد وشرحبيل ناحية، فقام خالد في الناس خطيباً، فأمرهم بالاجتماع ونهاهم عن التفرق والاختلاف، فاجتمع الناس وتصافوا مع عدوهم...»[2].

يستدل من سياق النص والأقوال والخطابات، بأن هناك خلافاً كبيراً على القيادة والزعامة. ومن ذلك قول خالد بن الوليد لهؤلاء: «فتعالوا فلنتعاور الإمارة. فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً، والآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم، ودعوني اليوم إليكم، فأمره عليهم..»[3] وهذا يعكس عمق النزاع على الاستئثار بالإمارة، والتنافس الشديد على قيادة جيش المسلمين آنذاك، كما يعكس

(١) محمد الخضري بك ـ الدولة الأموية ـ ص ٢٣٠.

(٢) ابن كثير ـ ج ٧ ص ٧.

(٣) المصدر نفسه.

المنازعة على السلطة والحكم أيضاً.

لكن قيادة خالد بن الوليد كانت في محلها، ولها الفضل في حسم الجدل القائم والخلاف الناشب، وحمل الأمانة بإخلاص غير آبه بكل الغايات والأغراض. فذكر الوليد بن مسلم عندما طلب ماهان (أحد قادة الروم) ليبرز إليه خالد بن الوليد، حاول ماهان التأثير على خالد بالجهد والجوع، وعرض عليه الرشوة بإعطاء كل رجل عشرة دنانير وكسوة وطعاماً ويرجعون إلى بلادهم. وكان جواب خالد بن الوليد: «إنّا قوم نشرب الدماء، وإنه بلغنا أنه لا دم أطيب من دم الروم»[1].

ونوجز القول بأن أبا بكر اشتهر بالجرأة والوضوح في مواقفه وقراراته، وساهم بشكل كبير في تدعيم وتعزيز نشر الدعوة الإسلامية، وله الفضل الكبير في توحيد كلمة العرب وجمعها بعدما اهتزت وكادت تنهار وتصبح عرضة للانقسام والتمزق، ونصحه عدد من الصحابة بعدم تعريض نفسه للخطر، فأبى وقال لهم: «والله لا أفعل ولأواسينكم بنفسي»[2].

وأبو بكر الصديق من الخلفاء المشهود لهم برفع راية الإسلام وتوسيع الدعوة ونشرها خارج الجزيرة العربية، وفتح العديد من المناطق التابعة لدولتي الفرس والروم آنذاك، فكانت أفضاله على الإسلام كبيرة. وفي حديث عن الرسول (ص) قال: «إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر صدقت،

---

(١) المصدر نفسه ص ٩.

(٢) حسن ابراهيم حسن. تاريخ الإسلام، ج ١، ص ١٧٠.

وواساني بنفسه وماله . .»[1] رواه البخاري عن أبي الدرداء.

وعرف عن أبي بكر كرمه، إذ ذكر أنه أنفق ماله وثروته كلها في سبيل نشر الدعوة الإسلامية وتوطيد دعائم الدين، وبأنه أعتق سبعة من المسلمين، كان أسياد قريش من الكفار يكيلون لهم التعذيب والإجهاد، كي يتخلوا عن الإسلام ويرجعوا إلى الوثنية، ديانة آبائهم وأجدادهم. ومن هؤلاء السبعة بلال وعامر بن فهيرة وجارية بني المؤمل.

وبخلافة أبي بكر يمكن القول بأن سكة سير الدولة الإسلامية نحو تعزيز الانتشار وتوطيد الدعائم الصلبة، أخذت طريقها نحو عدم التراجع لمن أتى بعده من الخلفاء.

ونختصر ما وقع في أيام خلافة أبي بكر من الامور الكبار، ما ذكره السيوطي، فقال: «تنفيذ جيش أسامة، وقتال أهل الردة، ومانعي الزكاة، ومسيلمة الكذاب، وجمع القرآن»[2].

كان نقش خاتم الخليفة أبي بكر الصديق: «نعم القادر الله».

(١) المصدر نفسه، ص ١٧٠.

(٢) السيوطي. تاريخ الخلفاء، ص ٨٣.

خلافة
عمر بن الخطاب

قبل وفاته، أعلن الخليفة أبو بكر بمبادرة فردية تنصيب عمر بن الخطاب خليفة من بعده. لكن عمر بن الخطاب اعتمد نظاماً آخر وجديداً في حياته، ألا وهو طريقة «الشورى» والاحتكام إليها. فاختار ستة رجال من الصحابة هم: عثمان بن عفان ـ علي بن أبي طالب ـ سعد بن أبي وقاص ـ عبد الرحمن بن عوف ـ الزبير بن العوام ـ وطلحة بن عبيد الله، وعهد إليهم أن يجتمعوا بعد موته ثلاثة أيام، ثم ينتخبوا من بينهم خليفة للمسلمين. ولما أصيب عمر بطعنة أودت بحياته، طلبوا منه أن يعين خليفة، فأوعز إليهم أن يعتمدوا مبدأ «الشورى».

ويبدو أن التفاهم كان شديداً وواضحاً بين أبي بكر وعمر بن الخطاب، وكانا يتبادلان الاطراء وعبارات الاحترام، بما يدل

على ان المشاركة وتقاسم الامور بين الاثنين لا يمكن ان يخرج إلا عن انسجام هذه العلاقة، فقد أخرج الترمذي عن جابر بن عبد الله قال: «قال عمر لأبي بكر: يا خير الناس بعد رسول الله (ص). فقال أبو بكر: أما إنك إن قلت ذاك فلقد سمعته يقول: ما طلعت الشمس على رجل خير من عمر»[1].

وعن ابن عساكر عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن عمر بن الخطاب صعد المنبر ذات مرة ثم قال: «ألا إن أفضل هذه الامة بعد نبيها أبو بكر، فمن قال غير هذا فهو مفترٍ، عليه ما على المفتري»[2].

حتى أن النبي محمداً (ص) ساهم في تعزيز هذه الصداقة بين الاثنين، فذكر الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله (ص): «ما من نبي إلا وله وزيران من أهل السماء ووزيران من أهل الارض، فأما وزيراي من أهل السماء، فجبريل وميكائيل، وأما وزيراي من أهل الأرض فأبو بكر وعمر»[3].

وبلغ الحب الشديد عند عمر لأبي بكر إلى القول: «وددت أني شعرة في صدر أبي بكر» أخرجه مسرد في مسنده، وقال أيضاً: «لقد كان ريح أبي بكر أطيب من ريح المسك» أخرجه أبو نعيم.

وهناك دلائل كثيرة، وأحاديث أكثر أخرجها أكثر من مؤرخ

(١) السيوطي. تاريخ الخلفاء، ص ٥٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٨.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦٣.

تشير إلى عمق العلاقة بين أبي بكر وعمر بن الخطاب، وبأن الصداقة بين الاثنين أدت إلى توارث السلطة والخلافة وتبادل قيادة المسلمين. وكان لها أثر كبير في إثارة بعض الحساسيات عند الآخرين، كما كان لها أثر كبير في إلغاء دور المشاركة بتعيين الخليفة أو في مسألة انتخابه.

لقد خلف عمر بن الخطاب أبا بكر خليفة على المسلمين، ومن روايات الطبري، أن أبابكر عندما شارف على الموت قال: «أترضون أن استخلف عليكم، فإني والله ما ألوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة. وإني أستخلف عمر بن الخطاب. فاسمعوا له وأطيعوا» فقالوا: «سمعنا وأطعنا»[١].

فعل ذلك أبو بكر، لأنه كان يرى بأن عمراً بن الخطاب هو الأجدر وفيه مصلحة المسلمين، ويمكن تجنيبهم خلافات وانقسامات حادة لا تحمد عقباها. وكان بدء خلافة عمر بن الخطاب يوم الثلاثاء ٢٢ جمادى الثاني سنة ١٣ هـ الموافق ١٣ آب سنة ٦٣٤م[٢]. وكان عمر بمنزلة الوزير الأول لخلافة أبي بكر.

لما بويع عمر بالخلافة، صعد المنبر وخطب بالناس قائلاً: «إنما مثل المؤمن كمثل جمل أنف اتبع قائده، فلينظر قائده أين يقوده، أما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق»[٣]. وكان

(١) الطبري - ج ٤ ص ٥١.

(٢) محمد الخضري بك - الدولة الأموية - ص ٢٣٣.

(٣) المصدر نفسه ص ٢٣٤.

هذا أول خطاب له بعد خلافته.

لقد خلف أبا بكر الصديق، عمر بن الخطاب، ولقب بالفاروق، وهو أول من سمي بأمير المؤمنين. وكان أول تدبير اتخذه، أنه «أمَّر على الجيوش أبا عبيدة، وعزل خالد بن الوليد. . . لكلام بلغه عنه. .». وقال عمر أيضاً: «لا يلي لي عملاً أبداً». وقالت فاطمة أخت خالد لأخيها: «إن عمر لا يحبك أبداً. .».

ومن الأخبار أيضاً ان عمر بن الخطاب «أشار على أبي بكر بقتل خالد بن الوليد في مالك بن نويرة حين علم أن خالداً قتله بعد أن ثاب للإسلام واعترف به، فأبى أبو بكر عليه ذلك وقال: إنه تأول فأخطأ. فقال له عمر: فاعزله، فرفض أبو بكر، وقال: ما كنت لأشبم (لأغمد) سيفاً سله الله على الكافرين»[1].

لقد كان الخلاف شديداً وحاداً بين الخليفة عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد. وتعود أسبابه إلى المنازعة على السلطة، وإلى أمور سابقة حصلت في الماضي سنأتي على ذكرها.

فمن الروايات، أنه سنة أربع عشرة للهجرة، لما فتح خالد بن الوليد دمشق وحطم أسوارها، وفتحها عنوة بالسيف بعد خطة محكمة منه واتخاذ سلالم من الحبال[2]. قال آخرون إن من فتحها أبو عبيدة، وقيل صلحاً. واتفقوا فيما بينهم بعد ذلك على أن جعلوا

---

(١) ابن كثير - ج ٧ ص ١٦.

(٢) ابن الاثير - ج ٢ ص ٤٢٨.

نصفها صلحاً ونصفها عنوة.

وفي مقالة أخرى، لما بعث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، سعد بن أبي وقاص أميراً على العراق بعد معركة البؤيب. كتب إلى جرير بن عبد الله، والمثنى بن حارثه أن يكون تبعاً له. وفي العراق تنازعا الإمرة حتى قدم سعد فانقطع نزاعهما.

وحين أغار خالد بن الوليد وعياض بن غنم على الروم سنة سبع عشرة للهجرة، وغنما اموالاً عظيمة وسبياً كثيراً. «ولما رجع خالد ومعه أموال جزيلة من الصائفة انتجعه (أتوه طالبين المعروف) الناس يبتغون رفده ونائله. فكان ممن دخل عليه الأشعث بن قيس، فأجازه بعشرة آلاف». وبلغ ذلك عمر بن الخطاب، فأمر أبا عبيدة أن يقيم خالداً ويكشف عمامته وينزع عنه قلنسوته ويقيده بعمامته، ويسأله عن هذه العشرة آلاف[١]. وحصل ما أمر به عمر، واعتذر أبو عبيدة إلى خالد وأنشد عمر قول الشاعر:

صنعت فلم يصنع كصنعك صانع   وما يصنع الأقوام فالله صانع[٢]

ثم كتب عمر إلى الأمصار بالقول: «إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة، ولكن الناس فتنوا به..»[٣] وهذه دلالة على أن الأمور بلغت بينهما حد الانقسام، فخاف عمر من هذه

(١) ابن كثير - ج ٧ ص ٦٥.
(٢) ابن كثير - ج ٧ ص ٦٦.
(٣) ابن كثير - ج ٧ ص ٦٦.

الوقيعة واستدرك بامتصاصها بهذا الكتاب، تلافياً لمخاطر النزاع، لكن رواسبه ظلت عالقة في النفوس، وتتفاعل مع الزمن. فذكر سيف بن عمر سنة عشرين للهجرة، إبان فتح المسلمين لبلاد مصر فقال: «لما التقى عمرو بن العاص مع المقوقس، جعل كثيراً من المسلمين يفرون من الزحف. فجعل عمرو يزمرهم (يغريهم) ويحثهم على الثبات. فقال له رجل من أهل اليمن: إنا لم نخلق من حجارة ولا من حديد. فقال له عمرو: أسكت فإنما أنت كلب. فقال له الرجل: فأنت إذاً أمير الكلاب»[١].

وحكى مالك عن عمر بن الخطاب أنه قال لأبي بكر: «أكتب إلى خالد أن لا يعطي شاة ولا بعيراً إلا بأمرك. فكتب أبو بكر إلى خالد بذلك، فكتب إليه خالد: وإما ان تدعني وعملي، وإلا فشأنك بعملك. فأشار إليه عمر بعزله. فقال أبو بكر: فمن يجزي عني جزاء خالد؟»[٢] ولم ينس عمر هذا الأمر، وعزل خالداً حتى تولى الخلافة، فقال له أبو عمرو بن حفص بن المغيرة: «ما اعتذرت يا عمر، لقد نزعت عاملاً استعمله رسول الله (ص)، ووضعت لواءً رفعه رسول الله (ص) وأغمدت سيفاً سله الله، ولقد قطعت الرحم وحسدت ابن العم»[٣].

وفي نزاع عمر وخالد، يشير الأصمعي عن سلمة عن بلال عن مجالد عن الشعبي، بأن الخلاف بين خالد وعمر بن

---

(١) ابن كثير - ج ٧ ص ٨٠.
(٢) ابن كثير - ج ٧ ص ٩٢.
(٣) ابن كثير - ج ٧ ص ٩٣.

الخطاب، لم يكن حديثاً، بل كان قديماً منذ الطفولة. فيقول: «اصطرع عمر وخالد وهما غلامان ـ وكان خالد ابن خال عمر ـ فكسر خالد ساق عمر، فعولجت وجبِّرت. وكان ذلك سبب العدواة بينهما.»[١].

وقيل إنه لما مات خالد، قال عمر أمير المؤمنين: «رحم الله أبا سليمان، لقد كنا نظن به أموراً ما كانت»[٢]. قاله محمد بن سعد وذلك سنة واحد وعشرين للهجرة.

وذكر الواقدي وسيف بن عمر، قصة جرت مع أمير البصرة، المغيرة بن شعبة. هذه ملخصها: «كانت امرأة يقال لها أم جميل بنت الأفقم، من نساء بني عامر بن صعصعه، ويقال من نساء بني هلال. وكان زوجها من ثقيف قد توفي عنها. وكانت أم جميل تغشى (تأتي) نساء الأمراء والأشراف، تدخل على بيت المغيرة بن شعبة وهو أمير البصرة. وكانت دار المغيرة تجاه دار أبي بكرة، وكان بينهما الطريق. وفي دار أبي بكرة كوة تشرف على كوة في دار المغيرة. وكان لا يزال بين المغيرة وبين أبي بكرة شنآن (بغض وعداوة). فبينما أبو بكرة في داره وعنده جماعة يتحدثون في العلِّية، إذ فتحت الريح باب الكوة. فقام أبو بكرة ليغلقها، فإذا كوة المغيرة مفتوحة، وإذا هو على صدر امرأة وبين رجليها، وهو يجامعها. فقال أبو بكرة لأصحابه: تعالوا

(١) ابن كثير ـ ج ٧ ص ٩٣.

(٢) ابن كثير ـ ج ٧ ص ٩٥.

فانظروا إلى أميركم يزني بأم جميل»[1]. ولما علم عمر بن الخطاب بالأمر، خلع المغيرة وولى مكانه أبو موسى الأشعري، وجرى تحقيق بالحادثة واستدعاء شهود. ولكن بعد فترة عفا عمر عن المغيرة وأعاده أميراً على البصرة. وذلك سنة ١٧ للهجرة.

(١) ابن كثير - ج ٧ ص ٦٦.

الفتوحات الاسلامية
في عهد عمر

عدا عن النزاعات التي كانت ورافقت خلافة عمر، فقد كان له في الجانب الآخر، أثر كبير في تأسيس دولة الإسلام الكبرى، وله الفضل الكبير في صناعة تاريخ مشرف للعرب، من خلال الانتصارت والفتوحات التي تحققت في عهد خلافته، كما قيل في عهده بانتشار العدل والإنصاف، ولهذا لقب بالفاروق، لأنه فرق بين الحق والباطل.

فمن الإنجازات الكبيرة على صعيد الفتوحات الإسلامية، فقد حقق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ما كان يحلم به العرب ويحلم به النبي (ص) من نشر الدين وفتح البلاد والاصقاع لتعتنق الإسلام، فقد ذاع صيت عمر، وجرت في عهده الفتوحات التي نوجزها على الشكل التالي:

بعد وقعة اليرموك، ووفاة أبي بكر، عزم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على الزحف إلى دمشق لفتحها. فزحف بجيش من المسلمين، في محرم سنة ١٤ للهجرة، إلى دمشق وفتحها وانتصر على البيزنطيين. ثم تحول إلى فتح المدن الشمالية الشامية بقيادة خالد بن الوليد، وتم له فتح بيسان وطبرية، وجميع مدن الأردن، وفتح حمص وقصد بعلبك وحماة ومعرة النعمان، وفتح سواحل سورية حتى بلغ أنطاكية.

ثم أعد حملة كبرى ضد جيش الروم لفتح بيت المقدس ومدن فلسطين، فانتصر على الروم وفتح أكثر المدن سنة ١٦ هـ باستثناء مدينة قيسارية التي حاصرها ولم يتمكن من فتحها، فقيل إنها فتحت قسراً في شوال سنة ١٩ هـ على يد معاوية[١].

بعد ذلك، تحول أمير المؤمنين إلى سواحل الشام الجنوبية وقرر فتحها. فسيَّر حملة كبيرة سنة ١٧ هـ وفتح مدن صيدا وعرقا وجبيل وبيروت، دون مقاومة تذكر. لكن مدينة طرابلس استعصت عليه نظراً لصعوبة حصارها. وتأجل الأمر، حتى فتحت أيام خلافة عثمان.

ثم توجه نحو بلاد مصر، بعد اقتناع بضرورة فتحها، وبأن عمرو بن العاصي أقنعه بذلك وقال له: «إنك إن فتحتها، كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم...»[٢] وتحقق فتح بلاد مصر في سنة ١٧ هـ (٦٣٨م). وواصل المسلمون زحفهم حتى بلغوا حصن

---

(١) البلاذري ـ ج ١ ص ١٦٧.

(٢) ابن عبد الحكم ـ ص ٨١.

بابليون فدخله، ثم حصن بلبيس فسقط بعد حصار دام شهراً[1]. ثم استولى على مدن الفيوم وعين شمس وقرى الصعيد ودمياط وغيرها. وأبرم المسلمون صلحاً مع مدينة الإسكندرية، واشترطوا على الأقباط أن يكون للمسلمين حق الضيافة لثلاثة أيام على أن لا يتعرضوا لأراضيهم وأموالهم[2] وفتحت الإسكندرية بعد موت هرقل سنة ٢٠هـ (٦٤١م).

بعد إنجاز فتح بلاد مصر، توجه المسلمون نحو توسيع فتوحاتهم لما درت عليهم من أموال الجزية، وما ساعدتهم على السيطرة والقوة. فتوجهوا نحو برقة كونها امتداداً طبيعياً لمصر. واستغل المسلمون اشتعال الثورة في المغرب ضد الامبراطور قوقاس. فما كان من عمرو بن العاص قائد الحملة، أن عزم على فتح برقة وطرابلس الغرب، تأميناً للخطر البيزنطي من الغرب. فاستسلم أهلها، وصالحهم عمرو على دفع الجزية وهي دينار على كل حالم[3].

واستمر زحف جيش المسلمين باتجاه افريقيا، فنظم عبد الله بن سعد حملة نحو الساحل التونسي، وحاصر بلدة قمونية وهي موضع القيروان. وأرسل إلى جريجوريوس يدعوه إلى إحدى ثلاثة: «الإسلام أو الجزية أو القتال»[4]. وهذه الشروط

(١) سالم ـ ص ٤٨٧.
(٢) ابن عبد الحكم ـ ص ١٠٧.
(٣) البلاذري ـ ج ١ ص ٢٦٤.
(٤) المالكي ـ رياض النفوس ـ ص ١٠.

كانت من عادة الفاتحين المسلمين، يفرضونها على الشعوب والمناطق المفتوحة.

وبعد مرور ١٥ شهراً على توغل جيش المسلمين في البلاد الإفريقية، قرر المسلمون التريث والتوقف لترتيب الشأن الداخلي، ثم أخذ الأنفاس للانطلاق مجدداً إلى سياسة الفتح.

ومن الجهة الأخرى، استطاع المسلمون في عهد عمر بن الخطاب من فتح بلاد الجزيرة التابعة للفرس وأرمينيا.

من بعد هذه الفتوحات التي ضجت بها الدنيا، وسرقت اهتمام العالم كله، رأى الخليفة عمر بن الخطاب أن تنظيم شؤونه الداخلية، وتمتين دولته العربية الإسلامية، أمر لا بد منه من أجل الانتقال إلى وضع أفضل يمكنه من الاستمرار بمشروعه، فأنشأ لاجل تنظيم الأمور المالية - الديوان الذي يتولى مهمة الشؤون المالية للمحاربين الذين يحاربون من دون عطاء أو رزق معين؛ مما استلزم تطبيق نظام جديد اقتبسه عن الفرس، لضبط دخل الدولة ونفقاتها، وتجنباً للخلافات حول توزيع النصيب من الفيء والغنائم. وكان أنْ حصرت أعمال الديوان في «حفظ ما يتعلق بحقوق السلطة من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال»[1]. بينما ابن خلدون حدد التزام الديوان بـ: «القيام على اعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج.. وأحصاء العساكر، وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم..»[2].

(١) الماوردي - ص ١٩١.

(٢) ابن خلدون - المقدمة - ص ٤٣٠.

وعمد الخليفة عمر بن الخطاب إلى إنشاء ديوان الجند، وأمر بتدوين الديوان. وقد حدد الدكتور عبد العزيز سالم، «بأن نظام الديوان قام على ثلاثة أسس متتالية:

١ ـ اساس النسب والقرابة برسول الله قبيلة بعد قبيلة.

٢ ـ اساس السابقة في الإسلام وحسن الأثر في الدين.

٣ ـ التفضيل عند انقراض أهل السوابق بالتقدم في الشجاعة والبلاء في الجهاد»[1].

كما أنشأ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بيتاً للمال، بغاية حفظ الأموال الزائدة والفائضة عن الجند. وبيت المال هذا، اعتمد في موارده على الصدقات والزكاة، ومن مال الخراج والجزية والعشور. وأبقى عمر بن الخطاب نظام العملات المتداول في البلاد المفتوحة من رومية أو فارسية أو حميدية. وهي عملات تعامل بها العرب في الجاهلية وصدر الإسلام[2]، كما تداولوا بالدنانير البيزنطية في التجارة.

واهتم عمر بن الخطاب أيضاً بالتنظيم الجيد للجيوش، وبالأشكال الإدارية المناسبة لإنجاح مشروع بناء الدولة. فكان تنظيم العسكر وبناء القواعد العسكرية في المناطق المفتوحة أمراً لا بد منه، لحل مشكلة الجند وإقامتهم. كما سمح ببقاء النظم الإدارية في البلاد المفتوحة. وحاول الاستفادة من النظم في تلك البلدان، وتداولها وتطويرها في الدولة الإسلامية.

---

(١) سالم ـ ص ٥٢٣.

(٢) سالم ـ ص ٥٢٤ ـ ٥٢٥.

والتفت أيضاً إلى الاهتمام بإنشاء قوة بحرية ليتسنى له مقاومة الهجمات البحرية التي يشنها الروم عليه. فاعتمد نظاماً بحرياً دفاعياً قوامه، إقامة الأربطة والمناظر والمسالح على طول السواحل. ووضع مقاتلين للمراقبة، وإيقاد النيران تنبيهاً للخطر[1]. فشكلت بذلك سوراً منيعاً يصعب اختراقه أو تجاوزه. ثم تطور أمر بناء اسطول بحري إلى عهد معاوية الذي كان له الفضل في إنشائه لحماية سواحل بلاد العرب من الغزوات البحرية.

كان نقش خاتم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب «كفى بالموت واعظاً يا عمر».

---

(١) سالم - ص ٥٢٤ - ٥٣٦.

فصل
في خلافة عمر بن الخطاب

نستنتج مما تقدم، أن عمر بن الخطاب، كان بوجه عام رجل دولة، ورجل سياسة، واعتمد نهجين متوازيين: اللين والشدة، في مسألة إدارة شؤون البلاد. كان رؤوفاً بالناس مثل قصته المشهورة مع المرأة وصبيانها، والتي كانت تضع قدراً من الماء على النار لإسكات جوع أولادها فأبرها عمر وتولى أمرها. ولم تكن تخلو نفسه من نوازع المحاسبة والاقتصاص من الذين له معهم حسابات قديمة، كخالد بن الوليد وغيره. وبالرغم من كثرة فتوحاته، فقد حكم الناس بالقسوة وعاملها بالقوة في بعض الجوانب. فقيل إن عمر بن الخطاب؛ «لم يكن يستعمل في تأديب الناس إلا درّته، وهي عصا صغيرة كالمخصرة، كانت دائماً في يده أنّى سار. وكان الناس يهابونها أكثر مما تخيفهم

السيوف القاطعة...»[١]. وهذا دليل على سلطة عمر وسطوته. وما خوف الناس من درّته إلا دليلاً على عدم الإطمئنان له، والخوف منه لقسوة عقابه. كما يظهر أن الخليفة عمر بن الخطاب ساس الناس بسياسة التقشف لخدمة الجند والفتوحات فقط. فتعرض الناس إلى حالات الجوع وقلة الموارد في العيش. حتى طاول ذلك في بعض الأحيان قادة جيشه البارزين مثل سعد بن أبي وقاص. فروى راشد بن سعد قال: «إن عمر بن الخطاب أتى بمال فجعل يقسمه بين الناس، فازدحموا عليه، فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس... فغضب عمر من مزاحمته...»[٢]. فتدافع سعد هنا له دلالة على قلة الأعطيات له، ولولا حاجته للمال لما اندفع وتزاحم مع الناس طلباً للمال. وهذه إشارات واضحة على سوء الأوضاع المعيشية والاقتصادية التي كانت سائدة في ظل حكمه. كما انتشرت في عهده التوابع، وبروز التيارات المختلفة. فقد روى ابن عباس عن عمر أنه قال لناس من قريش: «بلغني أنكم تتخذون مجالس، لايجلس اثنان معاً حتى يقال من صحابة فلان من جلساء فلان...»[٣].

وقيل إن عمر بن الخطاب لم يكن يطلب المال لنفسه، ولم يسع إليه وكان قتيراً، يتجنب البذخ والإسراف. فذكر أن عمر بن الخطاب عند ذهابه إلى الحج لم ينفق مالاً كثيراً، ولم يبذخ على

(١) محمد الخضري بك ـ الدولة الأموية ـ ص ٢٨٤.

(٢) محمد الخضري بك ـ الدولة الأموية ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥.

(٣) محمد الخضري بك ـ الدولة الأموية ص ٢٨٧.

نفسه، ولم يتباه بالمظاهر وعلامات النعمة. فقيل عنه: «أنفق عمر في حجته ستة عشر ديناراً، وقال لإبنه: لقد أسرفنا...»[1]. وكان يخاف أن يقال عنه شبعاناً والناس تقبع في الفاقة والعوز. ففي عام الرمادة قال عمر: «بئس الوالي، أنا إن شبعت والناس جياع»[2].

والخلاصة، أن الخليفة عمر بن الخطاب، قد قتل. والذي قتله رجل يدعى فيروز المجوسي الأصل، ويكنى أبا لؤلؤة. فقد تسلل إلى المسجد وعمر قائم يصلي في المحراب صلاة الصبح. وطعنه بثلاث ضربات من خنجر ذات طرفين. وكان ذلك يوم الأربعاء لأربع ليال بقين من ذي الحجة، ودفن يوم الأحد صباح هلال المحرم سنة ٢٤ هـ[3]. فكانت ولايته عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام. وكان سنه حين قتل ٦٣. وقيل ٥٧ سنة. (ذكره الواقدي).

وفي الروايات أن أبا لؤلؤة هذا، كان غلام المغيرة بن شعبة. وقد يكون الدافع لقتله الخليفة عمر، بأن المغيرة بن شعبة حين كان أميراً على البصرة، خلعه من الإمارة لأسباب خلقية، ثم أعاده بعد فترة.

وعن بيت عمر بن الخطاب، فقد تزوج في الجاهلية زينب بنت فطعون من بني جمح من قريش. ومليكة ابنة جرول من خزاعة.

---

(١) ابن كثير - ج ٧ ص ١٠٩.
(٢) ابن كثير - ج ٧ ص ١٠٩.
(٣) ابن كثير - ج ٧ ص ١١١.

ثم تزوج كلاً من: إبنة أبي أمية من بني مخزوم، أم حكيم بنت الحارث بن هشام من بني مخزوم، جميلة بنت قيس، أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، وامرأة اسمها لهية من اليمن، وعاتكة بنت زيد بن عمر، وخطب أم كلثوم بنت أبي بكر وهي صغيرة، وفيها قال عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب: «... فيك غلظة ونحن نهابك، وما نقدر أن نردك عن أخلاقك، فكيف بها إن خالفتك في شيء فسطوت بها...»[1].

يذهب كثيرون إلى القول بأن خلافة عمر بن الخطاب كانت نموذجاً يحتذى في العدالة، بينما آخرون رأوها بشكل مغلوط، واعتبروا عدالة عمر، لا تخرج عن كونها عدالة الفرد، وليس عدالة الأمة والمجتمع. وذلك لا يعني بأن الخليفة عمر لم يكن فيه عدل، أو لم يفكر بالعدالة ويمارس شيئاً من الديمقراطية. بالطبع لا. لكن السؤال المطروح: هل حقق عمر بن الخطاب العدالة للمجتمع ونشر الديمقراطية وعممها على الجميع؟ بالطبع لا. لأنه ببساطة طبق العدل حسب مفهومه الشخصي والفردي للعدالة، ولم يطبقه بالمعنى الاجتماعي العام، ولم يحقق عدالة الأمة، ويفوز بتأمين الديمقراطية لها. ولذلك، فالحاكم العادل لا ينتظر أن يأتيه المظلومون شاكين له كي يحقق لهم الحق والعدل. ولا شك أن الخليفة عمر، حاول أن يصنع عدالة ويرسم ديمقراطية لكنها ناقصة، لأنه كما أسلفنا، بناها على اساس فهمه الشخصي ورؤيته الفردية. ولم يبنها على أساس النظرية الشاملة

---

(١) محمد الخضري بك ـ الدولة الأموية ـ ص ٢٨٨.

للمجتمع والأمة. وقد كان واضحاً بأنَّ عمر بن الخطاب «كان عادلاً في كل شيء عدا ما يهدد وجوده في الحكم»[1].

وجدير القول إنَّ الخليفة عمر بن الخطاب، كان شديداً وقاسياً، لا يعرف الرحمة مع المخالفين والاعداء. ولا يتهاون أو يتراجع عمَّا يقرره أو ما يجده ملائماً. وبلغ من الشدة في تعامله مع أسرى الحرب، إذ قال للرسول (ص) مرة، حين استشاره في أسرى بدر: «إدفعهم إلينا يا رسول الله، فلنضرب أعناقهم». وكان من بين هؤلاء الأسرى أقاربه وأقارب الخليفة السابق أبي بكر، كما كان فيهم أقارب الرسول (ص) وفروع من بني هاشم.

نستنتج من ذلك، بأن عدالة فردية من هذا النوع لم تخرج عن كونها عدالة للدعاية والمباهاة، وتصوير الظن بها لدى جموع المواطنين. أي إفهام الناس بمعنى العدالة وليس بتحقيق مضمونها لتصبح قانوناً يطاول جميع الناس دون تفرقة. وهذا ما فعله معظم الحكام عند الإسلام مثل معاوية والسفاح ويزيد والحجاج وغيرهم كثيرون عبر مسلسل حكم العائلة والوراثة. فكانوا يظهرون أو يتظاهرون بمعنى العدالة ولا يبغونها. وهي نظرية قائمة على المفهوم القائل: «إذا لم أكن أنا عليّ الغاء الآخر»، وفي هذا الفهم تبدو سيادة الرأي الواحد وطغيانه على الآخرين جبراً لا اختياراً، وعن طريق النفوذ والسلطة وليس عن طريق الحرية وممارسة الديمقراطية. وهكذا فهم، وهكذا نظام قائم على هذه النظرية، لا بد أن يهمله الزمن ويسقطه ذات يوم. وقد سقط

---

(١) الصادق النيهوم ـ إسلام ضد الاسلام ـ ص٣٠٦.

بالفعل، وأيامنا الحالية أكبر شاهد على ذلك.

فهل كان عمر إذاً عادلاً بالفعل؟ وهل نشر الأمان والاطمئنان بين الناس؟ فإذا كان الأمر كذلك، فما معنى أن يموت عمر غيلة في المسجد؟ وما معنى قول الرسول لعمر «إن الشيطان ليخاف منك يا عمر»؟.

وفاة عمر
وولادة الفتنة

عندما طعن أمير المؤمنين الخليفة عمر بن الخطاب بسكين، ولزم الفراش وشعر بأن الساعة قد دنت. أشار عليه من حوله أن يستخلف من بعده. وبعدما ألح عليه الحضور، طلب عمر بن الخطاب، أن يجتمع بعد ثلاثة أيام من دفنه: علي بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف. ويختارون خليفة من بينهم. ثم خاطبهم قائلاً: «إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم.... إني لا أخاف عليكم إن استقمتم، ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم، فيختلف الناس. فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذن منها، فتشاوروا، واختاروا رجلاً

منكم»[١]. بينما ذكر ابن الأثير أيضاً بأن عمر كان منحازاً إلى جهة الأنصار، لأنه قد أوحى بأن من يقع عليه الاختيار أن يكون من الأنصار، لأنهم «تبوأوا الدار والإيمان... كما أوصى بالعرب خيراً، لأنهم مادة الإسلام»[٢].

ومن خلال خطاب أمير المؤمنين هذا، نجد أن الخليفة عمر بن الخطاب، هو الذي وجد بنفسه وقرر لوحده من هم قادة الناس ورؤساؤهم. وهو الذي عيّن هؤلاء الستة ليختاروا خليفة من بينهم، وليس اختيار هؤلاء الستة جاء نتيجة انتخاب من الناس، أو جاء رغبة منهم بعد استفتاء أو تشاور، وبالتالي فإن من نصب هؤلاء الستة هو الخليفة عمر بن الخطاب من دون الرجوع أو العودة إلى مشورة أحد.

وأثارت هذه التصريحات عن عمر، خشية علي بن أبي طالب أن تخرج الخلافة من يده. واستمرت المشاورات والنقاشات في أمر الخليفة الجديد، ثلاثة أيام دون التوصل إلى نتيجة. ولما أوشك الوقت المحدد أن ينتهي، اقترح عبد الرحمن بن عوف على الناس المحتشدة في «بيت المسور بن مخرمة، وقيل في بيت المال. وقيل أيضاً في بيت عائشة بإذنها»[٣] وقيل كذلك بالمسجد الذي التج بأهله[٤]. على أهل الشورى أن يتولى

(١) ابن الأثير - الكامل - ج ٢ ص ٦٨.
(٢) ابن الأثير - أسد الغابة - ج ٣ ص ٣٨١.
(٣) سالم - ص ٥٤٦.
(٤) محمد الخضري بك - الدولة الأموية - ص ٢٩٤.

هو أمرهم، فوافق عثمان على اقتراحه، وجاراه علي بذلك. واستوثقوه بأن يؤثر الحق. فتشاور عبد الرحمن بن عوف بأهل الشورى، فوجدهم منقسمين إلى فريقين: فريق يؤيد عثمان، وفريق يؤيد علياً.

ويعني ذلك تلقائياً أنهم انقسموا إلى حزبين: حزب أموي، وحزب آخر هاشمي.

ولما رأى عبد الرحمن بن عوف هذه الأجواء الانقسامية، وحالة التفتت السائدة، دعا علياً لعهد الله وميثاقه والعمل بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده. فوافق، ثم أوصى بعثمان ما أوصاه بعلي فقبل أيضاً[1].

وعندما وقف عبد الرحمن بن عوف على المنبر في المسجد، وبايع عثمان بن عفان، تدافعت الناس بالمبايعة. فقال علي بن أبي طالب لعبد الرحمن بن عوف: «خدعتني، وإنك إنما وليته لأنه صهرك...»[2] (رواه ابن جرير).

واحتج علي على طريقة المبايعة، واتهم عبد الرحمن بن عوف بالخيانة، وبأنه فعل ذلك لكي يخلفه من بعده. وقال: «حبوته حبو الدهر. ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا»[3].

واضطر علي أخيراً إلى مبايعة عثمان كارهاً، وهو يقول: «خدعة وأيما خدعة»[4].

---

(١) الطبري - ج ٥ ص ٣٧.
(٢) ابن الأثير - ج ٧ ص ١١٨ - ١١٩.
(٣) ابن الأثير - ج ٣ ص ٧١.
(٤) الطبري - ج ٥ ص ٤١.

وبذلك تمت الخلافة لعثمان بن عفان، وسط أجواء من التفرق والانشقاق. وقد كان عمره يوم مبايعته ما يزيد على السبعين عاماً[1].

وفي اليوم الثالث من المحرم سنة ٢٤هـ. ألقى خطبة اكتنفها الوعظ والإرشاد. وطغى عليها النصح واللين. وطالب فيها الناس «إلى طلب الآخرة، والزهد عن الدنيا والاعتبار بمن لفظتهم»[2].

ولدى استلام عثمان بن عفان الخلافة من بعد عمر. نهج سياسة التساهل واللين مع الناس، عكس ما نهجه الخليفة عمر من الشدة ومن الحزم في شتى الأمور. فكان نتيجة سياسة عثمان هذه، واتباعه سلسلة من الإجراءَات في أمور الحكم، بروز الأسباب اللاحقة التي فجرت الأوضاع وتفاقمت بسببها الأحوال.

فقد بدأ في سنة ٢٤ للهجرة سياسة أحادية الجانب، متحيزة متحزبة لصالح أهله وعشيرته وقومه. وانتهت في سنة ٣١هـ. وقد لجأ عثمان بن عفان منذ توليه الخلافة إلى مجموعة إجراءَات و تدابير عديدة. فعزل المغيرة بن شعبة عن إمارة الكوفة، وولى عليها سعد بن أبي وقاص، وفي سنة خمس وعشرين للهجرة عزل سعد بن أبي وقاص عن الكوفة، وولى مكانه الوليد بن عقبة بن أبي معيط. وعزل عمرو بن العاص عن مصر، وولى عليها عبد الله بن سعد بن أبي سرح. وعزل أبا موسى الأشعري عن البصرة، وولى عليها عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب

---

(١) سالم - ص ٥٤٩.

(٢) الطبري - ج ٥ ص ٤٣.

بن عبد شمس (وهو ابن خال عثمان). ثم عزل الوليد بن عقبة عن الكوفة، وولى عليها سعيد بن العاص. وقيل إن سبب خلع الوليد بن عقبة شهود بعضهم عليه بأنه كان يشرب الخمر.

واللافت في إجراءات الخليفة عثمان بن عفان، هو وضع حد لموضوع الشورى الذي جاء به الخليفة عمر، وإعلانه بأن الله عهد إليه بالخلافة ولا يحق لأحد محاسبته، بل لله وحده حق محاسبته.

ومن صفات الخليفة عثمان بن عفان، أنه كان كثير الجود والكرم، وفريداً في البذخ والإسراف، مما جعل الأثرياء من الطبقة الأرستقراطية الدينية أن يحذو حذوه، ويسيروا على طريقته. فقيل عن عثمان إنه في سنة ٢٧هـ. «بنى داره بالحجر والكلس، وجعل أبوابها من الساج والعرعر، واقتنى أموالاً وجناناً وعيوناً بالمدينة...»[١]. وذكرت الروايات أن زيد بن ثابت حين توفي، «خلف وراءه من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس، غير ما خلف من الأموال والضياع بما قيمته مائة ألف دينار...»[٢].

وقد لاقت سياسة الخليفة عثمان استنكاراً واسعاً بين المسلمين من توليته لأقربائه وعزل القدامى، ومن انتشار الرفاهية والبحبوبة وسط القلة المسيطرة، بما يخالف ما ساد أيام خلافة عمر، حسب زعم الرواة.

---

(١) المسعودي - مروج الذهب - ج ٢ ص ٣٣٢.

(٢) المسعودي - مروج الذهب - ج ٢ ص ٣٣٣.

ومن الأخبار، أن الوليد بن عقبة «شرب الخمر مع ندمائه ومغنيه يوماً، من أول الليل حتى الصباح. فلما آذنه المؤذنون بالصلاة، خرج في غلائله فتقدم إلى المحراب في صلاة الصبح، فصلى بهم أربع ركعات، ثم قال: أتريدون أن أزيدكم؟»[1]. ولما علم عليّ بن أبي طالب بذلك، قال لعثمان: «دفعت الشهود وأبطلت الحدود»[2].

ومن سياسته أيضاً، أنه «أول من استخدم السوط لضرب ظهور الناس..»[3]. بينما استخدم الخليفتان أبو بكر وعمر الدرة والخيزران. وللتدليل على ذلك، فإنه لما أمر بضرب عمار بن ياسر لتجروئه على إنكار سياسته، وقد شارك معهم بالضرب، استمروا بضربه «حتى فتقوا بطنه فغشي عليه، فجرّوه حتى طرحوه على باب الدار»[4]. وكذلك أساء إلى ضابىء بن الحارث البرجمي، «فعزره وحبسه حتى مات في السجن»[5]. ثم تعامل مع عبد الله بن مسعود لامتناعه عن دفع مصحفه إلى عبد الله بن عامر، فطلب اعتقاله وأمر بضربه «فجر رجله حتى كسر له ضلعان... حتى توفي»[6].

(١) ابن الأثير - ج ٣ ص ١٠٧.
(٢) سالم - ص ٥٥٤.
(٣) سالم - ص ٥٥٧.
(٤) ابن قتيبة - ص ٣٤.
(٥) ابن الأثير - ج ٣ ص ١٨٣.
(٦) اليعقوبي - ج ٢ ص ١٧٠.

وبلغ الأمر بالخليفة عثمان بن عفان في سلوكه وتصرفاته مع المعارضين لسياسته، حدود الرجم. وهو مافعله بامرأة من جهينة، فرجمها، ثم ندم بعد فوات الأوان[1].

وقد كان لهذه السياسة التي انتهجها عثمان، أكبر الأثر في تحريك مشاعر السخط والاستنكار، وإثارة روح الكراهية والنفور بين أوساط كثيرة وواسعة عند المسلمين والعرب.

ومن جراء هذه السياسة، فقد تمرد أهل الكوفة على عثمان، وعلى وليّه سعيد بن العاص. وكادت تحصل فتنة ومعركة دموية بين جماعة عثمان وأتباعه من جهة، وأهل الكوفة من جهة ثانية، إلى أن كر سعيد بن العاص راجعاً إلى المدينة، وكسر الفتنة، واستجاب عثمان إلى رغبة أهل الكوفة بتولية أبي موسى الأشعري.

وعليه، انتشرت الفتن أيام خلافة عثمان، فذكر سيف بن عمر «إن رجلاً يقال له عبد الله بن سبأ، كان يهودياً، فأظهر الإسلام وصار إلى مصر. وبدأ يبث الإشاعات والأقاويل من مثل: محمد خاتم الأنبياء، وعلي خاتم الأوصياء... وهو أحق بالإمرة من عثمان... إلخ[2]».

وتصاعدت وتيرة الإحتجاج، مما دفع علي بن أبي طالب بالذهاب إلى عثمان لمحادثته بما بلغت إليه حال الناس من النفور والكراهية والانقسام، وبعدما خرج علي من عند عثمان. «خرج

(١) اليعقوبي - ج ٢ ص ١٧٤.

(٢) ابن كثير - ج ٧ ص ١٣٥.

عثمان وصعد المنبر فوعظ وحذر وأنذر وتهدد وتوعد وأبرق وأرعد. . . وفيما قال: ألا فقد والله عبتم عليَّ بما أقررتم به لابن الخطاب، ولكنه وطئكم برجله، وضربكم بيده، وقمعكم بلسانه. فدنتم له على ما أحببتم أو كرهتم. ولِنْتُ لكم وأوطأت لكم كتفي، وكففت يدي ولساني عنكم، فاجترأتم عليَّ. . . إلخ[1]».

وأزعم هنا، أنه في قول عثمان ما يشير إلى قديم مدفون، تحرَّك في لحظة للتعبير عنها، ألا وهو معاتبة الناس ببطش الخليفة عمر عليهم. وهو إقرار واعتراف من الخليفة عثمان، بإدانة سياسة الخليفة عمر وعدم الرضى بها، وقبول الناس بها، بينما حجبوها عنه ورفضوا الانقياد له.

وفي ظل هذه الأوضاع، وهذه الأثناء، كان معاوية بن أبي سفيان يحاول استغلال الوضع في خدمة أغراضه وبلوغ الحكم والسلطة والولاية. ومرة لدى خروجه من عند عثمان أفاض «محذراً من إسلامه إلى أعدائه. . .» فقال بعدها كعب الأحبار: «إن الأمير بعده (عن عثمان) صاحب البغلة الشعباء، وأشار إلى معاوية. .»[2].

وكان من أسباب ارتفاع حرارة حدة الخلافات، قرارات العزل التي أجراها عثمان، ومنها عزله عمرو بن العاص عن مصر سنة ٣٥هـ، وتولية عبد الله بن سعد بن أبي سرح، إلى دعم خوارج مصر الذين كان عمرو يقهرهم ويمنعهم من الكلام

(١) ابن كثير - ج ٧ ص ١٣٦.
(٢) ابن كثير - ج ٧ ص ١٣٦.

والاحتجاج. وطالب الخوارج في مصر، من عثمان بن عفان خلع عمرو، وتعيين من هو ألين منه، لما لعمرو من ترك للصلاة وغيرها. وبعث عثمان إلى عمرو يقول له: «لا خير لك في المقام عند من يكرهك»[1]. وكانت ردة فعل عمرو بن العاص بعد ذلك، تأليب الناس على عثمان، وحذت حذوه جماعات من مصر لكرههم عثمان، «لأنه عزل جماعة من عليّة الصحابة وتوليته من هم دونهم...»[2].

ولما كثر اللغط، وازدادت النقمة على عثمان، لانحيازه لبني أمية في الامارات. قال علي بن ابي طالب: «... والله لو أن مفتاح الجنة بيدي، لأدخلت بني أمية إليها...»[3]. وهي دلالة على حجم سخط علي من الأوضاع، ومدى تذمره من سياسة عثمان، ونصح علي بن أبي طالب عثمان، «أن يخطب في الناس خطبة يعتذر إليهم فيها مما كان وقع من الأثرة[4] لبعض أقاربه، ويشهدهم عليه بأنه قد تاب من ذلك... فاستمع عثمان لهذه النصيحة... وقال في خطبة يوم الجمعة: «اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك، اللهم إني أول تائب مما كان مني...»[5]. وهذا اعتراف واضح وجلي من عثمان بذنوبه

---

(١) ابن كثير - ج ٧ ص ١٣٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ص ١٣٨.

(٤) الأثرة: تفضيلهم واختيار الأشياء الجيدة لهم.

(٥) المصدر السابق ص ١٣٨.

وأخطائه التي ارتكبها، ومن ممارسته واستخدامه للخلافة بشكل غير عادل.

وتطورت الأمور، بمجيء جماعة من أكابر الناس على باب عثمان، فجاء مروان بن الحكم، بعد أن كلفه عثمان بالخروج إلى الناس ومخاطبتهم. فقال من جملة ما قاله مروان: «. . . كأنكم قد جئتم لنهب. . . جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا، أخرجوا عنا. . . إرجعوا إلى منازلكم. فوالله ما نحن مغلوبين على ما بأيدينا. . .»[1].

وساء علي بن أبي طالب ما جرى، وما قاله مروان. فجاء علي مغضباً حتى دخل دار عثمان، وقال: «أما رضيت من مروان ولا رضي منك إلا بتحويلك عن دينك وعقلك؟! وإن مثلك مثل جمل الظعينة سار حيث يسار به. . . ثم تابع قوله: . . . فإنك متى أطعت مروان قتلك. . .»[2]. تجدر الإشارة هنا إلى أن الأمور تطورت عكس ما كان يتمناه النبي محمد (ص)، فقد قيل إنه لما نسخ عثمان المصاحف، دخل عليه أبو هريرة، وقال: «أشهد لسمعت رسول الله يقول: إن أشد أمتي حباً لي، قوم يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني، يعملون بما في الورق (المصاحف) المعلق»[3].

وتوسعت دائرة الخلافات وبلغت أوجها، عندما بلغ أهل

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٩.

(٢) المصدر السابق ص ١٣٩.

(٣) المصدر السابق ص ١٧٤.

الأمصار من خبر مروان وغضب علي بن أبي طالب على عثمان بسببه، فأخذوا يدعون الناس إلى قتال عثمان. وبعدها خرج أهل الكوفة وأهل البصرة، وأهل مصر ثائرين مصرّين على ولاية علي بن أبي طالب. فدعا معاوية بن أبي سفيان، عثمان أن يحتاط للأمر قبل أن يستفحل ويهاجموه. فاعترض عثمان. فخرج معاوية وأوصى بعثمان قائلاً: «فوالله لئن قتل بين أظهركم، لأملأنها عليكم خيلاً ورجالاً..»[1].

وكانت هناك حسابات ضيقة، وتنافس على الإمارة وعلى السلطة. فأهل الكوفة عازمون على تأمير الزبير، وأهل البصرة مصممون على تولية طلحة، وساروا حتى توافوا حول المدينة، وارسلوا قصاداً وعيوناً ليخبروا أنهم جاؤوا للحج لا لغيره... واقتربوا من المدينة، وكان علي «...متقلداً السيف وليس عليه قميص... ثم أرسل ابنه الحسن إلى عثمان مع المصريين، فصاح عثمان بهم وطردهم...»[2]. بعد ذلك،... أظهروا للناس أنهم راجعون إلى بلدانهم... ثم كروا عائدين إلى المدينة... وأحاطوا بها، وجمهورهم عند دار عثمان بن عفان محاصراً... ثم قالوا للناس: «من كف يده فهو آمن». وقالوا أيضاً: «...ليعتزلنا ونحن نعتزله ـ أي إن نزل عن الخلافة، تركوه آمناً...»[3].

---

(1) ابن قتيبة ـ ص ٣١.
(2) ابن كثير ـ ج ٧ ص ١٤٠.
(3) ابن كثير ـ ج ٧ ص ١٤٠.

وفي تلك الأثناء، ومع اشتداد حالات الحصار، وتفاقم الأمور، جرى تزوير كتاب وخاتم عثمان عليه. وبينما كان عثمان يصلي بالناس، قام إليه رجل يقال له: جهجاه الغفاري، فقال «قم يا نعثل[1]، فانزل عن هذا المنبر. وأخذ العصا فكسرها على ركبته اليمنى...»[2]. وقيل إن الذي زور الكتاب هو مروان بن الحكم.

واستمر حصار دار عثمان «أكثر من شهر، وقيل أربعين يوماً..»[3]. حتى بلغ الجهد من الناس ومن الحصار، وسيطرت حالة من الملل، وحالة من الفوضى، فكره الناس الحال، واستاؤوا من المآل.

وذكر الإخباريون أن حادثة شبيهة حصلت مع الخليفة أبي بكر، فأخرج أبو نعيم وغيره عن عبد الرحمن الأصبهاني أنه قال: «جاء الحسن بن علي بن أبي طالب إلى أبي بكر وهو على منبر رسول الله (ص) فقال: إنزل عن مجلس أبي. فقال: صدقت إنه مجلس أبيك وأجلسه في حجره وبكى. فقال علي: والله ما هذا عن أمري، فقال أبو بكر: صدقت والله ما أتهمك..»[4].

والتهبت الأحوال بين المحاصرين لدار عثمان، والناس تترقب مخاطر المذبحة بحذر، كما احتدمت النفوس وهاجت

---

(١) نعثل: الذكر من الضباع، أو الشيخ الأحمق.

(٢) ابن كثير - ج ٧ ص ١٤١.

(٣) ابن كثير - ج ٧ ص ١٤٢.

(٤) السيوطي - تاريخ الخلفاء - ص ٩٠.

بالثورة والانتقام، في النزاع على السلطة وعلى الحكم، وليس على النص ولا على كتاب الله.

فقال سيف بن عمر التميمي: «. . . دخل محمد بن أبي بكر دار عثمان وأخذ بلحيته وأهوى بمشاقص (نصل عريض) معه، فوجأ بها في حلقه. فقال له عثمان: . . . مهلاً يا ابن أخي، فوالله لقد أخذت مأخذاً ما كان أبوك ليأخذ به. . . فتركه وانصرف. . . فدخل عليه رجال، وأتاه رجل بيده جريدة (سعفة طويلة رطبة)، فضرب بها رأس عثمان فشجه، فقطر دمه على المصحف حتى لطخه، وأتاه رجل فضربه على الثدي بالسيف. . . فوثبت زوجته نائلة بنت الفرافصة. . . وأخذت السيف فقطع الرجل يدها. وانتهبوا متاع الدار، ومر رجل على عثمان ورأسه على المصحف، فضرب رأسه برجله ونحّاه عن المصحف وقال: «ما رأيت كاليوم وجه كافر أحسن. . .»[1].

ومن المفارقات التي حصلت، كيف أن علياً بن أبي طالب وجماعته وأنصاره يحاصرون دار عثمان. وكيف يكون موقف علي من كل ما جرى مخالفاً لوقائع الأحداث التي جرت. فقد ذكر أنه لما بلغ الأمر علياً بن أبي طالب عن حصار منزل عثمان وهددوه بالقتل. قال علي لولديه الحسن والحسين: «إذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان، فلا تدعا أحداً يصل إليه. . .»[2].

---

(١) ابن كثير - ج ٧ ص ١٤٨.

(٢) السيوطي - ص ١٦٧.

وتطورت الأمور بشكل مأساوي، ورمى الناس المحاصرون باب عثمان بالسهام، ومنعوا عنه الماء، إلى أن دخل كما ذكرنا، محمد بن أبي بكر ومعه صاحباه، من دار رجل من الأنصار إلى منزل عثمان، وتم ذبح عثمان... وشاع الخبر، وقال عليّ لابنيه: «كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب؟!! ورفع يده فلطم الحسن، وضرب صدر الحسين، وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير، وخرج وهو غضبان. حتى أتى الناس إليه وقالوا له: نبايعك فمد يدك فلا بد من أمير..»[١]. وهنا تبدو المفارقة واختلاط الأمور، والتباس المواقف. إذ كيف يمكن دخول منزل عثمان والتسلل إليه. وولدا عليّ على باب عثمان، يمنعان أحداً من الدخول إليه؟! ثم كيف تحصل المجزرة داخل المنزل دون أن يثير ذلك ضجيجاً وصخباً ينتبه له من يحرسون الباب؟!!

إن مجريات الأحداث لا تعكس سوى الصراع على السلطة. وهذا الصراع كما هو معلوم، لم يكن وليد الساعة، بل كان سائداً وطاغياً بعد وفاة النبي (ص) مباشرة، واعتبار كل فريق أن الخلافة من حقه. في وقت لم يكن يوجد نص في الاستخلاف ولا بغيره. فقد ظل هذا النزاع على سلطة الوراثة ودرجة القرابة والحسب والنسب دفيناً، ولم يظهر إلى السطح بشكله العنيف، إلا إبان خلافة عثمان، حيث تفجرت كل النوايا، وكل الحسابات طمعاً بالسلطة وليس بغيرها. فأخذت الخلافات

---

(١) السيوطي - ص ١٦٧.

تتفجر تدريجياً وتكبر ككرة الثلج مع الأيام. إلى أن حصل ما حصل، وكانت الفتنة الكبرى ونتائجها السلبية المدمرة على مصير الخلافة والدولة الإسلامية معاً.

وبالمحصلة، فقد قتل عثمان في عقر داره، وانتقم منه أصحاب النوايا والطامعون في السلطة والحكم. فذكر عن ابن عساكر: «ضربه سودان بن حمران المرادي، ووثب عليه عمرو بن الحمق فجلس على صدره... فطعنه تسع طعنات...»[1]. وفي رواية أخرى قيل: «إن غلام عثمان ضرب سودان فقتله، فضرب الغلام رجلاً يقال له قترة، فقتله...»[2]. وكان قتله في ١٨ ذي الحجة سنة ٣٥هـ[3]. ولما وقعت الفتنة في قتل عثمان «خرج نساء النبي أمهات المؤمنين إلى الحج فراراً من الفتنة، وأقمن بمكة لأن مبايعة علي صارت بحكم الحال وغلبة الرأي..»[4].

وفي النهاية، قتل عثمان بن عفان سنة ست وثلاثين هجرية[5]، عن عمر جاوز اثنتين وثمانين سنة. وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة. وكان نقش خاتم عثمان: «آمنت بالذي خلق فسوّى».

---

(١) ابن كثير - ج ٧ ص ١٤٩.

(٢) ابن كثير - ج ٧ ص ١٥١.

(٣) اليعقوبي - ج ٢ ص ١٧٦.

(٤) ابن كثير - ج ٧ ص ١٨٥.

(٥) ابن كثير - ج ٧ ص ١٧٤.

وبويع علي بالخلافة، يوم السبت، في التاسع عشر من ذي الحجة، سنة خمس وثلاثين هجرية. على ما يذكره ابن كثير.

وكان عثمان قد تزوج من كل من:

١ ـ رقية بنت رسول الله (ص).

٢ ـ فاختة بنت غزوان من قيس غيلان.

٣ ـ أم عمرو بنت جندب الدوسي.

٤ ـ فاطمة بنت الوليد المخزومية.

٥ ـ أم البنين بنت عيينة بن حصن.

٦ ـ رملة بنت شيبة من بني عبد مناف.

٧ ـ نائلة بنت القرافصة الكلبية[١].

(١) محمد الخضري بك ـ الدولة الأموية ـ ص ٣٢٠ ـ ٣٢١.

خلافة علي
واستمرار الفتنة والنزاع على الخلافة

قتل عثمان بن عفان، وظهرت علامات الندم والحيرة على الوجوه، ودخل المسلمون في نفق مظلم وطريق مجهول. وتأسفت وجوه سادة وزعماء المسلمين، ومن بينهم السيدة عائشة. التي خرجت ناحبة بعدما علمت بمقتل عثمان. فقيل لها: «بالأمس تحرضين عليه، واليوم تبكينه»[١].

ووجد المسلمون أنفسهم أمام مرحلة صعبة وقاسية. وكان لا بد من اختيار خليفة للمسلمين خلفاً لعثمان. فاجتمع عدد من المسلمين في دار علي يناشدونه الموافقة على المبايعة، نظراً لخطورة الوضع، وعواقب النتائج المترتبة بعد مقتل عثمان. ولا

---

(١) ابن قتيبة ـ ص ٤٩.

يمكن أن تبقى الدولة الإسلامية من دون خليفة لشدة حساسية الوضع القائم، فبادر إلى مبايعة علي بن أبي طالب كل من طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام والأشتر النخعي. وقيل إن طلحة والزبير «بايعا كرهاً»[1] طمعاً في ولاية.

وذكرت الأخبار، أن علياً لم يكن يرغب في الخلافة في مثل الحالة التي تلت مقتل عثمان. وقيل إنه لما قدم إليه وفد من أصحاب رسول الله (ص) قال لهم: «لا حاجة لي في أمركم، فمن اخترتم رضيت به». وبعد مجادلة وإلحاح، وإعلامه بأنه أحق من سواه، لقرابته للنبي (ص). قال: «لا تفعلوا فإني أكون وزيراً، خيراً من أن أكون أميراً»[2] .!!

وهنا تبدو الأمور مفارقة لما جرى في الماضي، ومختلفة لما حصل في الحاضر. فقد عمد علي بن أبي طالب إلى رفض خلافة أبي بكر، ثم اعترض على خلافة عمر، بزعم أنه أحق منهما بالخلافة، كما سبق وأوردنا. فكيف هنا يتريث ويتردد في قبول الخلافة، بعدما خلت الساحة له؟!! ثم أن عدداً كبيراً من الأنصار والصحابة لم يبايعوه مثل: سعد بن أبي وقاص، وحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ومسلمة بن مخلد، وعبد الله بن سلام، وصهيب بن سنان، وأسامة بن زيد، والمغيرة بن شعبة، ورافع بن خديج، وفضالة بن عبيدة، وكعب بن عجره[3] . وأشار

---

(١) ابن الأثير - ج ٣ ص ١٩٤.

(٢) ابن الأثير - ج ٣ ص ١٩٠ - ١٩١.

(٣) محمد الخضري بك - ص ٣٢٢ - وابن قتيبة - ص ٥٣.

المغيرة على علي بإمارة الشام لمعاوية، فقال له ابن عباس: «أما المرة الأولى فقد نصحك، وأما المرة الثانية فقد غشك»[١]. كما كان قد وافق رأي المغيرة بن عباس فيما بعد وقال: «بتثبيت معاوية في عمله»[٢] لكن علياً لم يعر رأي ابن عباس أي اهتمام، ورفض قبول تأمير معاوية خوفاً منه، ومن خطر التآمر عليه.

الجدير بالذكر، إنه ما أن تولى علي بن أبي طالب الخلافة، حتى بادر إلى سلسلة من الإجراءَات والتدابير، شبيهة بما فعله الخليفة عثمان لدى توليه الخلافة. فقد اعتمد مجموعة من القرارات، عزل فيها نواباً وولّى مكانهم نواباً آخرين. فولّى عبد الله بن عباس على اليمن، وولّى سمرة بن جندب على البصرة، وعمارة بن شهاب على الكوفة، وقيس بن سعد بن عبادة على مصر، وسهل بن حبيب بدل معاوية على الشام.

أثارت هذه الإجراءَات استنكار عدد كبير من العمال، ورفض معاوية عزله عن الشام، «فعزم عليٌّ على قتال أهل الشام، وخطب في الناس، وحثهم على ذلك...»[٣].

وبالرغم من ارتفاع صيحات المسلمين بالطلب بالثأر لدم عثمان، فقد لجأ علي إلى عزل جميع عماله في الأمصار، فاعتبر الدكتور عبد العزيز سالم هذا التصرف، «بالتسرع، والبعد عن الدهاء السياسي»[٤]. في وقت أن كثيرين حذّروه من خطورة هذه

(١) سالم - ص ٥٧٥.
(٢) المسعودي - ج ٢ ص ٣٥٤.
(٣) ابن كثير - ج ٧ ص ١٨٤.
(٤) سالم - ص ٥٧٦.

التصرفات، ومن انعكاساتها السلبية على الخلافة وعلى الدولة الإسلامية بوجه عام.

وقبل حصول المواجهة بين علي ومعاوية، كتب علي بن أبي طالب إلى معاوية كتاباً، فلم يجبه بشيء. فكتب إليه مرة ثانية يقول: «أمّا بعد، فقد وليتك ما قبلك من الأمر والمال، فبايع من قبلك ثم أقدم إليَّ في ألف رجل من أهل الشام...»[1]. وتأخر معاوية في الرد، مدة من الزمن. قيل ثلاثة أشهر. ثم كتب: من معاوية إلى علي: أما بعد، فإنه ليس بيني وبين قيس عتاب... غير طعن الكلى وضرب الرقاب»[2].

وقرر علي بن أبي طالب القضاء على خطر معاوية قبل أن يستفحل أمره، خصوصاً لما عرفه من العبسي حين قال: «إني قد خلفت بالشام خمسين ألف شيخ (ابن الأثير ستين الفاً) خاضبي لحاهم بدموع أعينهم تحت قميص عثمان[3]، رافعيه على أطراف الرماح، قد عاهدوا الله ألا يشيموا سيوفهم حتى يقتلوا قتلته...»[4]. وذكر ابن الأثير أيضاً أنه «كان النعمان بن بشير الأنصاري قد أخذ أصابع نائلة التي قطعت، وقميص عثمان الذي قتل فيه، وهرب به، فلحق بالشام، فكان معاوية يعلق قميص عثمان وفيه الأصابع، فإذا رأى أهل الشام ذلك إزدادوا غيظاً

---

(١) ابن قتيبة ـ ص ٥٠.

(٢) ابن قتيبة ـ ص ٥٠.

(٣) ابن الأثير ـ ج ٣ ص ١٩٢.

(٤) أبو حنيفة الدينوري ـ الأخبار الطوال ـ ص ١٤٣.

ووجداً في أمرهم. .»[1].

وجهز علي حملته وولى القادة ونظم الأمور، ودفع بالجيش لمحاربة أهل الشام. وبلغه في هذه الأثناء، أن طلحة والزبير نكثا البيعة، وانضمت إليهما عائشة التي طالبت بدم عثمان. فاضطر علي إلى تغيير وجهته إلى الكوفة[2]. حتى أن ابنه الحسن قال: «يا أبتي دع هذا، فإن فيه سفك دماء المسلمين، ووقوع الاختلاف بينهم»، فلم يقبل منه ذلك. . . بل صمم على القتال ورتب الجيش. .[3].

ولما خرج علي لقتال أهل الشام، لم يخرج معه أهل المدينة، وثارت عائشة، وقامت تخطب بالناس تحثهم على القيام بطلب دم عثمان. وسار معها جمع غفير نحو البصرة، فالتقاهم رسل، واستعلموا منها ما جاءَت له، فذكرت: «. . . بطلب دم عثمان»[4]. ولما جاء عمران بن حصين وأبا الأسود الدؤولي إلى طلحة، فقال له: ما أقدمك؟ قال: الطلب بدم عثمان. فقالا: ما بايعت علياً؟ قال: «بلى والسيف على عنقي. .»[5].

ولم تتوقف الأمور عند هذا الحد، بل تسارعت نحو سفك الدماء والاقتتال البغيض بين أبناء المسلمين والدين الواحد،

---

(١) ابن الأثير ـ ج ٣ ص ١٩٢.
(٢) الدينوري ـ الأخبار الطوال ـ ص ١٤٣.
(٣) ابن كثير ـ ج ٧ ص ١٨٤.
(٤) ابن كثير ـ ج ٧ ص ١٨٥.
(٥) ابن كثير ـ ج ٧ ص ١٨٦.

ودنت ساعة الانتقام «والتقى الفريقان واقتتلوا قتالاً شديداً قرب مقبرة بني مازن. وقتل خلقٌ كثير من أصحاب عثمان بن حنيف وكثرت الجراح بين الطرفين. فتداعوا إلى الصلح على أن يكتبوا بينهم كتاباً، ويبعثوا رسولاً إلى أهل المدينة، يسأل أهلها إن كان طلحة والزبير أكرها على البيعة... وكان الجواب من أسامة بن زيد، فقال: بل كانا مكرهين»[1]. وجمع طلحة والزبير الرجال وقتلوا نحو أربعين رجلاً. ودخل الناس على عثمان بن حنيف قصره، وأخرجوه إلى طلحة والزبير، ولم يبق في وجهه شعرة إلا نتفوها... وبلغ الأمر عائشة، فأمرت «أن يخلى سبيله... إلى أن قتله حكيم بن جبلة»[2].

وفي موقع آخر، ذكر أنه لما وصلت عائشة إلى المربد، جرى اشتباك مع أتباع علي بن أبي طالب في ٢٥ ربيع الآخر سنة ٣٦ هـ. وانتهت بهزيمة أتباع علي... «أما عثمان بن حنيف فقد وقع أسيراً، فأمر مروان بن الحكم بعثمان، فنتفت لحيته وشعر رأسه وحاجباه، وضرب أربعين سوطاً، ثم أطلق سراحه، فقابل علياً في ذي قار..»[3].

وعلم علي بن أبي طالب ما أصاب أتباعه، وما حصل لعثمان بن حنيف، فنظم جيشاً وسار به حتى وصل ذي قار، وانضمت إليه وفود من بكر بن وائل وطيء وأسد، ووفود من

---

(١) ابن كثير ـ ج ٧ ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

(٢) ابن كثير ج ٧ ص ١٨٧.

(٣) ابن قتيبة ـ ص ٧٢.

المهاجرين والأنصار حتى بلغوا عشرين ألفاً. وزحف بهم واستعد للقتال في ١٠ جمادى الآخرة، واشتعلت المواجهة أواخر نفس الشهر سنة ٣٦ هـ[١].

ولم تستمر المعركة إلا ليوم واحد[٢]. إنتهت بهزيمة جيش عائشة، والتي اشتد القتال حول هودجها، وكثرت فيه السهام حتى أصبح كالقنفذ[٣]. بعدها عادت عائشة إلى المدينة حاملة أذيال الهزيمة في وقعة الجمل.

ومن الأخبار أيضاً، أنه لما اشتد الحمى، «وتراسل الناس في الكلام، قام عمار بن ياسر والحسن بن علي... يدعوان الناس إلى النفير إلى أمير المؤمنين... وسمع عمار رجلاً يسب عائشة فقال: أسكت مقبوحاً منبوحاً، والله إنها لزوجة رسول الله (ص) في الدنيا والآخرة...»[٤]. وقيل إنه في ظل هذه المعمعة الشديدة، واللفظ الكثير والأخذ والرد، تجرأ رجل ليسب زوجة النبي (ص) ويرشقها بأسوأ العبارات..!!

واللافت للنظر هنا، هو موقف الحسن بن علي، الذي اعترض في البداية على سلوك أبيه، ونصحه بعدم سفك دماء المسلمين، وعدم الانخراط في برك الدم. بينما بالمقابل مافعله عكس ذلك تماماً، فقد وجدناه من أكثر الناس تهافتاً واهتماماً

---

(١) ابن الأثير - ج ٣ ص ٢٥٨.
(٢) ابن قتيبة - ص ٨٠.
(٣) عبد العزيز سالم - ص ٥٨٣.
(٤) ابن كثير - ج ٧ ص ١٩٠.

بدعوة الناس إلى الحشود ومؤازرة جيش عليٍّ. وقد يكون محقاً في ذلك، لأنه من غير المعقول أن يقف مكتوف الأيدي حيال أبيه، وأن يتخلى عنه. فصار الأمر مفروضاً عليه وعلى رغبته.

لقد كان لوقعة الجمل، وقعها المرّ على العقول، والمدمي على القلوب، ولم يستطع أحد أن يمنع الكارثة وحقن الدماء. ثم أن هناك جماعات برزت تقول بأن عدم الأخذ بالثأر لدم عثمان، أمر لن يمر دون عقاب، وفسّرت كل جماعة الأمر حسب مصلحتها ومنفعتها. وآخرون حاولوا التهدئة وإزالة الاحتقان والاعتماد على عامل الوقت لتهدئة النفوس. بينما ذهب طلحة والزبير فاعتبرا ترك قتلة عثمان: إنما هو تخل عن الدين وعن القرآن فقال: «فإن هذا إن ترك كان تركاً للقرآن»[1] بينما كان موقف القعقاع بن عمرو، وهو من جماعة التهدئة والحلول الوسط، فقال إلى عائشة أم المؤمنين: «...أقول إن هذا الأمر الذي وقع دواؤه التسكين...»[2].

وقد جرت قبل الوقعة مساع عديدة، لإصلاح ذات البين بين الطرفين، وقيل إن عائشة أرسلت إلى علي بن أبي طالب، تعلمه أنها جاءَت للصلح. ففرح القوم، وأشرفوا على الصلح. لكن هذا الأمر لم يرض طرفاً ثالثاً كان همه الإيقاع بين الطرفين وإثارة الفتنة، واعتبروه «اصطلاحاً على دمائهم». وكان على رأس هذه الجماعة، الأشتر النخعي، وشريح بن أوفى، وعبد الله بن

---

(١) ابن كثير - ج ٧ ص ١٩٠.

(٢) ابن كثير - ج ٧ ص ١٩١.

سبأ، وسالم بن ثعلبة، وغلاب بن الهيثم وغيرهم، وقالوا: «إن كان الأمر هكذا، ألحقنا علياً بعثمان. .»[١].

وتبدو هنا المهزلة، بالطرف الذي لعب بأشعال نار الفتنة، وصب النار على الزيت. حتى خرجت الأمور من بين أيدي المصلحين، وبات قتلة عثمان في حيرة وقلق من أمر الصلح، فأخذوا يتشاورون لمنع الصلح، والتطبيل للحرب. فأغاروا بالسيوف على قراباتهم، فقام الناس وقالوا: «طرقتنا أهل الكوفة ليلاً، وبيتونا وغدروا بنا»[٢]. وكان نتيجة ذلك، أن ثار كل فريق على سلاحه. . . وقامت الحرب على قدم وساق... . وقتل من الفريقين خلق كثير، حتى جعل علي يقول لابنه الحسن: «يابني ليت أباك مات قبل هذا اليوم بعشرين عاماً. . .»[٣].

لم تكن رغبة طلحة والزبير إلا الاستئثار بالولاية، وقيل إنه لما طلب علي محادثتهما، خاطب طلحة بالقول: أما بايعتني؟ قال: بايعتك والسيف على عنقي. وقال للزبير: ماأخرجك؟ قال: «أنت، ولا أراك بهذا الأمر أولى به مني. .»[٤].

وهنا تبدو مسألة الصراع والتنافس على السلطة والزعامة، دون تقدير العواقب، وعدم الاكتراث، إلى سيل الدماء وحجم الخسائر مهما بلغت. فكل هذه الأمور لا تتوقف أمام المآرب

---

(١) ابن كثير ـ ج ٧ ص ١٩١.
(٢) ابن كثير ـ ج ٧ ص ١٩١.
(٣) ابن كثير ـ ج ٧ ص ١٩٢ ـ ١٩٣.
(٤) ابن كثير ـ ج ٧ ص ١٩٣.

الشخصية والوصولية، ولا تمنعها عواطف وتمنيات. ولهذا دارت المعركة بشكل بشع جداً، وحقد لم يشهد له مثيلاً بين أبناء الدين الواحد والكتاب الواحد، حتى قيل: «ولم تر وقعة أكثر من قطع الأيدي والأرجل فيها من هذه الوقعة»[1]. فذكر ابن كثير أن مجموع ما سقط في تلك الوقعة يزيد على العشرة آلاف. ولشدة ألم المعركة، وآلامها الكثيرة، قيل إنه لما دخل علي على عائشة قالت له صفية امرأة عبد الله أم طلحة الطلحات: «أيْتَم الله منك أولادك كما أيتمت أولادي..»[2].

وانتهت وقعة الجمل بالآلام والأحزان. كما تركت في النفوس كل آثار الانتقام والانقسام. وصعوبة العودة إلى التآلف والتآخي.

---

(١) ابن كثير - ج ٧ ص ١٩٤.

(٢) ابن كثير - ج ٧ ص ١٩٧.

موقعة صفين

كانت موقعة الجمل إذن، مقدمة سيئة لنزاع خطير جرى تأسيسه للأجيال القادمة بين الطائفة الواحدة، وخلافها على الإمارة والسلطة. وكانت كل الفظائع التي ارتكبت في موقعة الجمل، فاتورة أولى لتقويض الدولة الإسلامية، وتفكيك تماسكها من الداخل، عبر المكائد والدسائس لتوسيع دائرة الخلافات إلى اللاعودة، وكذلك تأسيس أحقاد لمعارك أخطر وأدهى في المستقبل.

وبالفعل، هذا ما جرى، إذ لم يمض وقت قصير جداً على لملمة جراح وكوارث وقعة الجمل، حتى بدأت الاستعدادات وتجهيز القوات والجيوش، لمواجهة أكبر وأعنف، في معركة صفين. وكان لا بد لعلي بن أبي طالب، من إزاحة معاوية من

طريقه، كي تتحقق له السيطرة على بلاد الشام. ومعاوية بن أبي سفيان أخذ بدوره يؤلب الناس ويحرضهم على علي بن أبي طالب من على منابر دمشق، معلناً بأن دم عثمان في عنق عليّ وأتباعه. ولا بد من أخذ الثأر وغسل العار. واستطاع معاوية من تجميع أعداد كبيرة، بالإضافة إلى قبائل كثيرة، بالوقوف إلى جانبه، كما نصرته جماعات نصرانية بسبب زواجه من ميسون بنت بحدل الكلبي النصرانية[1].

بالمقابل، واصل علي بن أبي طالب نشاطاته وتحضيراته للقضاء على معاوية، باعتبار أمرته زائفة، لأنها لم تكن من المهاجرين والأنصار. فبعث عليّ بكتاب إلى معاوية يطالبه فيه الدخول في طاعته «والبيعة له أو الإيذان بحرب»، وقال له أيضاً: «إعلم يامعاوية أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا تعقد معهم الأمانة ولا تعرض فيهم الشورى..»[2]. وقد جرى ذلك بعدما فرغ عليّ من وقعة الجمل ليدعوه إلى بيعته. فكتب معاوية إلى عليّ يأمره بالقدوم عليه... فخرج علي من الكوفة عازماً على الدخول إلى الشام... وتهيأ أهل الشام وتأهبوا، وخرجوا نحو الفرات من ناحية صفين.. «بينما سار علي في مائة وخمسين. ألفاً من أهل العراق، وأقبل معاوية في نحو منهم من أهل الشام...»[3].

---

(١) عبد العزيز الدوري - ص٦٠.

(٢) ابن قتيبة - ص ٩٣ - ٩٤.

(٣) ابن كثير - ج ٧ ص ٢٠٩.

واستعد الطرفان للمواجهة. فكان علي بن إبي طالب يحرض الناس على القتال، ويتلو عليهم الآيات القرآنية. وكذلك كان يفعل معاوية. واستطاع جيش عليّ السيطرة على نبع ماء. كان يشرب منه الفريقان ويختلطون بعضهم ببعض، «حتى ظن الناس أن الصلح وشيك»[1].

وأمضى الطرفان طيلة شهر المحرم من سنة ٣٧هـ من دون مجابهة ولا عراك. طمعاً في الصلح وتسوية الأمور، أو عقد هدنة تجنب الطرفين أنهاراً من الدماء. وجرت لأجل ذلك مفاوضات عدة، لم تسفر كلها عن أية نتيجة.

وبدأت الاشتباكات فعلاً في أول صفر. وجال وصال الفريقان، وكانا يقتتلان ثم يتهادنان وقت الصلاة. حتى تحقق النصر ورجحت الكفة لأهل العراق على أهل الشام. فأشار عمرو بن العاص إلى أهل الشام رفع المصاحف فوق الرماح، وقالوا: «هذا بيننا وبينكم، قد فني الناس، فمن للثغور؟ ومن لجهاد المشركين والكفار؟!!»[2].

ولما رفع أهل الشام المصاحف على الرماح، قال علي بن أبي طالب: «عباد الله، أمضوا إلى حقكم وصدقكم وقتال عدوكم، فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن سلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس، ليسوا بأصحاب دين

(١) أبو حنيفة الدينوري ـ الأخبار الطوال ـ ١٦٩.

(٢) ابن كثير ـ ج ٧ ص ٢١٧.

ولا قرآن. . .»[١]. واعتبر الدكتور عبد العزيز سالم «بأن هذه مكيدة دبرها عمرو ومعاوية مقدماً»[٢]. لأنه بذلك، يمكن إحداث انقسام بين أتباع علي بن أبي طالب. وفي رواية عن عمرو بن العاص أنه قال لمعاوية: «إني قد أعددت بحيلتي أمراً أخرته إلى هذا اليوم، فإن قبلوه اختلفوا، وإن ردوه تفرقوا. . . قال معاوية: وما هو؟ قال عمرو: تدعوهم إلى كتاب الله حكماً بينك وبينهم، فإنك بالغ به حاجتك»[٣]. وبهذا التحكيم، يكون عمرو، قد وضع علياً أمام مأزق وحيرة من أمره، ومهما يكون الموقف سلباً أم إيجاباً يكون الموقف لصالح معاوية.

لم تنطلِ الخدعة على علي بن أبي طالب، فحذر أتباعه من هذه المكيدة وهذه المؤامرات التي تستهدفه. لكن علياً لم يوفق في أتباعه، فخيروه بين أمرين؛ «إما طاعته ومواصلة القتال، وإما عصيانه فيفعلون كما شاء لهم أن يفعلوا، فاختاروا التحكيم. .»[٤].

وهنا نشب الخلاف بين رجال علي بن أبي طالب حول مسألة قبول التحكيم أو رفضه. وحصل لمعاوية وعمرو بن العاص، ما ابتغياه من أمر التحكيم.

وصار أمر التحكيم واقعاً، فاختار أهل العراق أبا موسى

---

(١) ابن كثير ـ ج ٧ ص ٢١٨.
(٢) سالم ـ ص ٥٨٨.
(٣) الأخبار الطوال ـ ص ١٨٨.
(٤) ابن قتيبة ـ ص ١٢٣.

الأشعري ممثلاً لهم، رغم اعتراض عليّ عليه. «ورشح لهم ابن عباس، أو الأشتر النخعي، فأبوا إلا أبا موسى الأشعرى..»[1]. وتمت كتابة صحيفة التحكيم التي تضمنت شروط الحكم وموعد الاجتماع في ١٧ من صفر سنة ٣٧هـ. بحضور ممثلي الطرفين: أبو موسى الأشعري ممثلاً عن أهل العراق، وعمرو بن العاص ممثلاً عن أهل الشام.

وكان قد سبق التحكيم، تعب الفريقين من التعارك والقتال، فارتفع الهرج وعلت الأصوات، واختلف الناس فيما بينهم، منهم من نادى بمتابعة القتال، ومنهم من حرَّمه. ورغب أكثر الناس من العراقيين والشاميين إلى المصالحة والمسالمة حقناً لدماء المسلمين. وقد كان من المشاهد المحزنة أن «بارز زياد بن النضر الحارثي، وكان على الخيالة رجلاً، فلما تواقفا، تعارفا، فإذا هما أخوان من أم»[2].!! وذكر علماء التاريخ وغيرهم أن علياً بن أبي طالب بارز في أيام صفين وقاتل، «وقتل خلقاً، حتى ذكر بعضهم أنه قتل خمسمائة»[3]. وذكره أيضاً إبراهيم بن الحسين بن ديزيل.

وتأتي هذه الواقعة وكأنها استجابة لما تنبأه النبي (ص) بقوله: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان، يقتل بينهما

(١) المسعودي ج ٢ ص ٣٩١.

(٢) ابن كثير - ج ٧ ص ٢٠٩.

(٣) ابن كثير - ج ٧ ص ٢١٠.

مقتلة عظيمة، ودعواهما واحدة»[(١)].

وبالعودة إلى أمر التحكيم، فقد ذكر ابن كثير «. . .وتراوض الفريقان بعد مكاتبات ومراجعات». . . وكان التحكيم، وهو أن يحكم كل واحد من الأميرين عليّ ومعاوية ـ رجلاً من جهته. . . فوكل معاوية عمرو بن العاص، ووكل عليّ أبا موسى الأشعري. . . وكتبا بينهما كتاباً: «هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان. . . . واختلف الفريقان أيهما يكون اسمه قبل الآخر. . . فكتب كتابان: كتاب فيه تقديم معاوية على عليّ. . . وكتاب آخر بتقديم عليّ على معاوية. . . وشهد من كل من الطرفين عشرة من الرجال. . . »[(٢)].

وكان من أحد شروط التحكيم في صفين، أن يجتمعوا في شعبان سنة ٣٧ هـ، كل في أربعمائة فارس. وأن يكون على رأس جيش معاوية عمرو بن العاص، وعلى رأس جيش علي أبو موسى الأشعري. والتقوا بدوقة الجندل بأذرح بين الكوفة والشام.

ولما اجتمع الحكمان في الموعد المحدد قيل إنهما قد «. . .اتفقنا على أن يعزلا علياً ومعاوية. ثم يجعلا الأمر شورى بين الناس. . . وجاءَا إلى المجمع الذي فيه الناس، فقال عمرو لأبي موسى: قم فاعلم الناس بما اتفقنا عليه. . . ففعل ابو موسى

---

(١) ابن كثير ـ ج ٧ ص ٢١٩.

(٢) ابن كثير ـ ج ٧ ص ٢٢١.

وقال: إني خلعت علياً ومعاوية... ثم تنحّى... وجاء عمرو فقام مقامه وقال: إني أثبت صاحبي معاوية فإنه ولي عثمان بن عفان...»[1]. بعد ذلك، تلاسن عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري بكلام فيه غلظة. ثم هرب أبو موسى بعدها إلى مكة.

بعد هذه الحادثة التي وقعت على رأس عليّ بن أبي طالب كالصاعقة، فهاجته وأثارت غضبه، وحاول الانتقام ورد الاعتبار. فجهز جيشاً قوامه ثمانية وستون ألفاً ومائتي فارس، وزحف بهم قاصداً الشام. وفي هذا الوقت كانت جماعة من الخوارج الذين خرجوا على عليّ إبان التحكيم في صفين، قد عاثوا فساداً وسفكوا دماءً. فأشار رجال عليّ عليه، أن يبدل خطته ويتحول في غايته، ويبدأ معركته بهؤلاء الخوارج الذين خانوه... ولأنهم ذبحوا عبد الله بن خباب وامرأته وهي حامل[2].... وبعدما يفرغ منهم يعود لمتابعة زحفه نحو الشام، كما قاتل عليّ أيضاً أهل النهروان (الخوارج) كونهم أنكروا عليه قصة التحكيم، واعتبروه مخلوعاً باتفاق عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري.

وقد كان من نتيجة معركة صفين، سقوط عدد كبير من القتلى والجرحى بين الطرفين. فذكروا أنه «قتل من الطرفين أكثر من سبعين ألفاً.... خمسة وأربعون ألفاً من أهل الشام، وخمسة وعشرون ألفاً من أهل العراق»[3]. وذكروا أيضاً أنه «دفن في كل

(١) ابن كثير - ج ٧ ص ٢٢٦.

(٢) ابن كثير - ج ٧ ص ٢٤٩.

(٣) ابن كثير - ج ٧ ص ٢١٩.

قبر خمسون نفساً[1]». واستمرت المعركة بين الطرفين مدة عشرة أيام[2].

بعد انتهاء المعركة، والفراغ من قصة التحكيم، خرج عدد كبير من المسلمين على عليّ، ورجعوا إلى ديارهم. فذكر ابن الأثير أنهم «عادوا وهم أعداء متباغضون. . . يقطعون الطريق بالتشاتم والتضارب بالسياط»[3]. ولما دخل عليّ بن أبي طالب الكوفة، لم يدخل معه الخوارج، ونادوا بشعارهم: «لا حكم إلا لله» وبذلك ظهرت انشقاقية سميت بالخوارج أو المحكمة[4]. وهي الثانية بعد الحركة الانقسامية السبئية، والتي تزعمها عبد الله بن سبأ.

وتضعضع موقف عليّ بعد صدور التحكيم، وتخلخلت صفوفه، وانقسم أهل العراق إلى فريقين. وضعفت النفوس، واشتد ساعد معاوية بالمقابل، وواصل طموحاته وبسط سلطانه وتوسيع دائرة نفوذه. فضم مصر سنة ٣٨ هـ. ثم أرسل جيشاً إلى العراق حتى «شارف دجلة ثم عاد، وذلك سنة ٣٩هـ»[5]. ويذكر ابن كثير: «لما دخلت سنة ٣٩ هـ. جهز معاوية بن أبي سفيان جيوشاً كثيرة. . . معتبراً أن ولايته وقعت الموقع. . . .

---

(١) ابن كثير - ج ٧ ص ٢٢١.

(٢) المسعودي - ج ٢ ص ٣٩٠.

(٣) ابن الأثير - ج ٣ ص ٣٢٢.

(٤) ابن الأثير - ج ٣ ص ٢٣٤.

(٥) اليعقوبي - ج ٢ ص ٣٧٥.

وعلى عليّ طاعته فيما يعتقد. . . ولأن جيوش عليّ من أهل العراق لا تطيعه ولا تأتمر بأمره». . . . حث عليّ الناس فارفضّت عنه. فقال في خطبته: «. . . ياأهل الكوفة. . . . ماذا منيت به منكم، عميّ لا تبصرون، وبُكْمٌ لا تنطقون، وصمٌ لا تسمعون»[1].

وبعد الذي جرى من نتائج بعد معركة صفين، ومن ويلات ومن انقسامات وتفرق، قال كعب بن جميل التغلبي:

اصبحت الأمة في أمر عجب   والملك مجموع غداً لمن غلب
فقلت قولاً صادقاً غير كذب   إن غداً تهلك أعلام العرب [2]

وهكذا، دبت الفوضى، وتقاتل جماعة معاوية وجماعة عليّ في أطراف عديدة ومواقع متعددة، وسقط منهم خلق كثير، واستحل كل طرف دم الآخر، وإن دلّ على شيء، فإنه يدل على الهلكة والإحباط بين الطرفين، وضياع الناس، وفقدان طريق الحق والتيه عن الصواب.

ولم تتوقف الحال عند هذا الحد، بل جرت مشاحنات عديدة وحروب صغيرة هنا وهناك بين جماعة عليّ وجماعة معاوية. وعلى أثرها وفي محاولة لوضع حد لهذا النزاع، تمت بين عليّ ومعاوية مكاتبات لوقف الحرب بينهما، تلخصت، «. . . أن يكون ملك العراق لعليّ ولمعاوية ملك الشام. . . واشترطا أن لا يدخل أحدهما على صاحبه بجيش ولا غارة ولا

(١) ابن كثير ـ ج ٧ ص ٢٥٤.

(٢) محمد الخضري بك ـ الدولة الأموية ـ ص ٣٣٧.

غزوة. . .» وفيما قاله معاوية في أحدى كتاباته لعلي: «. . .أما بعد، فإن الامة قد قتل بعضها بعضاً، فلك العراق ولي الشام. . .»[1].

وساءَت الأحوال مع علي، واضطربت الأمور وتنغّصت عليه حتى، «اضطرب عليه جيشه، وخالفه أهل العراق. . . حتى كره الحياة وتمنى الموت. . . لكثرة الفتن وظهور المحن. . .»[2].

ولما دخلت سنة أربعين من الهجرة، واصل معاوية غرضه، فوجه حملة عسكرية إلى بلاد الحجاز بقيادة بسر بن أبي أرطأة على رأس «ثلاثة آلاف مقاتل، فدخل المدينة ولم يقاتله أحد»[3].

وكان من نتائج حرب صفين وصدور التحكيم، ظهور حدة الانقسامات والانشطارات بين صفوف المسلمين، فتزعزعت الوحدة وتفككت أحوال الدولة، ونشأت الحزبية التى هي من مستلزمات الحياة السياسية وتناقضاتها. وتلا هذه المرحلة بروز عدة أحزاب، اختصرها الدكتور عبد العزيز سالم كما يلي:

- الهاشمية: وهو حزب بني هاشم الذي انتصر لعليّ باعتباره - حسب رأيهم - الخليفة الشرعي. وعرفوا بالشيعة.
- العثمانية: وهو الحزب المطالب بدم عثمان الذي قتل

---

(١) ابن كثير - ج ٧ ص ٢٥٨.

(٢) المصدر السابق - ص ٢٥٨.

(٣) المصدر السابق - ص ٢٥٧.

ظلماً ـ حسب اعتقادهم ـ ثم تحول هذا الحزب إلى الحزب الأموي.

ـ الخوارج: وهو حزب المحكِّمة الذين انكروا على عليّ قبوله بتحكيم الناس[1]. وقالوا بأنه «لا حاكم إلا الله» وطالبوا بالخلافة على أساس ديني، وبأنها حق لكل عربي. ثم انقسموا إلى عدة فرق منهم: الصفرية والنجدية والإباضية والأزارقة.

ـ المرجئة: وهو الحزب الذي نادى بترك الحكم لله يوم الحساب، واعتزلوا الفتنة ولم يخوضوا غمارها. وهم اساس المعتزلة الذين ظهروا في أواخر عصر الدولة الأموية[2].

---

(١) ماجد ـ التاريخ السياسي ـ ج ١ ص ٢٦٦.

(٢) سالم ـ تاريخ الدولة العربية ـ ص ٥٩٤ ـ ٥٩٥.



«لم يتأت الخطر على الامبراطورية الإسلامية من الخارج، ولم يكن تقويض الدولة وتهديد وحدتها ومناعتها مصدره من الخارج أيضاً، وإنما تآكلت بذاتها واغتالت نفسها من الداخل».

منير فارس

مقتل
علي بن أبي طالب

كان من نتائج معركة صفين والتحكيم، أن اتفق ثلاثة أنفار من الخوارج بعد مهاجمة جيش عليّ لهم في النهروان، على قتل كل من: علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، في ليلة واحدة. والأنفار الثلاثة هم: عبد الرحمن بن ملجم المرادي، والنّزال بن عامر، وعبد الله بن مالك الصيداوي[1]. بينما ذكر ابن كثير أن الرجال الثلاثة هم: عبد الرحمن بن عمرو المعروف بابن ملجم الحميري، والكندي حليف بني حنيفة من كندة المصري، والبَرك بن عبد الله التميمي، وعمرو بن بكر التميمي أيضاً[2].

---

(١) سالم - ص ٦٠٥.

(٢) ابن كثير - ج ٧ ص ٢٦١.

اجتمع هؤلاء الثلاثة، فتذاكروا قتل عليّ إخوانهم من أهل النهروان... وصمموا على أخذ الثأر، فقال ابن ملجم: أما أنا فأكفيكم علي بن أبي طالب. وقال البرك: وأنا أكفيكم معاوية. وقال عمرو: أنا أكفيكم عمرو بن العاص... فأخذوا أسيافهم فسمُّوها.... فسار ابن ملجم إلى الكوفة فدخلها.... وبينا هو جالس في قوم.... إذ أقبلت امرأة يقال لها فطام بنت الشجنة.... قتل عليّ أباها وأخاها يوم النهروان... وكانت فائقة الجمال... فخطبها ابن ملجم لنفسه. فاشترطت عليه ثلاثة آلاف دينار وخادماً وقينة... وقتل علي بن أبي طالب.... فتزوجها ودخل بها.... ودخل شهر رمضان ليلة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت. وهذه الليلة التي تواعدوا فيها أن يثأروا من علي ومعاوية وعمرو بن العاص... وجلس ابن ملجم مع وردان وشبيب مقابل السدة التي يخرج منها عليّ.... فثار إليه شبيب بالسيف فضربه.... ثم ضربه ابن ملجم بالسيف على قرنه فسال دمه... وهرب وردان ثم قتل... ونجا شبيب ومسك ابن ملجم... فقال له عليّ: لا أراك إلا مقتولاً... فإن مت فاقتلوه... وكتب عليّ وصيته قبل احتضاره...»[١].

وأما صاحب معاوية، فضربه بالسيف في وركه... فشرب شربة برأ من ألمه وجراحه... ثم قتل البرك. وأما صاحب عمرو بن العاص، فصادف تلك الليلة أن أصابه مغص شديد فبات في منزله. وأخطأ عمرو بن بكر، فقتل رجلاً آخر يدعى خارجة بن

---

(١) ابن كثير - ج ٧ ص ٢٦١.

أبي حبيبة. ثم قتل خارجة بعد ذلك...

وذكر أن علياً بن أبي طالب، دفن بدار الأمارة بالكوفة، عن ثلاث وستين سنة. وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر وذلك في ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ. وقيل إن ابن ملجم، اعتقل ثم «قطعت أطرافه وأذناه وأنفه فلسانه، وسملت عيناه ثم قتل بعد ذلك..»[١].

وقبل وفاة عليّ، قالوا له وهو يحتضر: «ألا تستخلف يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا، ولكن أودعكم كما ترككم رسول الله - يعني بغير استخلاف...»[٢].

وبعد دفن عليّ بن أبي طالب، اجتمع الناس في المسجد، وبايعوا ابنه الحسن «متحفظين»[٣] وكان الحسن قد اشترط على المجتمعين أن يبايعوه على: «مسالمة من يسالم، ومحاربة من يحارب... وكانوا يميلون إلى الحسين... لكن الحسين أبى أن يبايعه القوم في حياة أخيه..»[٤].

أما عن «معاوية بن أبي سفيان، فقد خلت الساحة له بعد وفاة عليّ، وبويع بالخلافة في بيت المقدس، ودعي بأمير المؤمنين..»[٥]. وانتهز الفرصة، وانهيار الحال بين القوم، فجهز

---

(١) ابن قتيبة - ص ١٥١.

(٢) ابن كثير - ج ٨ ص ١٣.

(٣) سالم - ص ٦٠٦.

(٤) ابن الأثير - ج ٣ ص ٤٠٢.

(٥) ابن الأثير ج ٣ ص ٤٠٣.

حملة إلى العراق بجيوش كثيفة، ولما بلغها، لم يجد الحسن بن علي بداً من التردد في المواجهة، بسبب الملل بين جماعته، وأخذهم برأي الخوارج الذين قالوا: «كفر الحسن كما كفر أبوه من قبل». وهاج الناس على الحسن، واعتدوا عليه، وطعنه أحدهم في فخذه... وعولج حتى برأ، ثم كتب إلى معاوية كتاباً يتنازل عن الخلافة بشروط. ومن هذه الشروط:

- أن يعطيه معاوية ما في بيت مال الكوفة وقدره خمسة آلاف ألف.
- أن يحمل إلى الحسين كل عام ألفي ألف.
- أن يترك له خراج دار أبجرد من فارس.
- أن يكف عن سب أبيه.

وكان جواب معاوية الإجابة لشروطه، لكنه أخل بالشرطين الأخيرين[1].

وذكر ابن قتيبة أن الحسن أبرم اتفاقاً مع معاوية أيضاً على أن تكون له الإمارة بعد وفاة معاوية[2].

وبالمحصلة تنازل الحسن بن علي، عن الخلافة لمعاوية في ٢٥ ربيع الأول سنة ٤١هـ. والتقى معاوية بالحسن. ثم رحل الحسن إلى المدينة، وعاد معاوية إلى دمشق. «وسمي هذا العام، بعام الجماعة. لاجتماع الأمة على خليفة واحد»[3].

---

(١) ابن الأثير - ج ٣ ص ٤٠٥.

(٢) السيوطي - ١٨٢.

(٣) ابن قتيبة - ص ١٥٤.

ومن الأخبار أيضاً، أنه بعد تسلم الحسن الخلافة سنة ٤٠ هـ. ألح عليه قيس بن سعد لقتال أهل الشام، فجمع إثني عشر الفاً، وسار بهم قاصداً بلاد الشام لمقاتلة معاوية. وبينما هم معسكرون في المدائن صرخ في الناس صارخ: ألا إن قيس بن سعد بن عبادة قد قتل»... فثار الناس وتفرقوا وسرقوا بعضهم بعضاً... فكرههم الحسن وطعنه أحدهم فجرحه... «فكتب عند ذلك إلى معاوية يراوضه على الصلح... فاصطلحا... وتنازل الحسن عن الإمرة... ولم يقبل الحسين بذلك..»[1].

وبسبب تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، حدث أنه لما قدم الحسن بن عليّ على الكوفة، قال له رجل يقال له أبو عامر سعيد بن النتل. «السلام عليك يا مذل المؤمنين. فقال: لا تقل هذا ياعامر! لست بمذل المؤمنين، ولكني كرهت أن أقتلهم على الملك»[2].

وموقف الحسن هذا، إنما يدل على الوداعة وحسن السيرة ونبذ العنف، وهو بالفعل في هذا الموقف، يكون في منزلة الإنسان المدرك الواعي لجمع الكلمة، والكاره للسلطة والنفوذ، إذا كانت تفرق الجماعة وتهد النفوس. وهو الباغض لسفك الدماء. وهو ما نصح به والده يوم وقعة صفين. وكان الحسن بهذا الموقف، يبتغي إخماد الفتنة الكبرى ووأد آثارها، ولمنع المزيد من المعارك وسفك الدماء. وهو بالفعل، موقف يعبر عن

(١) ابن كثير ـ ج ٨ ص ١٤.
(٢) ابن كثير ج ٨ ص ١٦.

نظرة واقعية لمجريات الأمور وتطور الأحداث الساخنة في ذلك الزمان. وقد عبر عن ذلك بقوله: «أيها الناس إن الله هدى أولكم بأولنا، وحقن دماءَكم بآخرنا»[1].

ويرى آخرون، بأن موقف الحسن بن عليّ، قد يكون يعبر عن هروب من المسؤولية، وضعف في تحمل تبعاتها. ولذلك فقد يكون موقفه نابعاً من عدم الجدية، وتخلياً عن المسؤولية وضعفاً في مواجهة المواقف الصعبة، والفرار من المواجهة. هو في حقيقة الأمر تسليم بالأمر الواقع، والموافقة عليه بدل إدانته والاعتراض عليه والعمل على إسقاطه والتخلص منه، خصوصاً إذا كان ذلك يلحق الضرر بشريحة واسعة من البشر، يخالفون الأوضاع السائدة والشاذة، ويحتجون عليها وعلى نتائجها الظالمة.

وفي موقع آخر، فإن موقف الحسن بن علي، قد يكون جاء نتيجة ما شهده من أمور الخلافة، والصراع عليها، ونتيجة ما رآه من ويلات النزاع والتنافس على الخلافة، وما تلاها من مجازر وسفك دماء ذهب ضحيتها أعداد هائلة من المسلمين وليس من أعداء الإسلام. !! لذلك، فإن الحسن بن علي كان زاهداً في الخلافة[2] فرفض إهراق الدماء من أجلها، لعله في ذلك ـ حسب قناعته ـ يكون قد قضى على الفتنة بين المسلمين، وحقق وحدتهم بتناسي خلافاتهم من أجل السلطة.

---

(١) ابن قتيبة ـ ص ١٥٤.

(٢) سالم ـ ص ٦٠٨.

وهناك أمر آخر، ربما يكون قد لعب دوراً هاماً في إيصال الحسن بن علي إلى هذه المواقف، وهذه القناعات. وهو موقف أهل الكوفة، الذي طغى عليه التردد وعدم الحسم. ثم أنهم كانوا أكثر من مرة يساندون ثم يتألبون ويتخلون عن مواقفهم بسرعة وبسهولة. والذي فعلوه بأبيه في صفين ما زال ماثلاً أمامه. فهم الذين خذلوه وانقلبوا عليه. فخاف الحسن أن يلقى منهم ما لاقاه والده منهم لأنهم في نظره، أهل تفرقة، وليسوا أهل مؤازرة. وهو الذي قال في خطبة لأهل العراق: «يا أهل العراق، إني سخي بنفسي عنكم ثلاث: قتلكم أبي، وطعنكم إياي، وانتهابكم متاعي»[1]. وطبيعي أن يلجأ الحسن إلى هذه الخيارات، وتدفعه الأمور إلى التنازل عن الخلافة لمعاوية. خصوصاً وهو الذي قال في ذلك: «كرهت الدنيا، ورأيت أهل الكوفة قوماً لا يثق بهم أحد أبداً إلا غُلِبْ. ليس أحد منهم يوافق آخر في رأي ولا هوى، مختلفين لا نية لهم في خير ولا شر... وهي أسرع البلاد خراباً»[2].

وفي هذا الموضوع، يعتقد بعض الرواة، بأن عزوف الحسن عن الخلافة وتخليه عنها، إنما يعود لأن الحسن لم يكن مهيأ بعد في حينه لمثل هذا الأمر. وذلك «لتفضيله حياة اللهو السهلة... وزواجه من ما يقرب من سبعين امرأة»[3]. ويعتقد أن

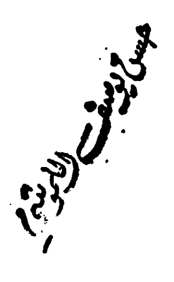
(١) الطبري - ج ٦ ص ٩٢.

(٢) ابن الأثير - ج ٣ ص ٤٠٧.

(٣) السيوطي - ص ١٧٨ - وماجد - ج ٢ ص ٢١.

زواجه من هذا العدد فيه شك. بينما يرى الدكتور عبد العزيز سالم، بأن الحسن «لم يتخل عن الخلافة لرغبته في الحياة السهلة... فهو يكره الفتن والقتال... لكنه لم يتردد في حمل السلاح والتعرض للموت... عندما دافع عن عثمان بن عفان وجرح وتلطخ وجهه بالدماء...»[1].

ولذلك، بعد تنازل الحسن عن الخلافة، صار معاوية خليفة المسلمين. وسعى لحصرها في البيت الأموي، وجعلها وراثية. ثم خرج عن تقاليد الخلافة الراشدة، وحولها إلى مصطنع آخر، ومصطلح جديد وهو الملك.



(١) سالم - ص ٦١٠.

«إذا خالف أحد أفراد
الشعب النظام أو الحاكم،
قتله الحاكم أو سجنه. بينما
إذا خالف الحاكم إرادة
الشعب وظلمه، فهل يقتله
الله أو يعاقبه؟».

منير فارس



اختصار ما كان
من أمر الخلافة والفتوحات
بعد موت النبي (ص)

بعد موت النبي (ص) سنة ١١ هـ. واستخلاف أبي بكر الصديق والذي لم تدم خلافته طويلاً، جاء الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب، والذي تميز عهده، بعهد الفتوحات الإسلامية الكبرى، وبناء الدولة الإسلامية المترامية الأرجاء في شتى الاتجاهات والنواحي.

وفي السنة الأولى لخلافة عمر بن الخطاب (٦٣٤م) حصلت أول معركة تاريخية في حياة العرب والإسلام، هي معركة القادسية، التي شكلت مفصلاً وانعطافاً حاسماً في حياة العرب وتاريخ الإسلام. ففي هذه المعركة، انتصر العرب على

الفرس، وسيطروا على بلاد ما بين النهرين.

ثم تلا ذلك فتح بلاد الشام والعراق. وكذلك بلغوا حتى حدود شمالي افريقيا وجزيرة قبرص. وامتدت سيطرتهم كذلك على بلاد واسعة من آسيا وافريقيا وأوروبا. واستمرت معارك الفتح الإسلامي زهاء سبعين عاماً وأكثر.

واللافت للنظر هنا، إن سياسة الفاتحين المسلمين قد سمحت لسكان المناطق التي احتلوها، بالإبقاء على دياناتهم ومعتقداتهم، على أن يكون ذلك مشروطاً بدفع «جزية» أو ضريبة للفاتحين، مع الإبقاء على حريتهم، وممارسة طقوسهم الدينية.

وقد حصلت بعد عمليات الفتح الإسلامي صراعات وخلافات وتمزيق للدولة الإسلامية. لكن الفتوحات ما كانت لتحصل، لولا عدة عوامل سمحت للمسلمين والعرب تحقيق النصر على الروم والفرس: كان أولها عامل الحماسة والوحدة بين الشعوب العربية المتلهفة إلى إثبات الوجود، وإثبات الشخصية الجديدة الطالعة من رمال الصحراء وأشكال البداوة والجاهلية. وثانياً عامل الانقسامات والحروب الداخلية التي كانت سائدة بين الفرس والروم على السيطرة والنفوذ، مما أضعفهما، وشتت قدراتهما العسكرية والقتالية، وفسَّخ وحدتهما الداخلية في مواجهة العرب والمسلمين الممتلئين بالفتوة والأمل لتحقيق الهدف ببناء الدولة الإسلامية الواسعة.

كانت معنويات المسلمين والعرب عموماً إذاً، مرتفعة جداً وبوتائر عالية. بينما كانت معنويات الجيوش البيزنطية والفرس،

ضعيفة ومنهارة، وفاقدة الثقة بقيادتها وبقسوة سلطتها، وجور ظلمها، فلم يكن أمام المقاتل الفارسي والبيزنطي، إلا أن يتأثر بدوافع الانعتاق والخلاص، وبنوازع التراجع وقلة الحماسة، وكذلك تدني درجة الفروسية والبطولة في مواجهة المقاتل العربي المفعم بالحماسة والرجولة.

وقد تعامل العرب بعامل التردد في استقبال المنخرطين تحت لواء الإسلام في البداية، ولم يشجعوا هذه الفكرة، لمدى تأثيرها على مستوى واردات «بيت المال» من جبايات الضرائب والجزية، ذلك لأن كل أجنبي كان يعتنق الإسلام أو يدخل في دين محمد، يعفى من الجزية. فعلى سبيل المثال؛ كان العرب المسلمون في عهد عمر بن الخطاب من مصر لوحدها يجنون أربعة عشر مليون دينار ذهبي، ومن العراق مئة مليون درهم فضي. ولذلك كان كثرة الداخلين في الإسلام يقلل من موارد «بيت المال»[1].

وقد كان الدافع الاقتصادي، من العوامل الهامة في دخول عدد كبير من «أهل الذمة» في الإسلام. لإعفائهم من الجزية. مما يدل على أن كثيرين دخلوا في الإسلام واعتنقوا الدين الإسلامي بسبب العامل الاقتصادي، ولم يكن عن قناعة هؤلاء بالرسالة الإسلامية، بقدر ما هو تهرب وفرار من دفع الجزية والخلاص منها. «وأهل الذمة» هم المسيحيون واليهود من أهل الكتاب، كما وصفهم القرآن الكريم، أي من نزل عليهم التوراة والإنجيل.

---

(١) البلاذري - فتوح البلدان - ج ٢ ص ٢٨٠.

لم يركز المسلمون في فتوحاتهم على انتصار فكرهم الديني الجديد، وعلى تجسيد ممارساتهم لتثبيت وترسيخ تعاليمهم الجديدة بين الشعوب والبلدان التي فتحوها، وإنما لجأوا ألى التفكير الاقتصادي البحت، الذي كان يعبر عن أهم الأهداف لتنشيط الدولة وتمتين مرتكزاتها المالية، بتعزيز مواردها ودخلها بالمال، من المناطق المفتوحة. فجاء الموضوع الاقتصادي والمالي طاغياً على ما عداه من الأهداف الدينية والسياسية.

وفي هذا الموضوع يقول الدكتور حسين مروة: «... العامل الديني ليس هو العامل الحاسم بين العوامل الدافعة لحركة الفتح العربي.... بل يبدو أن للعوامل الاجتماعية دورها المؤثر... في خروج العرب من محيط جزيرتهم إلى المحيط الفسيح...»[1].

ولهذا السبب، رفع العرب الفاتحون عدة شعارات في عملية فتوح البلدان، منها: «لا حرب إلاّ ضد الذين يرفضون الصلح». وجاء ذلك ملبياً للآية الكريمة: ﴿... **وقاتلوا الذين يقاتلونكم... ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**﴾[2].

واعتمدوا أيضاً على شعار «لا إكراه في الدين». ولما قويت شوكة المسلمين وظفروا، طرحوا شعاراً آخر وتعاملوا مع الشعوب بشعار متقدم حسب الآية الكريمة، بقوله تعالى: ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله...**﴾[3].

(١) مروة ـ النزعات المادية ـ ج ١ ص ٤١٩.

(٢) البقرة ـ ١٩٠.

(٣) الأنفال ـ ٦١.

وما نستنتجه، هو أن الخليفة عمر بن الخطاب، واستناداً إلى السياسة التي اعتمدها في الفتح، والنظام الذي تعامل به، وسمي «نظام عمر»، مستلهماً ذلك من توجيهاته واجتهاداته وتدابيره، وأيضاً من سلوكه كحاكم في تثبيت اسس دعائم الدولة القوية. وهو الذي أسس فكرة إنشاء الديوان في الإسلام.

لكن ذلك، لا يطمس بعض السلبيات التي حصلت في موضوع توزيع الغنائم، وتنظيم عمليات الفيء والأنفال. فكان تخصيص القادة والمقربين بالمال، وتميزهم عن غيرهم، قد أثار مشاعر الفروقات الاجتماعية والطبقية بين الناس. وكذلك ميله (الخليفة عمر) إلى تفضيل العنصر العربي على غيره بعصبية ملحوظة، خصوصاً أنه كان لا يبيح لغير المسلمين أن يكونوا منخرطين في الجيش العربي.

وكان الخليفة عمر بن الخطاب، قد مال إلى حركة تطبيق للشرائع، بما يتناسب مع واقع المشكلات الجديدة التي فرضتها التطورات والحياة السياسية الجديدة. فاجتهد في أمور كثيرة. وألغى تشريعاً هنا، وعدَّل تشريعاً هناك بشيء من المرونة، استجابة للمتغيرات الجذرية التي حصلت على مستوى الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

وبالرغم من كل ما بناه عمر بن الخطاب، وبذله وأسسه في جهده في بناء الدولة، فلم يكن الجانب الاجتماعي والاقتصادي في تناول الخلفاء وفي أسس اهتماماتهم الجدية. إذ إن عمق الفوارق الاجتماعية بين العرب وشعوب الدول المفتوحة، وحجم

الضرائب وقسوتها، وعدم تحقيق الكفاية والعدل لجميع الناس من المنظور السياسي ـ الاجتماعي دون تفرقة ودون عصبية؛ أدى كل ذلك إلى احتقان كبير، وضغط أكبر، برز في عهد الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان. نتج عنه تفجيرات خطيرة، وثورات متعددة، كانت أصداؤها وكوارثها من أسوأ النتائج السلبية على مسار الدولة الإسلامية منذ ذلك الوقت وإلى اليوم. ومازالت آثارها تتفاعل على جميع المستويات معلنة بدء العد العكسي في شروط بناء الدولة العربية القوية.

ولم تكن الثورات والأحداث الدامية التي حصلت تحت عدة ذرائع، إلا وجهاً من أوجه التمرد والنزاع على السلطة والإرث، وعلى الزعامة والحق الإلهي في امتلاك السلطة وإدارتها عن طريق الإرث العائلي أو غيره.

وكان للمال والثراء والمكاسب دور كبير في زعزعة الدولة الإسلامية، والالتهاء بها والركض خلفها، حطَّ من قيمة الرجال ومن هيبتهم. ونوَّه طه حسين إلى هذا الأمر فقال: «ألاحظ ان جماعة من أصحاب النبي ممن حسن بلاؤهم في الإسلام حتى بشَّرهم النبي بالجنة، امتحنوا بالسلطان الضخم العظيم وبالثراء الواسع العريض، ففسدت بينهم الأمور، وقاتل بعضهم بعضاً، وساء ظن بعضهم ببعض إلى أبعد ما يكون سوء ظن الناس بالناس»(١).

وكان نتيجة ذلك، أن انقسم بنو هاشم وبنو أمية إلى طرفين

(١) طه حسين ـ عثمان ـ ص٤٠ .

متنازعين على أحقية الزعامة والإرث. فقد تزعم بني أمية عثمان بن عفان، وتزعم بني هاشم علي بن أبي طالب. وبدأت الانشطارات والانقسامات. تخللها سفك الدماء، ليس لأجل رفع راية الإسلام والدين الإسلامي. بقدر ما كان ذلك تصفية لحسابات قديمة وضيقة، وصراعاً على موروث يعتبره كل طرف من حقه ونصيبه.

ففي الوقت الذي كان فيه علي بن أبي طالب يخطط من أجل استعادة حقه المسلوب بالخلافة، وانتزاع السلطة من الذين حرموه أياها، جاء عثمان بن عفان، وبدأ بحملة تمشيط واسعة في صفوف القادة والأمراء والولاة في الأمصار. وأخذ يعزل كل من لا يثق به، وليس من أتباعه وأقربائه. وينصب ولاة من أهل البيت ومن صلة القرابة والنسب والمؤتمنين عليه. فأثار ذلك غضب علي بن أبي طالب، واعتبر خلافة عثمان باطلة، ولا تعدو كونها مسرحية أخرى لانتزاع الخلافة منه، والتي يعتبرها أنها تخصه دون غيره «بالحق الإلهي» الذي يعتقده.

وأخذ عثمان يتمادى في سياسة الحكم، وعزل كل من له صلة بعلي بن أبي طالب، فأنشأ حكماً شبه اقطاعي، مما دفع بأسباب التفجير أن تتجمع وتتكثف في برميل بارود، لا أحد يعلم متى ينفجر.

وقد عزا الدكتور عبد العزيز سالم، سبب حصول الفتنة، وبروزالخلافات العميقة بين بني أمية وبني هاشم، إلى عدة أمور نذكر منها سببين وجيهين:

ـ **الأول**: اختياره (عثمان) لأقاربه في الإمارة وتنعيمهم، وخلع القدامى عن الأمصار، وظلم الناس.

ـ **الثاني**: إحساس المسلمين في الأمصار بأن عثمان، انتزع حق عليّ في الخلافة، وبأن نظام الشورى سلاح قصد به إقصاء علي من الخلافة[1].

وحصلت «الفتنة الكبرى» أو ما سمي «بفتنة عثمان»، نظراً لتمادي أقربائه الحاكمين بسوء المعاملة واغتصاب الأرزاق. وجاء المتضررون يشكون إلى عثمان، يطالبونه بالاعتزال من منصب الخلافة، لأنه برأيهم المخرج الوحيد لحل جميع الخلافات والنزاعات الدائرة بين المسلمين. وهذا ما دفع بالخليفة عثمان إلى فقدان السيطرة على الأمصار، بعدما رفض الطلب. فلجأ أهل الأمصار إلى التمرد والعصيان، وإعلان الثورة، ومحاصرة منزل عثمان (دار الخلافة). وانتهى الحصار بقتل الخليفة عثمان داخل داره مع عدد من أفراد عائلته. فكانت الشرارة التي أنتجت مذابح لاحقة بين صفوف المسلمين.

لقد مارس عثمان بن عفان سياسة استئثارية بالحكم والعبث بأموال الدولة والأمصار. فذكر عن عثمان أنه «منح ابنته من «بيت المال» عند زواجها ٦٠٠ ألف درهم كلها من أموال الجزية والخراج، أي من جهد الكادحين..»[2].

لم يستطع أحد وقف التدهور، واستفحال حالات الحقد

(١) سالم ـ ص ٥٥٣ ـ ٥٥٧.

(٢) مروة ـ ج ١ ص ٤٣٨.

والكراهية، واقتراب ساعة المجزرة ومسلسل المذابح. ولم يعِ أحد ما ستجره من ويلات على الجميع. وفي ذلك يقول الدكتور مروة «. . .بالرغم من أن جماعة من الأحزاب المناوئة لعلي بن أبي طالب، ومنهم عائشة بنت أبي بكر وطلحة والزبير، كانوا من المحرضين على قتل الخليفة عثمان، لتفضيله بني أمية عليهم في المناصب الكبرى، وبالرغم من أن علياً بن أبي طالب قد بعث بولديه الحسن والحسين إلى دار عثمان للدفاع عنه، لأنه ـ أي علي ـ كان يدرك ما سينشأ عن مقتله من محنة للإسلام، باستغلال ذوي المصالح والمطامع مثل هذا الحادث لإثارة الفتن. بالرغم من ذلك كله، نجد أولئك الجماعة أنفسهم الذين شاركوا في التحريض على قتل عثمان ينقلبون فجأة فور مقتله إلى مطالبين بدمه، داعين إلى الأخذ بثأره، متهمين علياً بن أبي طالب نفسه بالتحريض على قتله، وذلك خشية أن تتعرض له في حكم عثمان وبني أمية»[١].

واختلطت الأمور هنا عند العديد من المفكرين، فمنهم من انحاز إلى عثمان، ومنهم من جانَبَ علياً بن أبي طالب في حقه دون تبرئته كلياً، ومنهم من وقف ضد الطرفين، وأخذ موقفاً محايداً. لكن عرض الأحداث والوقائع التاريخية من أكثر من مصدر، يوصلنا إلى الاستنتاج الصحيح والسليم، بعيداً عن التحيز. وذلك حرصاً على الأمانة في نقل الأحداث، وتجنباً للوقوع في شرك المفاضلة مع طرف ضد آخر. وبما يؤدي إلى

(١) مروة ـ ج ١ ص ٤٣٨.

طمس الحقائق التاريخية وعواصفها الملتهبة في حينه في الصراع على السلطة. ولهذا، فإن مجريات الأحداث، وموضوعية التطورات الاجتماعية والاقتصادية، وكذلك التفاعلات السياسية وتفجرها جرت قياساً للأهواء والمصالح والامتيازات الشخصية والطبقية، وتجاذبها بين تيارات ومراكز القوى المسيطرة وأصحاب النفوذ في ذلك الوقت.

وفي هذا السياق، ولدى مقتل عثمان، استنفر فريق من المسلمين بتحريض عائشة ومن حولها، لما تمثله من موقع بين نفوس المسلمين، فيقول مروة: «. . .استغل هؤلاء مكانة عائشة في نفوس المسلمين بوصفها زوج النبي وبنت الخليفة أبي بكر، واستغلوا ما كان عند عائشة من أحقاد قديمة تضمرها نحو علي. . .»[1]. لكن مروة هنا، لم يعرض ـ للأمانة وعدم الإنحياز ـ ما كان يضمره علي بن أبي طالب من انتهاز الفرص، واصطياد الوقت المناسب لمصادرة ما يعتبره من حقه الإلهي. وحسب ما ذكره مروه نفسه، ألا وهو الطمع بالسلطة واعتبارها من حقه ومن نصيبه دون غيره، لعلاقته النسبية بالنبي.

لكن الأمر لو أخذناه من الزاوية الدينية، فإن ما جرى من قتل وسفك دماء، هو منافٍ للشرع الإسلامي، إزاء المقولة التي تقول «القاتل والمقتول في النار، لأن المسلم أخو المسلم. ولا يجوز أبداً لمسلم أن يقتل أخاه المسلم. . . وبعدما خرجت الأمور من أيدي الجميع. جرت حروب وسقط مئات الآلاف من

(١) مروة ـ ج ١ ص ٤٣٩.

الضحايا بين المسلمين.

ومن اللافت أيضاً، بأن عقلية ووضعية المجتمع الإسلامي، خلال مرحلة خلافة علي بن أبي طالب، تختلف كثيراً عما كانت عليه الحالة الاجتماعية والعقلية عند المسلمين خلال بداية خلافة من سبقوه من الخلفاء الراشدين. لأن أموراً كثيرة تغيرت، ومفاهيم كثيرة تبدلت، وأفكاراً متنوعة نشأت، ومدارس تشريعية وفقهية وعقلية برزت واستجدت، ففرضت علاقات جديدة، وعقلية جديدة، كان لزاماً عليها التعاطي مع التطورات من منظور مختلف وتصور مغاير.

وبالرغم من هذه المرحلة الحافلة بالتطورات، لم يتكوّن خلالها خط سياسي واضح، أو وحدة تفكير حول نوع الحكم المراد اعتماده، كي يتوحد عليه سلوكهم وفهمهم، كما لم تحصل خلافة أحد من الخلفاء إلا بعد نزاع، وبعد أن تركت خلافاً عميقاً ظل يتراكم تحت الرماد لحين انفجاره، ونتج عنها أيضاً «قلوب ملآنة» ظلت تعمل جاهدة للحظة الانتقام ورد الاعتبار. فوصف الخلاف، وطريقة التعيين، بما كان سائداً وسارياً عند عادات العرب في الجاهلية، واستمراراً لها، إنما بقالب ديني.

والمهم، أنه بعدما خلت الساحة لعلي بن أبي طالب بعد مقتل عثمان، كانت أول خطوة فعلها، أن عزل معاوية عن إمارة دمشق، وخلعه منها دون مراعاة لأية اعتبارات أو ظروف، وعين ولاة جدداً للأمصار، وعزل آخرين. فاشتعلت بهذه الخطوة، نار

الفتنة بين جيش عليّ في العراق، وجيش معاوية في الشام. فكانت حرب «صفين» سنة ٦٥٧م بعد عامين من مقتل عثمان. ومن هذه الحرب، ومن مسألة التحكيم التي جرت، خرجت فرقة تدعى «الخوارج» معترضة على هذه السياسة التحكيمية والطريقة الخاطئة في تنفيذها. وكان الانقسام والوقوع في فخ الخدعة المدبرة من قبل عمرو بن العاص بخلع عليّ وتنصيب معاوية خليفة على المسلمين.

حتى أن الاقتراح الذي تقدم به معاوية بالعودة إلى القرآن، ليكون حكماً بين المتخاصمين على السلطة، قد سقط ولم يتبناه أحد، وجرى تجاوزه بسبب أغراضهم السياسية، وإسقاطهم من فكرهم الهمّ الديني ومصير الدولة الإسلامية.

وانتهى الصراع بين بني أمية وبني هاشم على السلطة، بمقتل علي بن أبي طالب في مسجد الكوفة، على يد أحد الخوارج هو عبد الرحمن بن ملجم. وبوفاة علي بن أبي طالب تنتهي مرحلة أو عهد الخلفاء الراشدين الأربعة، وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وذلك سنة ٦٦١م.

وقد جاءَت خلافة كل واحد من الخلفاء الراشدين بطريقة مختلفة كل واحدة عن الأخرى، بحسب المصالح والأهواء الشخصية. أي لم يعتمد قانون واضح في طريقة الاستخلاف، يقتدي به المسلمون في مسألة الحكم وتولي الخلافة. فوقع الخلفاء والفقهاء وكل المسلمين في حيرة وارتباك، نتج عنه الفوضى والاستئثار وعدم الثبات والاستقرار.

ومرد ذلك يعود إلى إغلاق باب الاجتهاد وتعطيل مبدأ القياس. مما أدخل الشريعة الإسلامية بكل سننها وأحكامها في برَّاد تجمد فيه النص، فتوقف عن الحركة وتراجع عن التفاعل مع العصر.

والشريعة كما هو معروف مجموعة سنن وأحكام شرَّعها الله لعباده لتنظيم العلاقات فيما بين المسلمين ومع الآخرين في إدارة شؤون الحياة العامة. بينما الشريعة تعني في اللغة مورد الماء.

ونتساءل: هل صحيح ان عهد الخلفاء والصحابة الذي يتباهى به المسلمون، كان أقصى ما يطمح إليه البشر؟ وهل الاعتماد على أهل النقل واستنساخ الماضي، وإعادة تركيب المجتمعات على منواله، هو الطريق الذي يوصلنا إلى خلاص مجتمعاتنا من تخلفها؟ وهل استبعاد أهل العقل وتسفيههم وتكفيرهم، بسبب التعرض لأعمال الخلفاء، حتى ولو اعتمدوا على الوقائع التاريخية، هو سمة من سمات الديموقراطية في النهج الديني؟!

انتهى عهد الخلفاء الراشدين، لكن لم ينته معهم الصراع، لأنهم خلفوا وراءَهم جملة من القضايا المشتعلة والملتهبة والمختَلف عليها، وجملة أخرى من الانقسامات الحادة والأحقاد والقتل وسفك الدماء، ما لا يستطيع أحد أن ينال من رأب الصدع المستشري في جسم الدولة، والمستفحل بين الناس. كما برزت عدة تكتلات أبرزها:

- الشيعة

ـ الأمويون

ـ والخوارج.

كما نشير هنا إلى أنه ظهرت عدة تكتلات ومجموعات لم يكتب لها الاستمرار، وما لبثت أن انطفأت، نظراً لضعف نسبة تأثيرها، ولعدم أهمية حركتها. وإنّ احتدام الصراع بين تلك الفرق دفع بحركة الجدل في المواضيع المختلف عليها، لتكون مادة نشيطة أغنت حركة الفكر، ووضعت كثيراً من الأمور الشرعية والعقائدية في شؤون الحياة، موضع تطور وتفاعل أغنيا دورة الحياة العامة فيما بعد.

وتجرنا مسألة الاستنتاج هنا، إلى هذه المرحلة الدقيقة، بأنه قد ظهرت تغيرات كبرى على المستوى الإسلامي، وعلى مستوى العلاقة بين المسلمين والشعوب الأخرى، ونشوء حركة فكرية جديدة من خلالها، تمثلت بوجود طبقة ارستقراطية حاكمة، عملت لخلق عقلية جديدة متفاعلة مع حركة الفكر الناشطة في ذلك الوقت، داخل المنطقة العربية وخارجها.

باختصار، إن الإسلام قدم للعرب نصاً جديداً، هو النص القرآني، بصورة فنية رائعة في تعبيرها الجمالي، وعلى درجة عالية من البلاغة والروعة والصفاء. بعدما كانوا يفاخرون بقصائدهم الشعرية وملاحمها ومعلقاتها المتنوعة، فكان لهذا النص القرآني «صفته التاريخية أي الاستمرارية التطورية لإحدى الظاهرات الموجودة فعلاً في الحياة الجاهلية»[١].

---

(١) مروة ـ ج ١ ص ٤٥٧.

فالمعتقدات الإيمانية الدينية عند المسلمين، لم تأت من خارج الأوضاع، بل إنها جاءَت مكملة لما تضمنته الرسالات السماوية الأخرى. ولهذا فإن ما بشر به الإسلام من معتقدات كانت «. . .تتضمن كثيراً من العقائد التي كانت تتضمنها اليهودية والمسيحية والحنيفية عن قضية الخلق والكون والخالق والإله الواحد وحدوث العالم ووجود العالم الأخروي والقيامة. . .»[1].

والمهم، ونتيجة الأحداث العاصفة، فقد انتقلت الخلافة من العراق إلى دمشق، بعدما كانت في مكة والمدينة، واعتبر معاوية مؤسس الدولة الأموية. لكن الصراع ظلَّ مستمراً على أشده. فاستمال السكان الأصليين من المسيحيين وغيرهم، وكذلك عدداً من القبائل العربية، وهذه دعمت سياسته وحققت له مطامحه. . واستمرت الدولة زهاء أو قرابة تسعة وثمانين عاماً.

وكان سبق لمعاوية أن عقد اتفاقاً مع الحسن بن علي كان شرطه أن تكون الخلافة للحسن بعد معاوية. لكن معاوية لم يهدأ ويرتاح لهذا الأمر حتى يرى فيه زوالاً. فيقول علي سامي النشار في ذلك «لكن معاوية لم يهدأ له بال والحسن حي وبيعته له قائمة»[2].

ومات معاوية، وأعلن قبل موته مبايعة ابنه يزيد بالخلافة. وذلك سنة ٦٨٠م. ونقم عليه كثيرون. وخصوصاً الحسين

---

(١) مروة ـ ج ١ ص ٤٥٧.

(٢) علي سامي النشار ـ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ج ٢ ص ٣٧.

وأتباعه، لأنه حوّل الخلافة ملكاً، وهو نمط جديد على المجتمع الإسلامي لم يعرفوه من قبل. فصار الابن يرث الحكم والملك عن الأب. ومعاوية هو الذي قال: «أنا أول الملوك»[1] ودعم في ممارسته السلطة أهل بيته وجنسه، وتحيز للعنصر العربي دون الدين حسب رواية المقري أحد فقهاء المسلمين.

وقد قيل بأن انتقال الحكم من الخلافة إلى الملك، كان جديداً على العرب والمسلمين، بينما في واقع الامر وحسب وقائع التاريخ، لم يكن كذلك. فخلال حكم الممالك القديمة، كمملكة معين، «كان الحكم فيها حسب ما ورد في النقوش المعينية، وراثياً ينتقل من الأب إلى الابن، وقد يشترك اثنان معاً في الحكم، واهتدى بعض المنقبين إلى معرفة ستة وعشرين من ملوك هذه الدولة».

وللتدليل على ذلك، فإن معاوية قبل وفاته، كان قد أرسل إلى العبادلة، أبناء الصحابة يلتمس منهم البيعة لابنه يزيد، لتفويت الفرصة على الحسن بن علي، والتخلص من الوعد والعهد الذي قطعه له. والعبادلة هم: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير. فعارضوه كلهم على فكرته ونيته، وقال عبد الله بن عمر لمعاوية: «. . . فإن هذه الخلافة ليست بهرقلية ولا قيصرية ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء. . .»[2].

---

(١) السيوطي ـ تاريخ الخلفاء ـ ص ١٨٥.

(٢) ابن قتيبة ـ ص ١٦٢.

وواجه الحكم الأموي بعد ذلك مجموعة من الانتفاضات منها: حرب الحسين على يزيد بن معاوية، وانتفاضة ابن الزبير في مكة لاستعادة دورها ومجدها، وإحياء الخلافة فيها، وثورة العبيد في الشام، الذين قصدوا السجون وجميع من فيها، واعتصموا بالجبل المطل على دمشق، ثم انتفاضة الترك التي قاموا بها احتجاجاً على سياسة الإسلام المالية، وسياسة التنعم التي اتبعها حكام بني أمية. ووقف إلى جانبهم المرجئة وساعدوهم وآزروهم على حكام بني أمية. بسبب قسوة الضرائب.

والخلاصة، أنه بعدما تصاعدت حدة الخلافات الداخلية، وكثرت أعمال الشغب والاضطرابات داخل الدولة الإسلامية حول عدة أمور منها: أحقية الخلافة والصراع الحاد على السلطة ومصادرتها واحتكارها. فمنهم من رآها محصورة في أهل البيت، ومنهم رآها من حق كل مسلم، وفريق آخر اعتبرها من حق العلماء وأصحاب الدراية والمعرفة بالدين. وآخرون شددوا على أنها محصورة بأصحاب النفوذ والسيطرة المالية والسياسية، ومن أشراف القوم ووجهائهم.

وباعتبار أنه لم يوجد نص صريح حول مسألة الخلافة، وحول أشكال الحكم وكيفية ممارسة السلطة الإسلامية بعد موت النبي محمد (ص)، فقد تنازعت الناس أمور الحكم وادارة شؤون الدولة، فاجتهدت فيه وابتكرت أساليب جديدة، كما حصل إبان خلافة عمر بن الخطاب وفكرة الشورى.

ونظراً لغياب نظرية للحكم، وتحديد مفهوم السلطة، فقد تنازع المسلمون واختلفوا حول أحقية الخلافة والقيادة تحت شعار «الحق الإلهي». وحصروها أحياناً بالموروث العائلي وأهل البيت، امتداداً وبدءاً بمن نزل عليه الوحي وسقطت عليه النبوة.

إن السلطة المطلقة في الإسلام بررت شرعية العنف، وقالت بوجوب الطاعة، وبعدم الاعتراض على أحكام الله. فنتج عن ذلك غربة الناس عن الحكام والسلاطين. ولذلك فلا سيادة الشريعة وطغيانها، ولا نظرية الحاكمية لله، أمكن لهما أن يُجاريا حاجات العصر، أو يتمتعا بالصفات المطلوبة لبناء الدولة العصرية.

والسلطة في الإسلام، مصدرها مشيئة الله، وهي ليست نابعة من إرادة المسلمين وعامة الناس. ويدعم هذا الاستنتاج ما جاء في الآية الكريمة: **﴿اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾**[1]. هنا يتضح حصر السلطة بالخالق دون غيره. وكذلك الآية: **﴿تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾**[2].

من سياق هذه الآيات يستدل على أن السلطة لا تكون إلا بأمر من الله تعالى. ويندرج تعبير سيد قطب بهذا المعنى فيقول: «نزع السلطان الذي يمارسه البشر ورده كله إلى الله، فلا حاكمية

---

(١) آل عمران - ٢٥.

(٢) الملك - ١.

إلا لله، ولا شريعة إلا منه، ولا سلطان لأحد على أحد، لأن السلطان كله لله..»[1].

ويتفق حسن البنا مع سيد قطب في موضوع السلطان، وفي موضوع وصاية المسلمين على البشر بأمر الله، وفرضها بالقوة إذا لزم الأمر. فيقول: «إن القرآن يقيم المسلمين أوصياء على البشرية القاصرة، ويعطيهم حق الهيمنة والسيادة على الدنيا لخدمة هذه الوصاية النبيلة... وقد أمر الله المسلمين أن يعمموا الدعوة بين الناس بالحجة والبرهان، فإن أبوا وتمردوا فبالسيف والسنان..»[2].

وظلت مسألة الصراع على الحكم والسلطة، موضوع تجاذب وتصاعد حاد، حتى إلى ما بعد مرحلة الخلفاء الراشدين، ومجيء معاوية الذي حوّل الخلافة كما ذكرنا إلى ملك. ولم يخفت الصراع، بل تعاظم أثره وارتفعت حدته من قبل أصحاب أهل البيت، ومن أبرزهم الحسين بن علي، الذي أصر على المطالبة بحقه المسلوب وإرثه المصادر، وأشعل ثورة نتج عنها مقتله، وزادت من انقسام المسلمين وتزعزع أركان دولتهم.

ومن المفارقات العجيبة، وغرائب الصدف، هو ما جرى للخلفاء الراشدين الثلاثة: عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، الذين انتهت حياتهم جميعاً بالقتل والقضاء عليهم غيلة. وإذا كان ذلك يعني من شيء، فإنه يعني وجود

---

(١) سيد قطب ـ معالم في الطريق ـ ص ٢٩.

(٢) حسن البنا ـ مجموعة الرسائل ـ ص ٣٥ ـ ٣٧.

انقسامات حادة، وتكتلات للتعبير عن معارضة لسياسة الدولة الإسلامية، كانت تتشكل سراً وبقيت مخفية تحت الرماد، وتعكس حالات تمرد وتململ كانت مقموعة ومطمورة، وغير مسموح بها، ولابرأي آخر غير رأي أهل الحكم. وهو أكثر ما يعبر عن عدم توافر مقومات الحرية وغياب الديمقراطية، وانتشار حالات التمييز والتخصيص، مما كان سبباً بانتشار حركات معارضة، لم تستطع أن تعلن عن موقفها علناً إلا حين سنحت الظروف. فانفجرت بوجه نظام الحكم الإسلامي تعلن موقفها وملاحظاتها من ممارسات النظام السائد والاستئثار بالحكم، وتبدي اعتراضها على سياسة بعض المحظوظين وأصحاب الثروة والنفوذ. وإلا لما كانت تحصل هذه الانتفاضات، وتحصل هذه المجازر وعمليات القتل والاغتيال، كما لم تحصل بالمصادفة أو نتجت عن حركة طارئة وعابرة: ولا كانت نتيجة رغبة شخصية جامحة، دفعت بصاحبها إلى تصفية الحساب. وإنما كان ذلك يعكس مدى الخلل في عدم فهم أو وجود نظرية واضحة للسلطة، ومدى بروز تناقضات حادة داخل المجتمع الإسلامي، أدت إلى تفجرها من داخل الدولة. وكذلك وهو الأهم، استفحال الصراع الطبقي والاجتماعي والاقتصادي في مجتمع الدولة العربية التي أخذت تتفكك مع مرور الزمن، حتى بلغت إلى ما نحن نعانيه اليوم من التشرذم والانقسام المستشريين بين الأوساط العربية كلها.

□ **منير فارس**

هل يحق لي أن أعرف؟
وإذا عرفت هل يحق لي
أن أقول الحقيقة؟!!!

منير فارس



الخاتمة

عقدة عسيرة الحل

وبعد هذا البيدر الذي كان مكدساً بالخير وبركات الانتاج، انقلبت الموآزين، واختلت الجسور وانهارت فوق الرؤوس. وبدل أن نرصع العصر بزينة الفرح والتطور والتقدم في الحاضر، تجدنا ننتقل على هودج الغابر حاملين خزائن الذكريات بعناد وتصميم، فهجرتنا السعادة والعدالة والحرية، وسقط كل شيء، ولم يعد هناك شيء ينفع. ولم يعمِّر التاريخ إلا أعجازاً من النخيل خاوية جادبة من الثمر، واجتاح التصحر أمة كان لها حصة مشرقة في التاريخ العالمي، وفي صناعة الحضارات الحافلة بالثروة والغنى.

لم يعد ينفع هذه الأمة شيء. فلا قيمة للإنسان، ولا قيمة للمبادىء والمعتقدات، ولا قيمة للأرض، ولا حتى هناك قيمة

للقيمة. لم يعش شيء، ولم يبق شيء إلا تلاشى مع الزمن وانهار مع الوقت. ذلك لأنه لا قيمة للأشياء ولا قيمة للوقت عندنا.

ورغم ذلك ما زلنا ننتظر الصحوة والانتفاض، وما زلنا نترقب في محطات الإهمال والعجز. ربما، ولعله يتجدد نزول الوحي، وتحصل معجزة كتلك التي كانت تحصل إبان مراحل إرسال الأنبياء والرسل.

إننا أمة غنية بكل شيء إلا بأهلها، لقد أفسدنا كل شيء، وأهملنا كل ما له علاقة بالعقل والفكر والإبداع، وسبحنا في كل ما له علاقة بالنقل والتكرار والاجترار، وانغمسنا في بحر الأوهام، حتى بلغنا القاع. فالذي لا يعرف كيف يعوم، لماذا يرمي نفسه في البحر؟!!

لم نعد نعرف من معنى الجد والصلابة والرجولة إلا أشكالها؛ وغرقنا في متاهات اللهو والإمتاع والمؤانسة، وداومنا في متاهي الزمن المهمل، والألعاب الضاحكة، والألقاب الفاقعة، وفي سيرك البهلوانيات المسلية.

جميعنا نحتشد في ساحة الدمى المتحركة، ونتصاعد مع فقاقيع أدخنة النخلة وزغلول[١]، التي تعبق أجواء الأمة بالدخان الأسود، فتحجب الشمس وتمنع الرؤية والانقشاع حتى كدنا نشتري لغة الحرية ومفرداتها من الآخرين، ونتسكع في طلبها من حدائق كاليفورنيا وشواطىء ميامي، والذين هادوا[٢] وتمادوا في

---

(١) أنواع من التنباك المعسل، تستعمل للنراجيل.

(٢) هادوا: هم اليهود.

السيطرة على أرضنا وشعوبنا!!.

جميع الرسل والأنبياء نزلوا في أرضنا، وخاطبوا بلغتنا، وجميع الأديان الإبراهيمية الثلاثة، نزلت على قروننا. ولكننا كنا أكثر الناس عداوة ونفاقاً في التعاطي مع المبادىء والأديان. وهو ما ورد في القرآن الكريم: ﴿**الأعراب أشد كفراً....**﴾.

لم نعر أي اهتمام بالدنيا، فتوغلنا كثيراً في طلب الآخرة، فأهملنا الدنيا وأهملنا أنفسنا. حتى ضللنا في الدنيا، وفقدنا بوصلة الآخرة.

كل شيء منقول غير معقول. وكل معقول يمكن أن يصدق ويُرى، ويمكن فهمه ومعرفته. وكل ما تبدَّى أننا لا في المنقول انتقلنا إلى بناء المجتمع وتطوير الحضارة، ولا في المعقول استطعنا أن نشيد العمارة. «إذ لا يمكن تشييد عمارة على أرض هشة»[١].

إذن، نحن أمة نعيش بالألغاز والعقد، ونتدثر ونتزمل بالأكنة والغموض والوشاح. نتسابق في الولائم ولا نترك للفقر مساحة في خارطة النهم والجشع. ونفر لواذاً[٢] من مواجهة المصائر، ونتحابى في الهزائم.

الجوع يحفر في أحشائنا، والعطش يطاول ريقنا، حتى لنكاد أن نقول بأنه عقاب من الخالق، وامتصاص من الجهل.

---

(١) عامر عبد الله ـ مجلة الطريق ـ مقالة: لماذا انهار الاتحاد السوفياتي ونظامه..

(٢) لواذا: خفية.

فقد ورد في القرآن الكريم: **﴿ولكم في الحياة قصاص يا أولي الألباب﴾**. فهل هو قصاص فعلاً؟ لكنني أردد مع أنسي الحاج بالقول: «أفظع قصاص هو أن يستيقظ القاتل من نومة القتل، هو أن تغادره نعمة الطيش ويعود فيشبه ضحيته..»[1]. فمن فينا القاتل، ومن فينا الضحية؟!!

نحن عرب أم مسلمون؟ أم نحن عرب مسلمون؟ أم نحن عرب ومسلمون؟ لسنا ندري من نكون، ولم نحدد هويتنا بعد!! لكن بعض الأحاديث النبوية تقول: «ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي».

وقد زاد على ذلك كتابات فقيه من أهل الفتوى مثل الأفغاني، قال: «وحدة اللغة هي الأساس الذي تقوم عليه الجنسية - يقصد القومية - واللغة أشد ثباتاً وأكثر دواماً من الدين...». فهل اهتدينا إلى هويتنا، وعرفنا ماذا نريد؟!! إن ما نفتقده اليوم ليس اللغة، وإنما الواقع.

لم نكتشف شيئاً جديداً بعد، ولم نصل إلى عتبة القطار السائر بالعالم نحو العولمة في العلم والثقافة والفكر. لكن البعض اختصر المسافة بتسفيه الحياة الدنيا، وانتصار العمل للآخِرة. ذلك لأنه «عندما يستعصي الأمر جراء ارتطام هذه المثل العليا بحواجز الزمن وأحكام الواقع، يتم اللجوء إلى الموعظة والإهابة، وإلى التقشف والزهد، ثم إلى الرهبنة والتصوف،

---

(١) أنسي الحاج - مجلة الناقد - مقالة: قل كلمتك وأنت نائم عن العالم - العدد ٣٢ ص٩ .

وبالتالي إلى ترحيل أماني وعذابات الإنسان إلى الدنيا الآخرة...»[1].

نعيش في أمة أرضها غنية وشعبها جائع، وهو ما استثار نقمة أبي ذر الغفاري الذي اعتزل الناس، واختار له ملجأ في الصحراء بالقول المأثور: «عجبت لامرىء ينام ليله جائعاً، ولا يخرج على الناس شاهراً سيفه».

لم نعرف نعمة الاستقرار، ولا نعمة الأمن والهدوء، طالما تعرفها أنظمتنا المستبدة. صرنا فرجة للعالم، ومسخرة في الهيبة وقلة الإحساس بين الأجناس. لم يستهونا إلا ما جرى في الماضي، ولم نسع إلى استعمال لغة مناسبة للحاضر. لم نتكلم بلساننا، ولم نبتكر شيئاً من عقولنا. وإنما اختلفنا بألسننا وسمحنا لألسن الغير أن تبلسنا هزواً، ﴿... **وكلاً تبرنا تتبيراً**﴾[2].

لقد أصابنا ما أصاب أصحاب الرَّس[3]. وانهارت نفوسنا ومنازلنا ومبادؤنا ومعتقداتنا، وارتدت علينا ويلاً وهلاكاً. نحن أصحاب الرسالات، وأرض النبوة، وملتقى الأديان والعبادات، بأيدينا زرعنا الهوة والفجوات، ونظن أنها بركات. وحفرنا الأجداث لأنفسنا، ونحن أحياء مبلسون، بينما الآخرون أمواتاً يرزقون!!.

---

(1) عامر عبد الله ـ مجلة الطريق ـ مقالة: لماذا انهار الاتحاد السوفياتي ونظامه..

(2) الفرقان ـ ٣٩ .

(3) الرسّ: اسم بئر، قوم شعيب وقوم غيره، فانهارت بهم وبمنازلهم.

وأما بنعمة ربك فحدث، حدث ولا حرج، تكلم ولا تخف، قل ولا تضعف، اصرخ ولا تصمت، ارفع صوتك ولا تهمس، فنحن الكثرة الكافرة، خالدون في النار فيها أبداً. لم الخوف، هي النار وليس غيرها، فالعذاب عذاب، والنار نار، والخلود خلود. فلماذا الخوف إذاً؟!!! فمن يخاف الموت، يخاف القول، ومن يخاف القول، لا يستحق الحياة، فلا أنت بمؤمن، ولا أنت بكافر، أنت إنسان، ومن ذرأ الكون غني عن عباده المؤمنين والكافرين، وغني عن جميع البشر.

لأننا فقدنا قيمة الأشياء، لم نعد نفقه لغز الوجود ومعنى الأشياء. لم يعتد علينا أحد ويسرق عقولنا، نحن تعدينا على أنفسنا، وجنينا على أذرعنا، وهو ما كسبت يدانا، وكل نفس بما كسبت رهينة. وبأيدينا حوّلنا أرضنا إلى فقر وقفار، وبات أهلها كمثل الحمار الذي يحمل أسفاراً...!!!.

نحن أصحاب الرسّ، سقطنا إلى أسفل القعر، ونعيش اليوم على فتات الحضارة داخرين. ونسبح بحمد الله عشياً وإبكاراً، سائلين النصر والعزة قائلين: آمين.

نحن أصحاب الرسّ، نحن أصحاب البئر السحيق، وقعنا فيه، ولن ينتشلنا أحد منه، ولم يبق من يسحب الحبل. نحن الذين حفرنا البئر، ومن حفر حفرة لأخيه وقع فيها، ونحن وقعنا، ووقعت علينا وعلى رؤوسنا كل الأبنية المادية والمعنوية، وتناثرت شظاياها فوق سمائنا، وطاولت عقولنا حتى بلغنا القاع. وطمرنا الماضي والحاضر والمستقبل في ذلك البئر. وما زلنا

نستغيث بطلب رحمة السماء، وعودة الأمجاد!!! وبأن يأتينا النصر من رب العالمين.

نحن أصحاب الرسل، نحفر بأظافرنا آثار الخيانة والدس، ولم يبق في الساح إلا صاحب السلطان، وكل من اعتمَّ والتحى، وبين الصفا والمروة سعى. فهذه ظروفنا وأقدارنا، وما يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، إنها مشيئة ولا رد لها، وكل ما يجري ويحصل منسوخ ومكتوب في اللوح المحفوظ، وكل أجل له كتابه. وما شاء ربك من عنده أعطانا، فجعلنا أمة خلت من بعدها القرون. ولا مرد لحكمه وطاعته وقضائه. فما أصاب من مصيبة إلا بإذنه ولأننا لم نحفظ الأمانة، ولم نستطع حملها والاستمرار بها إلى الأمام، ارتدت علينا كل أعمالنا، فاستسهلنا الإسراف في اللهو والبذخ، فتحول دماراً على الدار وأهل الديار، وتوارى من سمائنا مزن الطل، وجدبت أرضنا، وساء حالنا ولم يتسنَّه منذ أكثر من خمسمائة عام فوق الألف. فسقط كل ما شيدناه، وهوى كل ما ثقفناه على رؤوسنا، وأصابنا ما أصاب أصحاب الرسل.

والخلاصة، إن أمة يستشري فيها الفساد، وتنبعث منها روائح التعصب والاستهتار بكل القيم والمبادىء، وتفوح منها أبشع الألقاب والمفردات، ويسودها أعتى أنواع الظلم والاستبداد، وتنبطح أنظمتها «بفخر» في وحل الاستسلام ومستنقع المساومات المذلة، ويلفها صمت قاتل يخجل منه أي تفسير.

أمة معقدة فيها الغاز كثيرة يستعصي حلها، أمة كهذه أشبه برواية للمؤرخ اليوناني الشهير، بلوتارك، يقول فيها: «بأن هناك

عقدة عرضت على الاسكندر، وهي عقدة مشوشة، عقدها ملك غورديوس. وكانت الأسطورة تقول إن من يفك العقدة، يصبح سيد آسيا بأسرها. ولكن الاسكندر المقدوني، لم يستطع أن يفك العقدة... فقطعها بسيفه...».

ترى، ما هو الحل؟ فاللسان معقود أيضاً، ويستعصي عليه الكلام، فمن يقول ومتى؟!! ومن يحل العقدة؟ ومن يستحق أو يجرف هذا العار، ومن يزيل هذه الأوحال والبرك الشاسعة من واقعنا العربي، ويزيحها عن كاهل شعوبنا المغلوبة على أمرها؟!!.

في الماضي كنا أسياد العالم، بينما اليوم لسنا أسياد أنفسنا. فهل يبقى هناك من بارقة أمل؟ وماذا يخبىء لنا المستقبل أكثر مما نحن فيه؟.

فهرس المحتويات



لم تكن كل الأجوبة من الماضي مقنعة لإنساننا الحاضر، ولذلك ترتدي إعادة دراسة تاريخنا السياسي والإجتماعي والثقافي، بمنهجية بحث علمية متحررة من كل قيد، أهمية بالغة لمعرفة مكامن التعسّف السائدة والتي تنخر مجتمعاتنا العربية بأبشع الصور والمفاهيم.

إنَّ ما يحاوله منير فارس في سلوكه الخاص لا يتعارض مع نهجه العام، بل تراه، أكثر فأكثر يضيء على الحاضر والمستقبل بالاستناد الى الماضي دون التسّرع وإطلاق الاحكام والآراء، بل باعتماد أسلوب التحليل والتفكيك بهدف التوصل الى الضروري من الإستنتاجات والخلاصات. فهذا الكتاب هو محاولة لدراسة مكامن الخلل ومفاسد الأوضاع، من أجل وضع القارىء أمام مسؤولية المشاركة، والإجابة عما إذا كان الماضي بمجمله يمكن له أن يتكرر في الحاضر..